الباب الرابع

الوعي العلمي

أولاً: مقاييس التصنيف

يتم تصنيف العلوم طبقاً للموضوع: علوم شرعية وعلوم غير شرعية أو طبقاً للمنهج: علوم نقلية وعلوم عقلية، علوم عقلية وعلوم قلبية أو طبقاً للتاريخ، علوم السلف وعلوم الخلف، أو طبقاً للعقائد، علوم الدنيا وعلوم الآخرة. وقد يجمع التصنيف بين الموضوع والمنهج في قسمة العلوم إلى علم العقل وعلم الأحوال وعلم الأسرار، علم الظاهر وعلم الباطن، علم التنزيل وعلم التأويل. وبالرغم من كل هذه التقسيمات الثنائية أو الثلاثية للعلوم إلا أنها تنتهي كلها إلى أن العلم علم واحد، وهو العلم الإلهي. ويقال العلم والمعرفة على التبادل ولكن الغالب هو العلم فقسمة المعرفة إلى نقلية وعقلية هي نفسها قسمة العلم.

وتسير هذه التصنيفات الثنائية طبقاً لنسق واحد. وفي الحقيقة هي قسمة واحدة متكررة في أشكال متعددة. فعلوم الشرع والنقل والعقل والظاهر والتنزيل والسلف والدنيا علم واحد. والعلوم غير الشرعية هي علوم القلب والتجربة والباطن والتأويل وعلوم الخلف وعلوم الآخرة وعلم الأحوال والأسرار. وفي النهاية هذه الثنائيات هي الظاهر. وباطنها وحدانية العلم الذي لا تمييز فيه بين شرع ولا شرع. بين نقل وقلب، عقل وتجربة، ظاهر وباطن، تنزيل وتأويل، سلف وخلف، دنيا وآخرة، أحوال وأسرار.

1 ـ العلوم شرعية أو غير شرعية

وتنقسم العلوم إلى شرعية أو غير شرعية[1] الشرعية من الأنبياء والدين لا

(1) الإحياء جـ1/ 23.

تستند إلى العقل مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة. والعلوم غير الشرعية تنقسم إلى محمود ومذموم ومباح. المحمود مرتبط بمصالح الدنيا كالطب والحساب. والمذموم كالسحر والطلسمات والشعوذة والتلبيسات. والمباح كالشعر والتاريخ دون إسفاف.

وقد يتداخل الكم مع الكيف في تحديد المحمود والمذموم. وبالتالي يكون العلم ثلاثة أقسام: الأول مذموم قليله وكثيره وهو ما لا نفع فيه. والثاني محمود قليله وكثيره مثل العلم بالله، صفاته وأفعاله، ومثل العلم بالكتاب والسنة. والثالث يُحمد الكفاية، ويذم الفضل[1].

ويذم العلم لأسباب ثلاثة: أن يؤدي إلى ضرر لصاحبه أو لغيره مثل علم السحر والطلسمات وهو مذكور في القرآن، وأن يكون مضراً بصاحبه في الغالب كعلم النجوم الحسابي أو أحكام النجوم التي يستدل بها على الحوادث والأسباب مثل طب الأبدان. وهو مضر بالخلق، تخمين خالص، لا فائدة منه[2].

وينقسم المحمود إلى فرض كفاية وفرض عين أي فضيلة. فرض الكفاية هو الضروري الذي لا يمكن الاستغناء عنه كالطب للأبدان والحساب للصناعات، والفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة والخياطة[3].

والعلوم الشرعية محمودة كلها. ولها أصول وفروع ومقدمات ومتممات. والأصول أربعة: الكتاب والسنة والإجماع وآثار الصحابة دون القياس. والفرع ما فهم من هذه الأصول بموجب معانيها وليس ألفاظها. منها ما يتعلق بمصالح الدنيا وهو الفقه، ومنها ما يتعلق بأمور الآخرة مثل كتاب «الإحياء». والمقدمات هي علوم الآلات والوسائل كاللغة والنحو والكتابة والخط. والمتممات مثل ما يتعلق باللفظ في علوم القرآن وهي القراءات، وإلى ما يتعلق بالمعنى مثل التفسير واعتماده على نقل اللغة، وإلى ما يتعلق بالأحكام مثل الناسخ والمنسوخ والعام

(1) «بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة»، السابق جـ1/ 45-48.

(2) «فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذي يكون به بعض العلوم مذموماً، وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة، وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها...»، السابق جـ1/ 35-48.

(3) السابق جـ1/ 23-25.

والخاص والنص والظاهر، وهو علم أصول الفقه. والمتممات في الأخبار والآثار مثل العلم بالرجال والجرح والتعديل وعلم مصطلح الحديث لضبط الرواية.

والعلم المحمود هو الكلام عند المتكلمين فهو علم التوحيد. وعند الفقهاء هو الفقه لمعرفة العبادات والحلال والحرام في المعاملات. وعند المفسرين والمحدثين هو علم الكتاب والسنة أساس العلوم كلها مثل حديث أركان الإسلام الخمسة[1] وعند الصوفية هو علم التصوف، علم المقامات والأحوال. هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس. هو علم الباطن. هو علم المعاملة التي كلف بها العاقل. وهي ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك. الاعتقاد مثل الشهادتين تقليداً عند العامة، وبرهاناً عند الخاصة.

والفقه أشرف من الطب لأنه علم شرعي مستفادة من النبوة في حين أن الطب علم إنساني خالص. هو علم للجميع في حين أن الطب علم للمرضي وحدهم. وهو مجاور لعلم الآخرة لأن أعمال الجوارح لصيقة بأعمال القلوب[2] والفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء. فالعلم علمان: علم الأمراء وعلم المتقين. علم الأمراء هو علم القضاء. وعلم المتقين هو علم اليقين والمعرفة[3] ولا يفتي إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو متكلف. الأمير هو الإمام العالم. والمأمور هو صاحب منصب الفتيا. والمتكلف هو العالم بالقصص وعبر التاريخ. يمثل الأمير الوعي العلمي السياسي، والمفتي الوعي العلمي الاجتماعي، والقاضي الوعي العلمي التاريخي[4] وأحياناً يتفق الفقهاء والصوفية في تصنيف العلم. فالعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان كما قال الشافعي. علم الأديان علم الحقائق والمعارف. وعلم الأبدان علم السياسات والرياضيات والمجاهدات[5].

والعلم علمان: علم الأمراء وعلم المتقين. الأول علم القضايا، والثاني علم

(1) «في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة»، السابق جـ1/ 20-35.

(2) السابق جـ1/ 26.

(3) قوت القلوب جـ1/ 278.

(4) حديث «لا يفتي الناس إلا ثلاثة: أمير ومأمور أو متكلف»، السابق جـ1/ 268.

(5) طبقات الصوفية ص480.

اليقين والمعرفة. والقضاء ثلاثة: قاضي يقضي بالحق وهو يعلم، فهو في الجنة. وآخر يقضي بالجور وهو يعلم، فهو في النار. وقاضي يقضي بالجور وهو لا يعلم، فهو أيضاً في النار. وماذا عن القاضي الذي يقضي بالحق وهو لا يعلم؟

ويمكن إدخال علوم التصوف ضمن منظومة العلوم الشرعية. والنظرة الكلية للعلوم أو بما يسمي «تقسيم» العلوم أو «إحصاء» العلوم أو «تصنيف» العلوم هي القادرة على تحديد ميدان كل علم وغايته. فعلوم الشريعة أربعة أقسام:

أ ـ علم الرواية والآثار والأخبار، ينقله الثقات عن الثقات. مثل علم الحديث.

ب ـ علم الدراية، وهو علم الفقه والأحكام المتداول بين العلماء والفقهاء والذي يعتمد على الاستنباط وإعمال العقل والمصلحة.

جـ ـ علم القياس والنظر والاحتجاج على المخالفين، وهو علم الجدل لإثبات الحجة على أهل البدع والضلالة لنصرة الدين مثل علم الكلام.

د ـ علم الحقائق والمنازلات، علم المعاملة والمجاهدات، والإخلاص في الطاعات والتوجه إلى الله من جميع الجهات والانقطاع إليه في جميع الأوقات، وصحة المقصود والإرادات، وتصفية السرائر من الآفات، وإدانة النفوس بالمخالفات، والصدق في الأحوال والمقامات وحسن الأدب في السر والعلانية، والإعراض عن الدنيا، والوصول إلى الكرامات والاكتفاء بخلق السماوات. وهو أعلى مراتب العلوم. وكل علم مسؤول عن أخطائه يصححه أهله[1].

(1) «باب في تفسير العلوم، وبيان ما يشكل على فهم العلماء من علوم الخاصة وتصحيح ذلك بالحجة»، اللمع ص455-458/ 476-477.

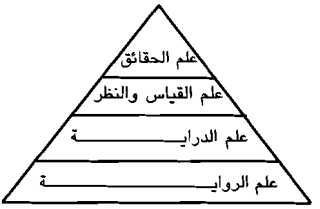

2 ـ العلوم نقلية أو قلبية

العلوم نوعان: نقلية من ميت عن ميت، وقلبية من الحي الذي لا يموت. الأولى المعارف النقلية كالقرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه. والثانية المعارف الذوقية كالتصوف[1]. الأولى ينقلها الناس والثانية ينهل منها الصوفية[2] وقد خصت الأمة بثلاثة علوم: الإسناد، حفظ الكتاب، وعلم الإيمان، وثباته في القلوب[3] العلمان الأولان نقليان. والثالث علم قلبي. وفي تصنيف آخر خصت الأمة الإسلامية بأربعة علوم: الإسناد، وحفظ الكتاب، وشيوع العلم عند كل الناس وليست عند طبقة معينة مثل الأحبار والقسيسين، وثبات الإيمان في القلوب ضد الشك والظن. يحسن العلم بالرواية لمن يطلب. أما طلب العلم للتزين به عند الخلق فإنه يبعد عن الرسول[4] والعالم الذي يكون علمه من الله، يأخذ عنه ما يشاء كيف يشاء بلا تحفظ ولا كتب[5] ويُرخص في النقل بالمعنى واستعمال المرسل والمقطوع لأنها ليست باطلة يقيناً وغير مخالفة للكتاب، وحسن الظن أحد مراتب اليقين، والأخذ بالضعيف دون الرأي والقياس[6].

ولا تأتي المعرفة من العلم المدون بل بالتجربة مثل الشك. فإذا ابتدأ الإنسان بالشك ثم كتب الحديث فتر. وإذا ابتدأ بكتب الحديث ثم تنسك نفذ[7] لا يستمد العلم من بطون الكتب ولا من أقوال المتقدمين بل من الأحوال النفسية. فالعلم حالة شعورية[8] ليس العلم بكثرة الرواية. إنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدي بالسنن وإن كان قليل العلم[9] فالعلم ليس نقلاً بل ممارسة.

---

(1) «مساكين أخذوا ميّتاً عن ميّت وأخذت علماً من الحي الذي لا يموت»، شطحات ص100.

(2) «الناس يقولون به، وأنا أقول منه»، السابق ص100/ 104.

(3) قوت القلوب جـ1/ 279-280.

(4) «إنما حسن طلب العلم وإخبار الرسول لمن يطلب المخبر به أو المخبر عنه. فأما طلبه ليزين نفسه عند الخلق فإنه يزداد بعدا من الله ورسوله»، السابق ص150.

(5) السابق ص155.

(6) «تفضيل الأخبار وبيان طريق الإرشاد وذكر الرخصة والسعة في النقل والرواية»، السابق ص359-364.

(7) طبقات الصوفية ص55.

(8) التستري ص135/ 166.

(9) طبقات الصوفية ص285.

كانت المعرفة في القلوب ثم صارت في الكتب[1] وليس الخبر كالمعاينة[2].

ما كتب صحيح إلى صحيح، وما لقي صحيح صحيحاً، وما افترقا في الحقيقة[3] فالتدوين تدوين قلبي. المعرفة غايتها الاتحاد. ومن عمل بعلم الرواية وُرّث علم الدراية ثم علم الرعاية ثم هدي إلى سبيل الحق[4] فالعلم طريق من الرواية إلى الدراية إلى الحق.

المعرفة مقامان: معرفة سمع ومعرفة عيان. الأولى تصديق من الإيمان، والثانية مشاهدة عين اليقين. وأعلى العلوم علم المشاهدة عن عين اليقين. وهو علم المقربين. وأدناها علم التسليم والقبول دون إنكار أو شك. وهو لعموم المؤمنين. علم الإيمان والتصديق لأهل اليمين. وما بينهما مقامات[5] واليقين ثلاث مقامات: يقين معاينة مطابق للخبر، وهو علم الصديقين والشهداء، ويقين تصديق واستسلام للخبر، وهو يقين المؤمنين الأبرار، ويقين ظن يقوي بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء وهو يقين المتكلمين. والفلسفة ليست علماً. وهي أربعة أجزاء. الأول الهندسة والحساب مباحان. والثاني المنطق وهو داخل في علم الكلام. والثالث الإلهيات، وهي في النهاية رأي قوم مثل الاعتزال يخطئ ويصيب. والرابع الطبيعيات وأكثر الخطأ فيها وهي أقل فضلاً من الطب[6].

والعلم الشفاهي غير المدون هو العلم القلبي غير المكتوب، «عن ربي عن قلبي» وليس «من ميت عن ميت». الأول علم الأحياء، والثاني علم الأموات[7] وتبدأ بعض المواقف بقرآن غير مباشر مثل ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ﴿إنما أمرنا لشيء﴾. ثم يتحول التنزيل إلى

(1) السابق ص503.
(2) قوت القلوب جـ1/ 238.
(3) السابق ص317.
(4) السابق ص421.
(5) «فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم، وكشف طرق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة»، السابق جـ1/ 267-277.
(6) السابق ص29-30.
(7) «وقال لي: هذه عبارتي وأنت تكتب، فكيف وأنت لا تكتب؟»، المواقف ص70.

تأويل، والنص إلى تجربة حية، والعلم المدون عن طريق اللغة إلى العلم المباشر عن طريق القلب[1] العلم المباشر رؤية، والعلم المدون مكتوب. و«كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»[2] العلم كشف، والعبارة حجاب. العلم تجلٍّ والعبارة ستر. لذلك كان الصمت أولي من الكلام. ويعرف الحال من المستند. وإذا كان المستند ذكري رد إلى الله[3] والعلم مباشر بين العالم والعلوم ليس علماً باللوح والقلم[4] العلم حدسي، رؤية مباشرة، لا يستطيعها الفهم. يلوح في الضمير وأدق من الفهم[5] وعندما يتكشف الحق، لا حاجة إلى دليل نقلي وبرهان عقلي. يغني عن دليل القوم والحدوث ودليل الصنعة والصانع. فالحديث لا يثبت القديم. وهو نفس النقد الذي وجهه ابن رشد فيما بعد لأدلة وجود الله عند الأشاعرة. الدليل من الله وإلى الله ولله. هو دليل التفرد، دليل وجود من يحبه[6].

العلم المكتوب يولد السقم والضني والملل. لا يهيم في الفؤاد. في حين أن العلم الحي نتيجة للبكاء الدائم الذي تجري به السفن كما هو الحال عند الحسن

---

(1) السابق ص111-113.

(2) السابق ص115.

(3) السابق ص116.

(4) فخذ حديثي، حسبي، أنت تعلمه ... لا اللوح يعلمه حقا ولا القلم
الديوان ص320.

(5) أشار لحظي بعين علم ... بخالص من خفيّ فهم
ولاثم لاح في ضميري ... أدق من فهم وهم وهمي
السابق ص320.

(6) لم يبق بيني وبين الحق تبياني ... ولا دليل بآيات وبرهان
لا يعرف الحق إلا من يعرّفه ... لا يعرف القدمي من المحدث الفاني
لا يستدل على الباري بصنعته ... رأيتم حدثا ينبي عن أزمان؟
كان الدليل له منه إليه به ... من شاهد الحق في تنزيل فرقان
كان الدليل له منه وبه وله ... حقا وجدنا به علما بتبيان
هذا وجودي وتصريحي ومعتقدي ... هذا توحد توحيدي وإيماني
هذي عبارة أهل الانفراد به ... ذوي المعارف في سرٍّ إعلان
هذا وجود وجود الواحدين له ... بني التجانس أصحابي وخلاني
السابق ص323-324.

البصري الذي كان يترك بركة من دموع بعد السجود في الصلاة. هو نتيجة للتهجد وسهر الليالي[1] والرسائل المتبادلة بين العبد والرب ليست رسائل مدونة بل رسائل روحية. والحب المتبادل بين الحبيبين لا يحتاج إلى خطاب بل هو حب روحي. وإذا أرسل الله القرآن كتاباً فإن رده يكون بالروح[2].

علم الصوفية يوجب إنكار كل علم مرسوم. وهو كل علم معلول. وما بان شيء فيمتحي. ليس علماً مدوناً. وإن كشف فإنه يتحول إلى مدون ولا يكون علماً. كان العلم في الصدور فأصبح في كتاب مطمور[3] العلم يورث الخوف، والوجل، والسكينة والطمأنينة على قدر أحوال الناس ومقاماتهم. وتصح الأحوال إذا كانت عن نتائج العلوم[4] فالعلم شعوري بين السلب كالخوف والوجل والإيجاب مثل السكينة والطمأنينة. وما فائدة علم لا يتخارج، ولا يتحول إلى معلوم يستفيد منه الناس؟ «أعوذ بالله من علم لا ينفع».

وبالرغم من تأكيد التصوف النفسي على العلم والمعرفة إلا أن الأحوال النفسية تجب العلم[5] العلم تجربة ذاتية ونظر خاص ومشاركة الآخرين فيها[6] وحجة القائل تقنع إن كان ما يؤيدها في التحقيق. والسماع لا يفهم إلا إذا كان

---

(1) إن كتابي يا أنا ... من فرط سقم وضني
وعن فؤادي هائم ... وعن سقام وعني
وعن بكاء دائم ... جري فأجري لفنا
وعن جفون أرقت ... فما تذوق الوسنا
السابق ص331.

(2) كتبتُ ولم أكتب إليك وإنما ... كتبتُ إلى روحي بغير كتاب
وذلك أن الروح لا فرق بينها ... وبين محبيها بفصل خطاب
وكل كتاب صادر منك وارد ... إليك بلا رد الجواب جوابي
الديوان، ص291.

(3) طبقات الصوفية ص490.

(4) السابق ص496.

(5) لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
الإشارات ص223.

(6) «هذا ما أفضى إليه نظري. ووقف عليه بصري. واحتوي نحوه وردي وصدري. وطاح في عرضه خطري وغرري بعد الاستخارة المقدمة والاستشارة المتممة وبعد توجه القلب لصفاء الضمير... فإن سرك أن تبرز بهذه الخلعة، وتتملص من ضرورة الخدعة، وتفوز =

هناك ما يؤيده من وجد السامع[1] فالتجربة المشتركة هي عنصر التفاهم بين القائل والسامع. لا يعرف النار إلا القدّاح، والحزن إلا النوّاح[2].

ونموذج التدوين هو علم الحديث الذي يعتمد في صدقه على السند. يعطي الحلاج سنداً آخر من الطبيعة. فالطبيعة هي التي تحدّث. والصوفي يسمع صوت الطبيعة ويتلقي علومه منها. فلا السند ولا المتن صحيحان تاريخياً ولكنهما دالان روحياً[3] وقد يروي الحديث عن الشأن والقلب بعد السند وقبل المتن. ويعطي سبعة وعشرين حديثاً جديداً في السند والمتن. وقد تتفاوت سلسلة الرواة من اثنين إلى سبعة[4] وقد يصل إلى الله وقد لا يصل. يكفي الملأ الأعلى أو الطبيعة أو القلب أي السماء والأرض والنفس وما بينهما. وقد يكون الحديث مركباً من سندين أو ثلاث يبدأ كل منها بلفظ «حدثنا»[5] وقد يرد حديثان بإسناد واحد[6] ولا فرق بين ظواهر الطبيعة وعوالم الملأ الأعلى وعالم النفس والقلب والجوارح ومعاني النص الديني، القرآن والحديث. فالواقع والعقل والوحي شيء واحد. ولا يوجد تطابق ضرورة بين الظواهر على مستوياتها الثلاثة. إذ كلها تخضع لتأويلات متعددة. لذلك كثر الشراح بين الحقيقة والمجاز.

وقد يكون السند من الأفراد مباشرة مثل الحسن أو رمزاً مثل ساعة الساعات وهو آدم مع قوي النفس مثل الإرادة، إرادة الصفات القائمة بالذات القديمة، مع بعض الصفات الأخلاقية مثل الإحسان، إحسان القدرة أو المعرفة[7] وقد تكون سلسلة الرواة من نظرية المعرفة، من الإيمان المعروف إلى اليقين الموجود عن

= بضرائب المتعة بعد المتعة فافعل. فإن الحظ في ذلك كله لك، والربح في يدك، والغبطة مكتنفة نظرتيك مشتملة عليك»، السابق ص336-337.

(1) «القول حجة على القائل متي لم يؤيدها بما يحققه. والسماع وبال على السامع متي لم يؤكده بما يشهد الوجد به»، السابق ص363.

(2) والنار يعرفه من كان قداحا والثكل يعرفه من كان نوّاحا
السابق ص409.

(3) الحلاج: الأعمال الكاملة، الروايات أو الأحاديث ص269-275.

(4) «قال: الشأن والقلب مما خالا»، السابق ص272.

(5) «حدثنا بالرؤيا الصادقة عن الملك الحكيم»، السابق ص269.

(6) السابق ص270.

(7) «حدثنا ساعة الساعات، عن الحسن، عن الإحسان، عن الإرادة، عن الله»، السابق ص272.

العلم القديم[1] ومن الفهم المبين عن القرآن المجيد عن محمد عن جبريل عن الله[2] وقد يكون السند من الاسم العزيز عن الروح القديم عن المعنى المحيط عن الله[3] وتدخل الفطرة الساطعة كأحد وسائل المعرفة مع المعرفة الأصلية والكلمة العليا وصنع المجيد[4] ويدخل الحق الأعلى، والجليل الوحيد، والحدان، الركن والمقام، كوسائل علوية للمعرفة[5] وقد يدخل القدم والغيب ضمن وسائل المعرفة مثل روح الحياة ونور السمع والبصر[6] وقد تدخل السماء والأرض مع الفطرة والقدرة والجلال[7].

وقد تتدخل الملائكة في نظرية العلم مثل «الملك الحكيم» كناية عن جبريل أو «الكروب الكبير» كناية عن إسرافيل مع الرؤية الصادقة، واللوح المحفوظ، والعلم. ومن ثم تكون الرواية على مرحلتين، راو وهو «الرؤيا الصادقة» عن راو آخر «الكروب الكبير»[8] عن الطور عن ياقوت النور وهي الشمس عن صاحب الميزان وهو إسرافيل. وقد وقع التجلي في الطور، مع نور الشمس مع نور الوحي[9] وقد يرمز إلى قوي النفس بالملائكة أو الملوك. فالمملوك البصير هو العقل الناطق أو النفس المطمئنة أو الخيال المبصر. والملك هو ملك الإلهام أو كشف الغيب. والملك الشاخص هو الروح المقدسة المراقبة لمشاهدة الغيب.

---

(1) «حدثنا عن الإيمان بالمعروف عن اليقين الموجود عن العلم القديم»، السابق ص269.

(2) «حدثنا الفهم المبين، عن القرآن المجيد، عن محمد، عن جبريل، عن الله»، السابق ص270.

(3) «حدثنا الاسم العزيز عن الروح القديم عن المعنى المحيط عن الله تعالى»، السابق ص271.

(4) «حدثتنا الفطرة الساطعة. قالت حدثتني المعرفة الأصلية عن الكلمة العليا وصنع المجيد»، السابق ص274.

(5) «حدثنا العيان اليقين. قال: حدثنا الحق الأعلى عن الجليل الوحيد عن الحدين: الركن والمقام»، السابق ص274.

(6) «حدثني روح الحياة ونور السمع والبصر قال: حدثنا القدم. قال: حدثني الغيب عن الاسم المبين عن الله»، السابق ص274.

(7) «حدثنا السماء والأرض. قالا: حدثتنا الفطرة عن القدرة عن الجلال القريب عن الله»، السابق ص274.

(8) «حدثنا بالرؤيا الصادقة عن الملك الحكيم. قال: حدثنا الكروب الكبير عن اللوح المحفوظ عن العلم»، السابق ص269.

(9) «حدثنا الطور، عن ياقوت النور، عن صاحب الميزان» السابق ص271.

والمالك المتدبر هو العقل الكلي أو الروح الكلية[1].

وقد تكون حلقات السنة معرفية أخلاقية نصية مثل الميثاق، والبرهان، ومجمع القرآن. والميثاق ينزل على قلب العارف[2] وقد يكون السند من أبعاد الوجود الإنساني مثل البلاء والنعمة، والقضاء والقدر المتصل بالركن والعرش[3].

وقد تتداخل العوالم العلوية في نظرية المعرفة مثل سدرة المنتهي مع العقل الوجيه والحياة الدائمة والروح المكنون. العقل هو العقل الفعال عند الفلاسفة. وكلها ألفاظ معرفية لها دلالات علوية عرشية[4] وقد تتداخل العوالم العلوية مع وسائل المعرفة مثل الحكمة والكلمة. قوس الله المشرقة بالأنوار عن المشارق، والبروج عن القطب، وصاحب هبابة المراح عن المدبرات[5] وقد يكون السند كله من الملأ الأعلى مثل بيت الله، وقوس الله، بيت الله الوسيع. وبيت الله هو الكعبة أو كناية عن القلب. وقوس الله قوس قزح، قوس الحق أو قوس القدر والقضاء أو قوس العلم أو قوس الأزل والأبد[6] ورجب اسم الشهر واسم الله ولسان شهادة الخير من الغيب، والعزة ملك العزة. وخادم البيت المعمور عيسى أو جبريل وصاحب الستر الأقصي عزرائيل وميكائيل والسفير الأعلى إسرافيل[7].

وقد يبدأ السند من علم المعادن مثل الياقوت الأحمر، والضياء المخمر، والصورة الكائنة، والشأن المشهود ثم يرجع إلى الله[8] وقد تكون كناية عن الطبيعة

---

(1) «حدثنا المملوك البصير عن الملك عن الملك الشاخص عن المالك المتدبر عن الحي السميع البصير»، السابق ص271-272.

(2) «حدثنا الميثاق، عن البرهان، عن جمع القرآن»، السابق ص270.

(3) «حدثنا البلاء والنعمة عن القضاء والقدر عن الركن عن صاحب الركن واليمين»، السابق ص271.

(4) «حدثنا العقل الوجيه عن سدرة المنتهي عن الحياة الدائمة عن الروح المكنون»، السابق ص269.

(5) «حدثنا قوس الله المشرقة بالأنوار عن المشارق عن البروج عن القطب عن صاحب هبابة المراح عن المدبرات عن الحكمة عن الكلمة المتصلة الكبري»، السابق ص273.

(6) «حدثنا بيت الله تعالى، عن قوس الله، عن بيت الله الوسيع»، السابق ص270.

(7) «حدثنا رجب. قال: حدثتنا العزة عن صاحب الحجاب عن خادم البيت المعمور قال: حدثنا صاحب ستر الأقصي عن السفير الأعلي»، السابق ص272.

(8) «حدثنا رجب. قال: حدثتنا العزة عن صاحب الحجاب عن خادم البيت المعمور قال: حدثنا صاحب ستر الأقصي عن السفير الأعلي»، السابق ص272.

فالياقوت الأحمر قرص الشمس أو عن القلب. والضياء المخمر ضياء الكرسي أو العرش. والصورة الكائنة آدم أو الروح أو العقل أو القضاء والقدر. والشأن المشهود مراد الحق من الخلق أو لوح العلم أو خبر الحق أو عالم الأمر[1] وقد يكون السند من مظاهر الطبيعة وحدها: عن خضرة النبات وألوان الأنوار عن حياة القوم. وقد تكون خضرة النبات كناية عن رياض القلب وأنوار الغيب والتجلي. وحياة القدم هي حياة النبات[2] وقد تكون مظاهر الطبيعة كلها من «الآثار العلوية» بتعبير الفلاسفة أي الظواهر الجغرافية، الظل والنور. إذ يتحدث الخلق أي الكون عن الظل الممدود عن شاهد المعظم وهي الشمس عن النور الفريد وهو الرسول[3] وترمز كل ظاهرة من الأنوار لعالم روحاني في فريح الجنوب منها الأفق العلوي إلى بحر الغيب في السماء السابق. وميم الخازن عين ملك المحيط الذي يهب الفيض. وعقاد المن هو عاقد فقار السموات والأرض أو عقد ذنب أو برج العقرب أو حلقات ذوائب المالك أو أكتاف إسرافيل[4] وقد يتداخل الملك اللطيف مع مظاهر الطبيعة مثل السحاب المتراكم، والبرق الخاطف، والرعد المقدس، والقوة المحمية بالغيب المنهمر في أفق النور بين الشمس والقمر، والملك. اللطيف هو الذي بيده خزائن المطر. وقد تكون هذه الظواهر الجغرافية ملائكة. وقد يكون ذلك كله كناية عن عالم القلب[5] وقد تتداخل مظاهر الطبيعة بين الأرض والسماء، الأرض مثل السجنج وهي صحراء المشرق أو أرض عرفات أو أرض مكة أو الوادي المقدس أو كناية عن القلب أو الصدر، والقدس وعدن المعبود. وقد تكون الكعبة أو زوار قوائم العرش والسماء مثل الفردوس الأعلى، والقبة الأزلية فوق العرش[6].

(1) «حدثنا الياقوت الأحمر عن الضياء المخمر، عن الصورة الكائنة، عن الشأن المشهود، عن الحق جل جلاله»، السابق ص270.

(2) «حدثتنا خضرة النبات وألوان الأنوار عن حياة القدم»، السابق ص271.

(3) «حدثنا الخلق عن الظل الممدود عن شاهد المعظم عن النور الفريد»، السابق ص271.

(4) «حدثنا ريح الجنوب عن ميم الخازن عن عقاد المن عن جبل البروق عن بحر من البحر الشعاعي»، السابق ص272.

(5) «حدثنا السحاب المتراكم، عن البرق الخاطف، عن الرعد المقدس، عن الملك اللطيف، عن القوة المحمية بالغيب المنهمر في أفق النور بين الشمس والقمر»، السابق ص270.

(6) «حدثنا السجنج، عن الفجر، عن القدس، عن الفردوس الأعلي، عن عدن المعبود، عن قبة الأزلية»، السابق ص269.

وقد تتداخل جميع أنواع الرواة مثل الهلال اليماني، وهو قمر يظهر في الآخرة أو الكعبة أو الحكمة اليمانية أو أويس القرني أو النور بين عيني جبريل، عن الطائر الميمون هدهد سليمان، وحيدرة الملك أسد الملك أو العرش أو الثريا، عن نشر التشوب وهو نشور القدم، عن النور الثابت وهو نور الإيمان، عن لسان الغيب اللطيف وهو الإلهام أو حكمة القلب[1].

وقد يكون الرواة من الزمان والبروج مع تحديد السنوات. فالميزان هو برج الميزان عام 270. والعصر لسان الدهر أو الغيب[2] وقد يتداخل الزمان مثل الجمعة مع الأشخاص مثل آدم مع رواد الكعبة وشهود الحق[3] وقد يتداخل الزمان كتاريخ، العصر الماضي مع الأمر والمالك[4].

وينقسم المتن إلى نوعين: مباشر وهو القول عن الله عز وجل، وغير مباشر أقرب إلى الخبر أو رواية الفعل. وهو نوع من الوضع بالمعنى، «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» وليس فقط نقلا بالمعنى.

ويتضمن المتن الموضوعات الصوفية المعروفة دون ما حاجة إلى تغيير السند مثل التعارض بين الشريعة والحقيقة، الظاهر والباطن، الدنيا والآخرة والمحبة. وكلها متون عرفانية لا شأن لها بالحياة العملية، وهي الغاية من الحديث كمصدر ثان للوحي.

3 ـ العلوم عقلية أو تجريبية

يطلب العلم بثلاثة مناهج: طريق الاستدلال والاعتبار، وطريق البحث والنظر، وهو جزء من المنهج الأول، وطريق التوقيف والأثر وهو العلم النقلي الذي يعتمد على الرواية. وهي القسمة السابقة للعلوم بين العلوم العقلية والعلوم

(1) «حدثنا الهلال اليماني، عن الطائر الميمون وحيدرة الملك، ونشر التشوب وصورة الجود، عن النور الثابت، عن الوجود، عن لسان الغيب اللطيف»، السابق ص273.

(2) «حدثنا عن الميزان سنة مائتين وسبعين. قال حدثنا العصر الخاطب سنة سبعاً من المبعث عن الولي القريب»، السابق ص273.

(3) «حدثتنا الصورة الحسنة عن الجمعة القائمة عن شاهد الكعبة»، السابق ص273.

(4) «حدثنا العصر الماضي عن الأمر المبين عن المالك الكبير»، السابق ص274.

النقلية. كما يتبع العلم طرقاً أخرى مثل: طريقة الجدل التي استعملها المتكلمون، وطريق تحليل العلل الذي استعمله الأصوليون، وطريق الذوق والكشف والإلهام وهو طريق الصوفية، طريق الحدس. لذلك تنقسم العلوم إلى عقلية وقلبية، برهانية وكشفية، نظرية وذوقية. وتعتمد هذه القسمة الثانية على منهجين سابقين: منهج الوقوف والتسليم وهو أشبه بتوقيف الحكم انتظاراً لمنهج أفضل. ومنهج إعلان العجز والتقصير وترك ذلك لتقدم المعارف، انتظاراً للفرج الرباني[1].

واستقراء كرام الأصول يؤدي إلى مكارم الأخلاق مثل إحسان المحسن والتجاوز عن المسيء، والعفو عن الزلة، وإقالة العثرة، وقبول المعذرة، والصفح عن الجاني، ومثل هذا من مكارم الأخلاق[2] والحكم غير التجربة. والوصف غير المغازلة[3] وهي نفس قسمة العلم إلى علمين: علم العلماء والعلم التجريبي. الأول يقوم على النظر. والثاني على الذوق. الأول مكتسب والثاني مطبوع. الأول خارجي، والثاني داخلي[4] فالعلم مخاطبة بالقلب ثم مشافهة باللسان[5] وقلوب العارفين تري ما لا يراه الناظرون. وتناجي الألسنة بأسرار تغيب عن الكرام الكاتبين وهم ملائكة. يورث الشراب علوم الغيب وتتجاوز علوم القدماء. وعليها شواهد ضد كل منكر. هو علم الخاصة الذين أخلصوا في السر حتى وصلوا إليه[6].

---

(1) قوت القلوب جـ1/ 264/ 299.

(2) الفتوحات «في معرفة الاستقراء وصحته من سقمه»، جـ1/ 284-285.

له حكم ولا يعطيك علما ... فصورته كمنزلة الظلال
فلا تحكم بالاستقراء قطعا ... فما عين الغزالة كالغزال
وإن ظهرت بالاستقرا علوم ... فما حكم التضمر كالهزال

السابق ص284.

(3) طبقات الصوفية ص399.

(4) للعلم أهل وللإيمان ترتيب ... وللعوم وأهليها تجاريب
والعلم علمان، مطبوع ومكتسب ... والبحر بحران مركوب ومرهوب

الحلاج: الديوان ص 291-292.

(5) خاطبني الحق من جناني ... فكان علمي على لساني

السابق ص329.

(6) قلوب العارفين لها عيون ... تري ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بأسرار تناجي ... تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا

وبدلاً من قسمة العلم أو المعرفة تقسم المشاهدة. فالمشاهدة مقامان: مشاهدة الاستدلال، ومشاهدة الدليل. مشاهدة الاستدلال قبل المعرفة من الخبر أي السمع ومشاهدة الدليل بعد المعرفة أي العيان. أولي العلوم علم المشاهدة عن عين اليقين. وهو علم المقربين. وأدناها علم التسليم والقبول دون إنكار أو شك وهو لعموم المؤمنين. علم الإيمان والتصديق لأهل اليمين وما بينهما مقامات[1] لا يأتي علم الإيمان واليقين نتيجة الذهن وثمرة العقل بل عن طريق المشاهدة والتحقيق وإلا وقع في الشرك والنفاق. وعلم التوحيد والصفات لا خلاف عليه. والخلاف فيه بدعة لا تغتفر على عكس أخطاء علوم الظاهر[2] وهو على عكس العلماء ورثة الأنبياء[3].

وقد تنقسم المعرفة إلى كسبية وإلهامية. إذ تأتي المعرفة من مصدرين من عين الجود، ومن بذل المجهود. الأولى إلهام، والثانية اكتساب. وهو نفس التمييز بين الحال والمقام[4] والعلم علمان: ما جاء من فوق إلهاماً من غير تعلم، وما

وترتع في رياض القدس طورا ... وتشرب من بحار العارفينا
فأورثنا الشراب علوم غيب ... تشف عن علوم الأقدمينا
شواهدها عليها ناطقات ... تبطل كل دعوى المدعينا
عباد أخلصوا في السر حتي ... دنوا منه وصاروا واصلينا

السابق ص330-331.

(1) قوت القلوب جـ1/ 282.

(2) «الغالون هم الشاطحون لأنهم قد جاوزوا العلم ومحوا الرسم فأسقطوا الحكم. والمبطلون هم المدعون المبتدعون لأنهم حاولوا بالباطل ليدحضوا به الحق وافتروا بالدعوى وابتدعوا بالرأي والهوى. والجاهلون هم المنكرون لغرائب العلم المفترون لما عرفوا من ظاهر العقل»، السابق جـ1/ 356.

(3) «فالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء هم الورعون في دين الله، الزاهدون في فضول الدنيا، الناطقون بعلم اليقين والقدرة لا علم الرأي والهوى، الصامتون عن الشبهات والآراء. لا يختلف هذا إلى يوم القيامة عند العلماء الشهداء على الله برأي قائل، ولا بقول مبطل جاهل» السابق ص358.

(4) «ما قالوا في المعرفة وصفة العارف، وحقيقة ذلك ببيانها»، اللمع ص56-60، «ثنائية المعرفة في رأي أبي سعيد الخراز»، السابق ص56. «في صفة العارف وما قالوا فيه»، السابق ص61-62. «قول القائل بم عرفت الله، والفرق بين المؤمن والعارف»، السابق ص63-64.

جاء من تحت مثل علم الكلام. الأول إيمان، والثاني زندقة[1] الإلهام علم يغدق في القلب بلا تعلم أو كسب مثل بوادي وخواطر النفس عند الصوفية، والحدس عند الفلاسفة. ويتطلب الاهتمام الذي يتحول إلى هم وحصر، وعياً يقظاً قادراً على الاستقبال[2] وهو إبداعي في صياغاته وأشكاله الأدبية. الروح إلهام، وأشكال التعبير عنها إبداع[3].

ومع ذلك قد تنهار بعض العلوم. فهناك أربعة علوم: الديانة، والطب، والنجوم، والكيمياء. ولكل منها آفة. آفة الديانة الكلام في القدر. وآفة الطب التجربة. وآفة النجوم الحكم. وآفة الكيمياء التعرض والإظهار على النفس[4] وآفة الفلك علم أحكام النجوم. وآفة الكيمياء السحر وكشف بواطن الأمور.

وقد بدلت ألفاظ خمسة من العلوم وتغير قصدها مثل الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة. تخصص الفقه بالفروع الغريبة في الفتاوى وتفصيلاتها. وكان يطلق العلم على الله وأفعاله وآياته. ثم تحول إلى جدال مع الخصوم في مسائل خلافية. تحول علم التوحيد إلى صناعة الكلام والجدل مع الخصوم. وتحول الذكر والتذكير إلى «ما نرى الوعاظ في هذا الزمان». وهو القصص والأشعار والشطح والطامات والقصص، وليس التذكير بالموت والآخرة وعيوب النفس

---

(1) «تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه»، السابق جـ1/ 353-359.

(2) «في معرفة تحصيل علم الإلهام بنوع ما من أنواع الاستدلال ومعرفة النفس»، الفتوحات جـ1/ 285-287.

لا تحكمن بإلهام تجده فقد ... تجده في غير ما يرضاه واهبه
فاحذره إن له في كل طائفة ... حكما إذا جهلت فينا مكاسبه
لا تطلبن من الإلهام صورته ... فإن وسواس إبليس يصاحبه

السابق ص285.

(3) «في معرفة أسرار أهل الإلهام المستدلين ومعرفة علم إلهي خاصة على القلب تفرق خواطر وتشتتها»، السابق ص288-292.

إذا أعطاك الإلهام علما ... تحققه فأنت به سعيد
فحقق والتمس علما وحيدا ... كعلمك إنك الخلق الجديد

السابق ص288.

(4) التستري ص187.

وآفات الأعمال. وشطحات الصوفية دعوات عريضة في العشق الإلهي حتى ادعاء الاتحاد وارتفاع الحجاب والوصول إلى الرؤية والمشاهدة والمشافهة كما حدث للحلاج والبسطامي. وهي أيضاً كلمات غير مفهومة يدل ظاهرها على غير باطنها. وأطلق لفظ الحكيم على الطبيب والشاعر والمنجم[1].

وظهر علم الخلاف وأقبل الناس عليه لتشعب المسائل بعد عصر النبوة والخلافة الأولي، واحتياج الناس إلى الفقهاء والمتكلمين لاستنباط الأحكام والدفاع عن العقيدة[2] وتشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف مجرد تلبيس، دافعه الخصومة وليس مصالح الأمة. اشتغل الأوائل بالعلم لأنه من فروض الكفايات وليس الأعيان. ولا يوجد فرض كفاية أهم من المناظرة. ويفتي الناظر برأيه لا بمذهب فقهي معين وإلا كان تحزباً. ولا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع. وتكون المناظرة في الخلوة وليس في المحافل وأمام الأكابر والسلاطين، بغياً للشهرة والحظوة. ويُطلب الحق بصرف النظر عن مظهره هو أو غيره من الخصوم. ويجوز الانتقال من نظر إلى نظر، ومن دليل إلى دليل، ومن إشكال إلى إشكال والرجوع إلى الحق. وأخيراً يناظر من هو أهل المناظرة من العلماء الفحول لإظهار الحق وليس للعراك مع الصغار والانتصار عليهم[3] تهدف المناظرة إلى إفحام الخصوم وإظهار الفضل والشرف والبراعة والبطولة بقصد المباهاة والمماراة واستحسان الناس واستمالتهم. تقوم على العجب والكبر من ناحية وعلى الحسد والمراءاة من ناحية أخرى، تزكية النفس والتقليل من الآخر. يتتبع الناظر عورات الخصوم ليشهر به، ويشخص الموضوع. كما يقوم على الاستكبار والعناد والغضب والبغضاء وحب المال والجاه[4] والحذر من المراء في القرآن. والمراء هو الجدل.

---

(1) «بيان ما يدل من ألفاظ العلوم»، الإحياء جـ1/ 38-45.

(2) «في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها»، السابق جـ1/ 48-54.

(3) «ألا يناظر إلا في مسألة واقعة وقريبة الوقوع غالباً فإن الصحابة ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض. ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوي بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر. وربما يتركون ما يكثر وقوعه، ويقولون هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات»، السابق ص50.

(4) «بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق»، الأحياء جـ1/ 51-54.

والحذر أيضاً من الجدال في الدين، والكلام في التحديد أي في المنطق وقضايا الحد والتعريف[1] فالعقل والمحاجة والتصورات ليست طريقاً. والجدل ليس علماً. والكلام الناشئ عنه ليس علماً لأنه يقوم على الخصومة[2].

ولا ينظر إلى صحة العقائد من جهة علم الكلام. يكفي إيمان العوام وسلامة الفطرة، والبعد عن الخصومات، ومعرفة الحق دون تأويل يخطئ ويصيب، ويناقض ظاهر الشرع. العلم عن طريق التواتر والقطع على المعلوم[3] يكفي القرآن كدليل وصحة الألفاظ كبرهان. وهو نفس موقف الغزالي في «إلجام العوام عن علم الكلام» و«المضنون به على غير أهله». تكفي الشريعة لسلوك الناس. وهو طريق الأنبياء. وهي غير عقيدة أهل الكشف والوجود. ليس أمام العوام إلا التقليد[4] وقد اجتمع أربعة من العلماء، مغربي لديه العلم بالحامل القائم، ومشرقي لديه علم بالحامل المحمول اللازم، وشامي لديه علم الإبداع والتركيب، ويمني لديه علم التلخيص والترتيب. وهي الاتجاهات الأربعة مما يوحي بتعددية المنظور في العلم[5].

واعتقاد أهل الاختصاص بالنظر والكشف. ولا يفترق كثيراً عن علم الكلام الأشعري فيما يتعلق بنظرية المعرفة، وحدود العقل، واستحالة معرفة المطلق

(1) المحاسبي: رسالة المسترشدين، ص77-79.

(2) «عند أحمد بن حنبل أهل الكلام زنادقة، وعند أبي يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق»، قوت القلوب جـ1/ 282.

(3) الفتوحات جـ1/ 34-35.

(4) «فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة»، السابق ص38. وقد كتب فيها ابن عربي «رسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم».

(5) السابق 38-41.

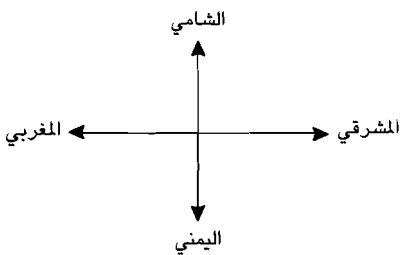

بالمقيد فيما يتعلق بالموجود أو فيما يتعلق بالذات الإلهية أو الصفات أو الأفعال[1] هناك حكم إرادي وليس اختياري. ومع ذلك لا يوجب جبريل اختياراً ولا قضاءً وقدراً بل كسباً وفعلاً حراً.

وتقوم المعرفة الكلامية على قياس الغائب على الشاهد. فمعرفة الشاهد أولاً ثم الغائب ثانياً. ثم بعد معرفة الغائب قد لا يُلتفت إلى الشاهد. والتذبذب بين الاثنين يفقدهما معاً[2] والتوحيد القلبي أفضل من التوحيد في علم الكلام. الأول يقوم على الذوق، والثاني على الحجاج والمناظرة والمهاترة مع الخصوم. تنشأ المهاترة من التنافس من أجل الغلبة. والمقصود من المذاكرة طلب الفائدة. والمناظرة متوسطة بين المهاترة والمذاكرة[3] زلت أقدام المتكلمين، ونظروا في الآية بعقولهم، وهي لا تفهم إلا بالوجدان[4] يتردد العقل ويحتار لاكتشاف سر الحياة. في حين أن لغة الشكر قادرة على إبرازها[5] يستمع بها إلى هاتف الحقائق، والتحرر من عيوب العبودية.

4 ـ علوم الظاهر وعلوم الباطن

وتقوم قسمة العلوم إلى علوم الظاهر وعلوم الباطن على قسمة أخرى بين الشريعة والحقيقة، بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب، بين علوم الدنيا وعلوم

---

(1) الفتوحات جـ1/ 41-47.

(2) «من عرف في الشاهد لم يخل بالغائب. ومن اعتنق الغائب لم يلتفت إلى الشاهد. ومن تذبذب بينهما فهو الساقط الهابط»، التوحيدي: الإشارات الإلهية ص375.

(3) «عدِّ بنا إلى متن التوحيد وإلى عمق المعرفة وإلى عقبان الوجد وإلى آخر مدى التوكل وإلى العلل العارضة في هذه الأحوال وإلى الواضحات الواردة بالأشكال وإلى المشكلات الصادرة بالداء العضال. فإن الخوض في هذه الأشياء أنفع من المهاترة فيما كنا فيه لأن الكلام مع الخصم من المهاترة والمناظرة والمذاكرة. فأما المهاترة فباب ينشا من التنافس وإيثار الغلبة. وأما المذاكرة فالمقصود بها طلب الفائدة كالرأي المعروض على العقول المختلفة إلى أن يقع الاختيار عليه بعد الاتفاق. وأما المناظرة فمتوسطة بين المهاترة والمذاكرة قد تفضي إلى المنافسة وقد توجد بها الفائدة»، السابق ص108.

(4) «هنا زلقت أقدام المتكلمين، وانتكست أعلام المتحذلقين... ونظروا في الآية مستهزئين. وركنوا إلى عقولهم مفتخرين متعززين فنكصوا على أعقابهم خائبين خاسرين»، السابق ص112.

(5) «ارجع إلى لغات المطالبة بالشكر على إبراز جملة محشوة بالحياة. ثم انظر إلى حيرة =

الآخرة. علم الظاهر هو علم الراغبين في الدنيا والملابسين للأمراء[1] وأجمل حالات المؤمنين الظاهر. وهو ما تقتضيه الشريعة[2] العلم ظاهر، والحقيقة باطن. ومن نظر إلى الخلق بعين العلم مقتهم وهرب إلى الله. ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم[3].

وعلم الباطن له فضل على علم الظاهر[4] هو علم القلوب لا الألسنة. لا تصدر عن الأعمال بل مقامات اليقين وصفات المتقين. وهو علم الخشوع والزهد الذي يخشاه الشيطان. والإخلاص أول حال العلم بالله بالعلم الباطن. ولا نهاية لمقامات العارفين ودرجات الصديقين. قد يؤدي علم الباطن إلى الزندقة أي خلط الأمر والنهي بمواجيد الأسرار كما يفعل أهل الأغاليط الذين هلكوا وأهلكوا. فعلم الباطن ذو حدين. لا يقوي عليه كل الناس. من أفشى سره اعتبره الناس زنديقا[5].

وعلماء الباطن أفضل من علماء الظاهر. ومع ذلك يجتمع الفريقان على أن طلب الآخرة خير من طلب الدنيا[6] كلا العلمان ضروري. وتظهر أول درجات الطهارات في الباطن والظاهر وليس في الظاهر وحده الذي قد لا ينم عن الباطن، ولا في الباطن وحده لأنه يظل مستوراً. ومن لم يوازن ظاهره باطنه، وعقله قربه من الله فإن حلمه يكون مثل حلم البهائم! ومن لم يقم باطنه ظاهره صار باطنه منكوساً، أسيراً قلبه بيد العدو. وقامت جوارحه في المعصية. وصارت نفسه مالكة له، تستعبده وتستخدمه، يضرب الشرق والغرب ويخدم نفسه[7] فالباطن أصل

= العقل في سر هذه الحياة... فالتفت إلى هاتف الحقائق... فبهذا ونظائره تشرف على عيوب العبودية»، السابق ص334.

(1) قوت القلوب جـ1/ 321.

(2) التستري ص281-283.

(3) «من نظر إلى الناس بالعلم مقتهم. ومن نظر إلى الناس بالحقيقة رحمهم»، شطحات الصوفية ص105/ 108-109.

(4) فضل علم الباطن على الظاهر، قوت القلوب جـ1/ 283-284.

(5) التستري ص381.

(6) السابق ص293-295.

(7) السابق ص264.

الظاهر. الباطن جوهر والظاهر عرض وإلا تم أسر الإنسان بيد العدو، وفقد السيطرة على أعمال الجوارح وفقد الاتزان في العالم، ولم يركز إلا على نفسه وأهوائه. عبادة الله بالشرائع في الظاهر، ورؤيته في الباطن. علماء الظاهر زينة الأرض والملك. وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت. علماء الظاهر أهل الخير واللسان، وعلماء الباطن أرباب القلوب والعيان. اللسان معقل الخبر، والقلب موضع النظر. علم الظاهر حكم، وعلم الباطن حاكم، والحكم موقوف على الحاكم[1].

والباطن أساس الظاهر والظاهر يقوم على أساس الباطن. وانتكاس الباطن انتكاس للقلب فيصبح أسيراً بيد العدو، وانجرفت جوارحه إلى المعصية، وتملكه النفس وتستعبده. وهذا ما حدث لليهود والنصارى والصابئة والمجوس والمشركين. يضربون الشرق بالغرب ويخدمون أنفسهم. من لم يكن له في حركاته وسكونه إمام في الظاهر يقتدي به ورجع إلى باطنه قطع به. فالباطن وحده لا يكفي. فعل الظاهر شكر للباطن كما أن الدنيا شكر للآخرة. الباطن باطن بالفطنة الأصلية. وهو موضع الفكرة، موافق للسنة وإلا كان باطلاً[2] وأفضل نعمة هو الإسلام في ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ثم الختم أي البقاء عليه وعدم التحول عنه ثم القرآن بما فيه من فرائض وسنن وأحكام وحلال وحرام. وهذا هو الظاهر، ثم نعم الله على المؤمنين بفتح قلوبهم ومعاينة الغيب بلا حد ولا نهاية. وهذا هو الباطن[3].

وقد تتحول ثنائية الظاهر والباطن إلى ثنائية السر والعلانية فاستقبال وجه السر هو اليقين، واستقبال وجه الظاهر مع الباطن مشاهدة، وقيامه عليه رضا مع الاقتداء بالنبي. فما زالت الأخلاق الصوفية متمسكة بالسنة. والذكر هو القوة في السر، والسنة في العلانية[4] وفضل السر على العلانية لضعف في اليقين. فإذا كمل استوت الحالتان، الخلاء والملاء[5] ومن لم يوازن سره لا تصلح علانيته[6] فالبداية

(1) قوت القلوب جـ1/ 321.
(2) التستري ص278/ 282.
(3) السابق ص298.
(4) السابق ص281-283.
(5) السابق ص287.
(6) السابق ص292.

بالباطن قبل الظاهر. وكل من هم بشيء في سره ظهره في علانيته إلا أن يدركه العون الخارجي فيبقى في السر. فالسر بطبيعته حركة نحو العلن لأن الطبيعة هو اتفاق السر مع العلن. ولا يبقي السر سراً إلا بإرادة خارجية. الدنيا عند العدو، والسر عند الحبيب. فالحبيب لا يفشي سراً في حين أن العدو يظهر الدنيا[1] واستقبال وجه السر باليقين، واستقبال وجه الظاهر بالقبلة[2] فاليقين باطن، والقبلة ظاهر.

والظاهر والباطن ثنائية مثل الأحوال ولكنها في المعرفة وليست في الوجود. ويعادل في الوجود والغياب والحضور[3] ومن يعرف الباطن لا يلوم أحداً. فحج الناس البيت ظاهر أم حج الباطن فإلى سكن الروح. الأول يهدي الأضاحي والثاني يعطي المهجة والدم. الأول طواف بالبيت، والثاني طواف بالله[4] والظاهر والباطن يتجلى في كل شيء[5] الظاهر اللفظ، والباطن التأويل. الظاهر صورة القصة، والباطن عظتها[6] الظاهر السماع، والباطن الفهم. لباس الظاهر لا يغير حكم الباطن[7] وعدم الإعجاب بالظاهر لأن الباطن قد خرب[8] يلجأ الصوفي إلى الباطن دون الظاهر. فالعلم والزهد والتقوى، لكل منها ظاهر وباطن[9] ويرزق العبد

---

(1) السابق ص198.

(2) السابق ص364.

(3) فكيف، والكيف معروف بظاهره ... فالغيب باطنه للذات بالذات
الديوان، ص295.

(4) يا لائمي في هواه كم تلوم فلو ... عرفت منه الذي عُنّيت لم تلم
للناس حج ولي حج إلى سكني ... تهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي
تطوف بالبيت قوم لا بجارحة ... بالله طافوا فأغناهم عن الحرم
السابق، ص322.

(5) وظاهرا باطنا تجلي ... لكل شيء بكل شيء
السابق، ص335.

(6) عوارف المعارف جـ1/ 254-255/ 262.

(7) أبو العباس الدينوري، طبقات الصوفية ص477.

(8) السابق ص515.

(9) «يا شبيبة العلم اطلب في العلم العلم. فغير ما أنت فيه من العلم علم. ويا شبيبة الزهد، اطلب في الزهد الزهد. فغير ما أنت فيه من الزهد زهد. ويا شبيبة التقوى: اطلب في التقوى التقوى. فغير ما أنت فيه من التقوى تقوى»، شطحات ص71.

الحلاوة ليفرح بها فتمنعه من حقائق القرب[1] وفرق بين الدار وصاحب الدار. على باب الدار صوت وصياح واضطراب خوفاً من صاحب الدار وشوقاً إليه. وداخل الدار هيبة ووقار وسكون وتعظيم وأدب وتأدب[2] ويؤيد ذلك الحديث[3].

والتأويل للآيات التي تسمح بذلك. وهي الآيات التي تثير الخيال والصور المجازية مثل ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ * وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾. هو الظاهر لا كما ظهرت الظواهر، وهو الباطن لا كما بطنت البواطن[4] تعني الأول من يكشف عن أحوال الدنيا للابتعاد. الثاني والآخر أحوال الآخرة لعدم الشك فيها، والظاهر على قلوب الأولياء لمعرفته، والباطن على قلوب الأعداء لإنكاره[5] وقد تدل الآيات على أن الشطحات نابعة من القرآن بتأويل بعض الآيات لإعطائها غطاء شرعيا[6] مثل ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى * وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

التأويل حجاب لا ينظر إليه الله مع أنه كشف الأعماق، ومقت لا يعطف الله عليه مع أنه ضرورة لتجاوز التجسيم والتشبيه[7] التأويل أداة إنسانية للمعرفة في حالة غياب العلم اللدني والكشف الرباني. القرآن يبني، والأذكار تغرس[8] البناء على السطح والغرس في العمق. ويبدأ التأويل بالتلاوة وفهم المعنى بالصوت والتأثر بموسيقى القرآن من أجل حفظه بالنهار بل لفهمه بتلاوة الليل. وليست فقط

(1) «يُرزق العبد الحلاوة. فلفرحه بها يمنعه من حقائق القرب»، السابق ص102.
(2) «على الباب صوت وصياح واضطراب من شوق صاحب الدار وخوفه. وفي الدار سكون وتعظيم وهيبة وأدب لمعرفة صاحب الدار»، السابق ص130.
(3) حديث «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لا يعلم»، «العلم علمان: علم ظاهر وهو حجة لله على خلقه، وعلم باطن وهو العلم النافع»، السابق ص112.
(4) المواقف ص179.
(5) شطحات ص110.
(6) عبد الغني النابلسي: في حكم شطح الولي، عبد الرحمن بدوي: شطحات الصوفية ص191-199.
(7) «إذا جاءك التأويل فقد جاءك حجابي الذي لا أنظر إليه ونعتي الذي لا أعطف عليه»، المواقف ص149.
(8) السابق ص183.

المغفرة هي الهدف بل المعرفة من أجل العمل[1].

وفرق بين التفسير والتأويل. التفسير علم نزول الآية، شأنها وقصتها والأسباب التي نزلت فيها. وهو ليس للناس كافة إلا بالاعتماد على السماع والأثر. أما التأويل فصرف الآية إلى معنى محتمل يوافق الكتاب والسنة. ويختلف باختلاف حال المؤول من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ودرجة القرب. التأويل سباق لأصحاب الهمم وكأنه يسمع الآية من المتكلم نفسه[2].

ما أظهر الله شيئاً إلا ستره. وما ستر شيئاً إلا أظهره حتى لا يستوي علمان ولا معرفتان ولا قدرتان. فازدواجية الظاهر والباطن رؤية إلهية قبل أن تكون رؤية إنسانية. والوجود أيضاً متشابه. والقرآن أحد التجليات الإلهية والوجودية[3] لذلك أتي القرآن متشابهاً. فإذا أضاء على السرائر بإشراقه أزال من البشرية رعونتها[4] وعلم الله يشمل الظاهر والباطن، والعلن والسر فهو الذي أودع في الأشياء أوصافها[5] والعلوم في الله لا تتناهى[6] وكلام الخالق أزلي لا يفنى بفناء الأقلام والمداد. ويذكر منه للناس ما يفيدهم من معاني العبودية، والثواب والعقاب، والوعد والوعيد على قدر عقولهم. أما الباطن والكمال فللأنبياء والأصفياء والأولياء[7] وبلغة مجردة مقياس العدم في الوجود، في معنى وجوده. وليس مقياس الوجود في العدم[8].

5 ـ علوم التنزيل وعلوم التأويل

علوم التنزيل هي علوم الفقه والشريعة والكتاب والسنة وأسباب النزول

(1) «تلاوة النهار باب إلى الحفظ. والحفظ باب إلى تلاوة الليل. وتلاوة الليل باب إلى الفهم. والفهم باب إلى المغفرة»، السابق ص194.
(2) عوارف العارف، جـ1/ 255-258.
(3) أبو العباس القاسم السياري، طبقات الصوفية ص447.
(4) أبو بكر محمد بن داود الدقي، السابق ص449.
(5) إنه يعلم الجهر من القول، ويعلم ما تكتمون، التفسير ص130-131.
(6) السابق ص144.
(7) قل لو كان البحر مدادا، التفسير ص127-128.
(8) كما هو الحال عند بعض فلاسفة الوجود مثل هيدجر وسارتر.

والقياس من أجل استنباط الأحكام الشرعية. وعلوم التأويل هي علوم التصوف التي تذهب إلى بواطن الأحكام ومصادرها الأولى. لذلك نشأ صراع بين أهل التنزيل وهم الفقهاء وأهل التأويل وهم الصوفية. ويمكن معرفة الوحي بالتنزيل كما يفعل الفقهاء أو بالتأويل كما يفعل الصوفية، بالظاهر أو الباطن، بالنص أو بالدليل، بالوضوح أو الخفاء[1] وكل مناهج التأويل ضعيفة حتى المجازية منها. إنما الأقوى هو نزول الآية على القلب فتنبثق معانيها فيه كما يحدث للعارفين والمريدين[2] العبادة باللغة، والإشارة بالقلب[3].

والعلم ثلاثة: علم القرآن، وعلم السنن والبيان، وعلم حقائق الإيمان أي القرآن والسنة وما يستنبط منهما من حقائق الإيمان. فالتصوف إسلامي وليس أجنبياً، من الموروث وليس من الوافد. ويمكن جمعهما في علمين فقط: التنزيل والتأويل. والعلماء ثلاثة: أصحاب الحديث والفقهاء والصوفية. كل منهم يجمع بين العلم والعمل. لم يكن في هذا الوقت المبكر قد نشأ الصراع بين الفقهاء والصوفية، بين التنزيل والتأويل. وقد أتقن علماء الحديث في ضبط رواياتهم على ما هو معروف في علم الحديث[4] في حين اقتصر أهل الحديث على الحفظ بالذاكرة تفوق عليهم طبقة الفقهاء لما لديهم من قدرة على الفهم والاستنباط[5] والصوفية أصحاب علم ومذهب وطريق وذوو منزلة رفيعة من أولي العلم القائمين بالقسط[6] يخرجون من الكتاب والسنة، ويقتدون بالرسول كأسوة حسنة، ويقتفون آثار الصحابة التابعين. وكما أن طبقة الفقهاء لما لديهم من قدرة على الفهم

(1) «يدعوك الله إلى حظك، تارة بظاهر تنزيله، وتارة بباطن تأويله، وتارة على لسان رسوله، وتارة بخافي دليله، وتارة بواضح سبيله...»، الإشارات ص32-33.

(2) «وهذا تميز بلفظ مستعار ومجاز مستعمل وقول ضعيف. وإلا فالآية ظاهرة بسلطانها، عالية ببرهانها، راجعة إلى روح اليقين من العارفين وسلامة التسليم من المريدين»، السابق ص127.

(3) السابق ص141-142.

(4) «في نعت طبقات أصحاب الحديث، ورسمهم في النقل، ومعرفة الحديث، وتخصيصهم بعلمه»، اللمع ص24-25.

(5) «ذكر طبقات الفقهاء وتخصيصهم بما ترسموا به من أنواع العلوم»، السابق ص26-27.

(6) «البيان عن علم التصوف، ومذهب الصوفية، ومنزلتهم من أول العلم القائمين بالقسط»، السابق ص21-23.

والاستنباط أعلى مرتبة من طبقة المحدثين. فإن طبقة الصوفية أعلى منزلة من الفقهاء لما لديهم من جمع بين العلم والعمل، وما خصوا به من الفضائل وحسن الشمائل. لا يأخذون بالرخص أو يحومون حول الشبهات بل يتمسكون بالأولى والعزائم[1].

وقد خص الصوفية بمعانيهم وآدابهم وأحوالهم وعلومهم التي تفردوا بها عن المحدثين والفقهاء[2] وذلك مثل القناعة، والفقر والجوع، والتواضع، والشفقة، والإيثار، وحسن الظن، والإخلاص والمسارعة في الخير، والتوجه إلى الله، والعكوف على بلائه، والرضا بقضائه، والصبر على المجاهدة، ومخالفة الهوى وحظوظ النفس، ومراعاة الأسرار، واختيار الموت على الحياة. التصوف إذن هو ممارسة مجموعة من الفضائل. وقد خص الصوفية بالمقامات والأحوال، بالتوبة والورع والتوكل والرضا، والصبر، والخشية والخوف والخضوع والمحبة، والرجاء، والشوق والشهادة، والإنابة، والطمأنينة، واليقين، ومعرفة النفس، والعوارض والعوائق والعلائق والحجب[3].

وينكر التصوف على أهل الظاهر أنهم لم يعرفوا من الكتاب إلا ظاهره، ولا من الحديث إلا الأحكام للاحتجاج على المخالفين وطلباً للجاه والرياسة[4] الشريعة رواية ودراية. ظاهرها بالرواية، وباطنها بالدراية[5] ويزعم بعض المتفقهة أن الصوفية جهلة وليس للتصوف مصدر من الكتاب أو السنة[6] ولا يوجد شاهد من كتاب أو سنة على ذلك. ويعترض الصوفية على هؤلاء وبيان أهمية الفقه في

(1) «ذكر الصوفية وطبقاتهم، وما ترسموا به من العلم والعمل، وما خصوا به من الفضائل وحسن الشمائل»، اللمع ص28.

(2) «ذكر تخصيص الصوفية بالمعاني التي قد ترسموا لها من الآداب والأحوال والعلوم التي تفردوا بها من جملة العلماء»، السابق ص29-30.

(3) «تخصيص الصوفية من طبقات أهل العلم في معان أخر من العلم»، السابق ص31-33.

(4) «والناس في زماننا هذا إلى مثل ذلك أميل لأنه أقرب إلى طلب الرياسة واتخاذ الجاه عند العامة والوصول إلى الدنيا»، اللمع ص33.

(5) «إثبات علم الباطن، والبيان عن صحة ذلك بالحجة»، السابق ص43-44.

(6) «الرد على من زعم أن الصوفية قوم جهلة، وليس لعلم التصوف دلالة من الكتاب والأثر»، اللمع ص34-35.

الدين. إنما يحتاج الفقه أن يجتمع بالزهد، ويكون الفقيه الزاهد هو الجامع بين الفقيه والصوفي، بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب، بين أحكام الظاهر وأحكام الباطن. الفقه له نهاية، والتصوف لا نهاية له[1] لكل علم أهله دون أن ينكر فريق علم الفريق الآخر. والكل إلى رسول الله منتسب. فلا تضارب بين العلوم بل توزيع الاختصاصات بينها[2].

وبالإضافة إلى التفاسير الكبرى مثل «تفسير القرآن العظيم» للتستري، و«لطائف الإشارات» للقشيري، و«تفسير ابن عربي» هناك بعض الملاحظات الجزئية على تفسير الصوفية في أقوالهم مع بعض التطبيقات العملية لتفسير بعض الآيات المتناثرة لاستخراج بعض الموضوعات الصوفية منها خاصة المقامات والأحوال. فبالنسبة لمنهج التفسير يمكن قراءة القرآن بثلاث نيات: بدون الله أو للختم أو لاستخراج العلم[3] بدون الله ميزته أنها قراءة إنسانية اجتماعية طبيعية خالصة وليست قراءة عقائدية دينية غيبية. والختم قد يكون حفظاً دون فهم كما يفعل الصبية أو الكبار قارؤوا القرآن على المقابر. واستخراج العلم هو الأفضل، ليس العلم الطبيعي بل العلم الإنساني.

ولا يقرأ القرآن بعد قيام الليل. إنما يقام الليل إلى الله أولاً وليس إلى ورد معلوم أو جزء مفهوم. ويقف العبد أمام الله وجها لوجه، ويتحادثان ويتفاهمان. فالصوفي يعود إلى المصدر الأول دون وساطة القرآن. وينصرف أهل الورد وأهل الجزء ويبقي أهل القيام[4] وصفوة القرآن موضع الأسامي. فالقرآن له قلب وهي

(1) «ذكر اعتراض الصوفية على المتفقهة، وبيان الفقه في الدين ووجه ذلك بالحجة»، السابق ص38-39.

(2) «ذكر التخصيص في علوم الدين، وتخصيص كل علم بأهله، والرد على من أنكر علما برأيه، ولم يدفع ذلك إلى أهله وإلى من يكون ذلك من شأنه»، السابق ص38-39.

(3) التستري ص154.

(4) «يا عبد تريد قيام الليل، وتريد توقر أجزاء القرآن. هناك لا تقوم. إنما يقوم الليل من قام إليَّ لا إلى ورد معلوم ولا إلى جزء مفهوم. هنالك أتلقاه بوجهي فيقف بقيوميته. لا يريد لي ولا يريد مني. فإن شئت أن أحادثه حادثته. وإن شئت أن أفهمه أفهمته. انصرف أهل الورد حين بلغوه. وانصرف أهل الجزء من القرآن حين درسوه. ولم ينصرف أهلي فكيف ينصرفون؟»، المخاطبات ص267.

الأسماء. الأسماء تجليات للذات في صفات ومصدر الأفعال في نظرية الذات والصفات والأفعال. ولا يوجد صوفي إلا وعبر عن تجاربه الإنسانية من خلال شرح الأسماء مثل القشيري والغزالي[1].

ليس التفسير علماً نظرياً فحسب بل هو أيضاً علم عملي. فالقرآن هو المطهر عن دنس الأكوان. هو أحسن الأسرار. وله الشرف على سائر الكلام[2] وتعليم الرحمن القرآن يعني تعليم الأرواح شفاهاً ومخاطبة في الأنفس وبطريق الوسائط[3] فالقرآن عالم شعوري وليس عالماً تصورياً. وقد تكون الاستعاذة من الشيطان لا قيمة لها لأنه لا يستطيع زحزحة كلام الحق[4] فالأمر نفسي وليس موضوعياً. ولكل حرف تفسير في البسملة. باسم الله الهبة، والرحمن العون والنصرة، والرحيم المحبة والمودة. وهي معاني متميزة لا تفوت على العارف. هي علوم الوجود لا علوم الوجود[5].

والتفسير الجزئي نتيجة للاستفسار عن معنى بعض الآيات المتناثرة التي تثير بعض التشابه أو التي تحتاج إلى تأويل لبعض السور الرمزية[6] ومع ذلك يمكن تجميعه في عدة موضوعات مثل التفسير الموضوعي للقرآن في التصوف الخلقي والتصوف النفسي والتصوف النظري. فمن التصوف الخلقي مثل تفسير ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ ويعني خاصة ثمن الشراء ثم تعميمه إلى المعرفة ومشاهدة الله بثمن الكونين[7] فالتفسير هو تعميم الخاص إلى العام. وتتحول آية ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ إلى تجربة صوفية، قلة المتاع في الدنيا وعظمة الحصيلة في الآخرة. وتحويل اتجاه الآية إلى أعلى مثل العمل الصالح ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

(1) التستري ص288.
(2) والقرآن المجيد، شيء عجيب، الحلاج: التفسير، ص146.
(3) الرحمن علّم القرآن، السابق ص148.
(4) طبقات الصوفية، ص492.
(5) إذا ما وجود الناس فات علومهم فعلمي لوجدي صاحب وقرين
السابق، ص269.
(6) التستري ص175.
(7) السابق ص380-381.

صَٰلِحًا﴾[1] وقد يكون التفسير للتعيين، تعيين بركات السماء والأرض بخير الدنيا والآخرة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وسلوك الطريق في آية ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾[2] ويُستشهد على الصدق بآية ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾. وقد يتطلب الصدق إعلان عدم المعرفة بالجواب ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾[3] والإيمان هو المعرفة، وإحباط العمل عدم قبول الخدمة في آية ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[4] والتقوى تؤدي إلى الإيمان والإخلاص بنص آية ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾. ولباس التقوى لأهل الحصور ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. والتقوى هو معنى الحد في آية ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[5] وقد لا يحتاج استعمال الآية إلى تأويل كالخشوع في الصلاة في آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[6] وعلامة العارف فساد الملوك في القري ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ۞ وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۞ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[7].

ومن التصوف النفسي تظهر بعض المقامات والأحوال على العموم أو على الخصوص مثل بكاء الفرح في آية ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾. وبكاء الأسف من آية ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾[8] والإشارة إلى الطريق في آية ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[9] وحالة الجمع في قول إبراهيم ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، وحالة الفرق في ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ﴾[10] وتدبر القراءة في آية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(1) السابق ص397/ 400.
(2) السابق ص412.
(3) أبو بكر بن أبي سعدان، طبقات الصوفية ص421.
(4) جعفر بن محمد، السابق ص439.
(5) السابق ص481.
(6) السابق ص514.
(7) شطحات الصوفية ص165.
(8) بندار بن الحسين الشيرازي، طبقات الصوفية ص468-469.
(9) أبو بكر الطمستاني، السابق ص473.
(10) أبو العباس الدينوري، السابق ص477.

ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] والتوكل استسلام لله بدليل ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. وهو فريضة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. والحركة من أجل الكسب مباح ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾. والحب بلوى من المحبوب للحبيب بدليل ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. فالمحبوب هو الذي يبدأ[2] والصوفي لا يكتفي بالشراب ويطلب المزيد ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[3].

ومن التصوف النظري نسبة تحقق العبودية ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. والنسبة إلى آدم تدخل في مقات الظلم والجهل ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[4] والحق ثقيل على القلب ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[5] والله يظهر الغائب، ويغيب الظاهر بدليل ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[6] والعزة لله وللإنسان ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[7] والجمع بين إرادتين في ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. والله هو الذي يحمل الصوفي المسافر ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[8] ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار بالملك، ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار على النفس بما لها[9] ولا يفهم الله إلا بالله. فالله هو الموضوع والمنهج[10].

وفي الأخرويات، حسية الجنة استمرار لحسية الدنيا ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾[11] ومن أراد الآخرة دعاه الله إلى قربه ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا

(1) أبو عثمان المغربي، السابق ص481.
(2) السابق ص466.
(3) شطحات الصوفية ص173.
(4) طبقات الصوفية ص486-487.
(5) السابق ص468-469.
(6) السابق ص445-446.
(7) السابق ص490-491.
(8) السابق ص517.
(9) ﴿إِنَّا لِلَّهِ * وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، السابق ص73.
(10) «اللهم افهمني عنك فإني لا أفهم عنك إلا بك»، السابق ص209/ 225.
(11) أبو الحسن الحصري، طبقات الصوفية ص490-491.

سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1] وأحياناً يكون حساب الثواب كما ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وأحياناً أخرى كيفاً[2] وفي بداية الخلق آدم له صفتان: آدم الذي غوى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وآدم المصطفى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾[3].

ويخضع تأويل الحديث مثل تأويل القرآن لنفس المنطق مع تأويل لبعض الألفاظ مثل تأويل لفظ «الأبله» في حديث «أكثر أهل الجنة البُله» بأن في دنياه هو الفقيه في دينه[4] وتأييد للاعتراف بالإحسان حديث «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها»[5] والصوفي شاهد الله في الأرض «أنتم شهداء الله في الأرض». وشرط الصوفي ألا يعلم الآخرون عنه أنه كذلك، وألا يطلع على سره أحد من الخلق[6] وحديث الله كالثلج في الصيف. وجوده غريب وبقاؤه أغرب[7].

ويفوق الصوفية أهل الكتاب في التأويل. فعندما سأله الراهب عن العدد الاثني عشر، والرهبان هم أهل التأويل، أجاب بأن الواحد هو الله، والاثنان الليل والنهار، والثلاث الطلاق ثلاث مرات، والأربع الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، والخمس الصلوات، والست الأيام، والسبع السماوات، والثمان حملة العرش، والتسع مدة الحمل، والعشر الكرام البررة، والحادي عشر إخوة يوسف، والثاني عشر السنة[8].

حامل القرآن لا يحتاج إلى شيء من الخلق بما في ذلك الخلفاء والسلاطين، بل الخلق في حاجة إليه. وقد يعني العلم والقدرة على التصرف والحكمة. أما إن كان يعني الحصول على قدرات خارقة للعادة سحرية تجعله قادراً على كل شيء

(1) أبو عبد الله الروزباري، السابق ص499.
(2) أبو عبد الله الدينوري، السابق ص517.
(3) السابق ص489.
(4) طبقات الصوفية ص481-482.
(5) السابق ص506.
(6) «ما هذه السعاية التي سعيت بي إلى خلق الله؟ أتريد أن يفشو سري مع الله خلق الله»، شطحات ص137.
(7) السابق ص181.
(8) السابق، شطحات ص220.

فيكون أقرب إلى التصور الشعبي للتابو[1] والتباعد عن القراء مستحب لأنهم إن أحبوا أحدا مدحوه بما ليس فيه. وإن أبغضوه شهدوا عليه وقبلت شهادتهم[2] فهم مداحو السلطان، وسوطه على الناس. والشاطر السخي أفضل من القارئ اللئيم لأن السخاء فضيلة، واللؤم رذيلة. وللقرآن مفتاح يختلف من صوفي إلى آخر، آية أو لفظ أو حدس أو توجه. وقد يظل الصوفي عشرين عاماً حتى يعثر عليه[3] ويفهم من القرآن أحياناً التهديد بلطف للمعارض مثل آية ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. وهو ليس تهديداً بل إعلان ختم النبوة واكتمال الوحي، وأن المراحل السابقة كلها تصب في المرحلة الأخيرة كما هو الحال في اللاهوت المسيحي عندما تصب رسالات أنبياء إسرائيل السابقين في شخص عيسى نبياً و«إلهاً»[4].

وبعد قراء القرآن قد يحار العقل في آية. أما حفاظه فكيف يهنأ لهم البال وينامون ملء الجفون ويشتغلون بأمور الدنيا وهم لا يفهمونه. فإذا فهموا وعرفوا حقه وتمتعوا وناجوا به لما ناموا فرحاً بما رزقوا ووفقوا[5] القرآن فهمه وليس تلاوته. وهو أيضاً دافع على السلوك الفاضل. فإذا دنا القارئ من معصية يتحدث القرآن في جوفه ويسأله لماذا حمله؟[6].

وقد يستغلق كلام صوفي على صوفي آخر نظراً لاختلاف درجاتهما في المعرفة ولتباينهما في الحالات النفسية[7] يتكلم صوفي من بحر صفاء الأحوال. ويتكلم آخر من صفاء المنة. الأول مزج، والثاني صرف. الأول بينية بين الأنا والأنت، والثاني هوية بين الأنا والأنا أو الأنت والأنت[8].

---

(1) الفضيل بن عياض، طبقات الصوفية ص10/ 11.

(2) بشر الحافي، السابق ص44.

(3) هي آية ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾، وما عند الله خير وأبقي، عند شقيق البلخي، السابق ص64.

(4) أبو سليمان الداراني، السابق ص80.

(5) أحمد بن أبي الحواري، طبقات الصوفية ص102.

(6) عبد الله بن خبيق الانطاكي، طبقات الصوفية ص143.

(7) «انكص على عقبك في كلامك قليلا حتى أعرف ما تقوله»، شطحات ص73.

(8) «نعم القوم، تكلموا من بحر صفاء الأحوال. وأنا أتكلم من بحر صفاء المنة. فتكلموا ممزوجا وأتكلم صرفا. كم بين من يقول: أنا وأنت وبين من يقول: أنت أنت»، السابق ص103.

6 ـ علوم السلف وعلوم الخلف

وتصنف العلوم طبقاً لمسار التاريخ من الماضي إلى الحاضر، ومن السلف إلى الخلف. فالعلوم تسعة، أربعة صحيحة من السلف، وخمسة محدثة من الخلف. والسلف خير من الخلف، ولا تجديد في العلوم. الأربعة القديمة: علم الإيمان، وعلم القرآن، وعلم السنن والآثار، وعلم الفتاوى والأحكام. والإيمان ليس علماً. والقرآن والحديث علمان نقليان. والآثار علم يخضع للروايات مثل الحديث. وعلم الفتاوى والأحكام علم الفقه وهو علم نقلي. والخمسة المحدثة: النحو، والعروض، والمقاييس، والجدل في الفقه، وعلم المعقول بالنظر، وعلم علل الحديث وتطريق الطرقات إليه، وتعليل الضعفاء، وتضعيف النقلة للآثار. وقد نشأ كل علم طبقا لمقتضيات العصر، النحو لوضع قواعد للكلام، والعروض لوضع بحور للشعر، والمقاييس لوضع قواعد للتفكير، والجدل لوضع مناهج لإفحام الخصوم، والمعقول للرد على الفرق غير الإسلامية، وعلم العلل لاستنباط الأحكام وهو علم أصول الفقه، وتضعيف النقل هو علم النقد التاريخي، وعلم القصص بدايات علم التاريخ[1].

وفي قسمة أخرى ينقسم الكلام إلى سبعة أقسام، العلم واحد منها. فالعلم جزء من الكلام. وباقي الستة لغو. والعلم السابع هو القرآن والسنة، ما دل عليهما أو استنبط منهما أو ما وجد اسمه ومعناه من قول وفعل. والتأويل المتفق مع الإجماع داخل في الاستنباط من الكتاب. القرآن هو العلم الأول والأخير. وأصبح المتكلم هو نموذج العالم، كلام البدع وعلم المنافقين، المعروف منكر والمنكر معروف[2] ومن البدع البيع والشراء على الطريق، وكثرة المساجد في مكان واحد، وملؤها بالنقوش والتزويق في السقوف والأبواب، والمحامل والقباب، وعلم الحروف، والتضييق والتوسيع على الناس مثل القبض والبسط. وتنتشر العلوم من المنافقين والمبتدعة أو المشركين لأنها نتيجة الذهن وثمرة العقل. أما علم الإيمان واليقين فلا يأتي إلا عن مشاهدة ومكاشفة. وعلم التوحيد والصفات مباين لسائر العلوم. الاختلاف في ظاهر العلوم رحمة، وفي علم التوحيد ضلال وبدعة. الخطأ في

(1) «تفصيل العلوم، معروفها وقديمها، ومحدثها ومنكرها»، قوت القلوب جـ1/ 339-352.

(2) حديث «إن الله تعالى يبغض الثرثارين والمتشدقين».

الظاهر مغفور، وفي التوحيد كفر. والمغالون هم الشاطحون. جاوزوا العلم ومحوا الرسم، وأسقطوا الحكم. والمبطلون هم المدعون المبتدعون. جادلوا بالباطل لدحض الحق. وافتروا بالدعوى، وابتدعوا بالرأي والهوى. والجاهلون هم المنكرون لغرائب العلم المغترون بظاهر العقل. أهل العلم بالله يردون علوم العقول إلى علم اليقين، وعلم الرأي إلى علم السنة. ويثبتون الآثار، ويؤيدون نقله بالأخبار.

العلم ما كان عليه السلف الصالح المقتفي آثارهم، والخلف التابع المقتدي بهديهم، الصحابة وأهل السكينة والرضا، والتابعون لهم بإحسان من أهل الزهد. العلماء ورثة الأنبياء هم الورعون في الدين، الزاهدون في الدنيا، الناطقون بعلم اليقين والقدرة لا علم الرأي والهوى، الصامتون عن الشبهات والآراء. وهم الأبدال في أطراف الأرض، المستترون عن أعين الجمهور. لا يطيقون النظر إلى علماء الزمان ولا الاستماع إلى كلامهم[1] العلم عند أهل السلف علم الحال وهو علم الخبر. فالسؤال عن الخبر سؤال عن الحال[2] ثم ابتدعت علوم عند السلف مثل علم الكلام والجدل، وعلوم المقاييس والنظر، والاستدلال على الحديث بأدلة الرأي والمعقول، وإيثار علم العقل والرأي والقياس على ظواهر القرآن والأخبار وإظهار الإشارات بالمواجيد من غير علومها ولا تفصيلها[3] في حين أظهر القدماء علوم المواجيد وأخفوا الإشارة بالوجد لإظهار ما ينفع وإخفاء ما يضر. كانوا يسكتون عما خالف الكتاب والسنة مثل الكلام في التوحيد بما يخالف الشرع مثل الشطحات. وكذلك الكلام في الدين بالوساوس والخطرات دون مواجيدها، ووضع السجع في الدعاء، وإدخال القصص، وأخذ القرآن بالإرادة، وضرب الآيات بعضها ببعض، والتلحين في القراءة، وعدم فهم التلاوة، وتلحين الأذان، والتشديد في أشياء كان السلف يسهل فيها، والتدقيق في القياس والنظر والنحو، والتسهيل في المكاسب، وبيع المصحف أو شراؤه، ودخول النساء الحمام من غير ضرورة[4].

---

(1) «تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه»، قوت القلوب جـ1/ 353-359.

(2) «كشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة»، السابق جـ1/ 267-274.

(3) «وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام»، السابق ص297-331.

(4) «ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف»، السابق ص331-338.

7 ـ علوم الدنيا وعلوم الآخرة

هناك فرق بين العلم بالله، والعلم بأمر الله. الأول العلم بالحقيقة والثاني العلم بالشريعة. وهي نفس التفرقة بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا. وكم من عالم فاجر، وعابد جاهل، مما يستدعي اتقاء الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين.

وقد تبدو القسمة ثلاثية إضافة التقوى والخوف في أخلاق العالم. حينئذ يكون العلماء ثلاثة: عالم بالله وبأمر الله وهو العالم الكامل. وعالم بالله وهو التقي الخائف، وعالم بأمر الله دون الله وهو العالم الفاجر. الأول عالم بالله، والثاني عالم لله، والثالث عالم بحكم الله. الأول هو العارف الموقن. والثاني هو العالم بالإخلاص والأحوال والمعاملات. والثالث العالم بتفصيل الحلال والحرام. الأول العالم بالله لا بأمره ولا بأيامه وهم المؤمنون. والثاني العالم بأمر الله لا بأيامه وهم المفتون في الحلال والحرام. والثالث العالم بالله وبأيامه وهم الصديقون. ويكون طلاب العلم ثلاثة. الأول للعمل به. والثاني ليعرف الاختلاف فيتورع ويأخذ بالاحتياط. والثالث ليعرف التأويل ويجعل الحرام حلالاً. وفي قسمة أخرى طلاب العلم ثلاثة، علم الورع مخافة الاشتباه وهو الزاهد التقي، وعلم الاختلاف والأقاويل فيسقط الواجبات، ويتوسع ويترخص. والثالث يسأل عن شيء فيقال لا يجوز فيبحث عن حيلة حتى يجوز بناء على الاختلاف والشبهة. وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة عليه: الصبر، والتواضع، وحسن الخلق. وقد تكون القسمة رباعية بين العلماء والخائفين والمحبين والمؤثرين لله. الناس موتى إلا العلماء، والعلماء نيام إلا الخائفين، والخائفون منقطعون إلا المحبين، والمحبون أحياء شهداء وهم المؤثرون لله[1].

وعلوم الدنيا أساس علوم الدين. ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا[2] وعندما

---

(1) «الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وذم علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا»، السابق جـ1/ 285-296.

(2) «إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا. ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا. فإن الدنيا مزرعة للآخرة. وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لا لمن يتخذها مستقرا ووطنا. وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وأعمالهم وحرفهم وصناعتهم»، الإحياء جـ1/ 19-20.

تعرض للعالم مشكلات في الدين يحتاج إلى العارف عند حدوث شبهات في الصدر. فعالم الآخرة هو عالم الدين.

وتنقسم أعمال الدنيا إلى ثلاثة أقسام. الأول أصول وهي أربعة، الزراعة للمطعم، والحياكة للملبس، والبناء للمسكن، والسياسة للاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة. والثاني فروع هذه الأصول لخدمتها مثل الحدادة للزراعة، والحلاجة والغزل للحياكة. والثالث المتمم للأصول والفروع مثل الطحن والخبز للزراعة، والقصاصة والخياطة للحياكة[1] وأشرفها السياسة لإرشاد الخلق. ويعرف شرف الصناعات بثلاثة أمور، بالغريزة وسيلة المعرفة مثل فضل العلوم العقلية على اللغوية. فالحكمة بالعقل واللغة بالسمع والعقل المشرق من السمع. وبالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصباغة وبملاحظة المحل كفضل الصباغة على الدباغة.

وعلوم الآخرة أربعة مراتب: الأولى السياسة العليا للأنبياء وحكمهم على الظاهر والباطن للخاصة والعامة. والثانية للخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الظاهر للخاصة والعامة. والثالثة للعلماء وحكمهم على الباطن وحده للخاصة دون العامة. والرابعة للوعاظ وحكمهم على بواطن العوام. وتدرك العلوم الدنية، فقه الآخرة بكمال العقل وصفاء الزكاء. والعقل أشرف ما في الإنسان، وعموم نفعه، وشرق المحل وهو قلب البشر ونفوسهم. وعلوم الآخرة تنقسم أيضاً إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة، الأول علم العمل، والثاني علم النظر. ثم ينقسم علم المعاملة إلى علم ظاهر يتعلق بأعمال الجوارح، وعلم باطن يتعلق بأعمال القلوب. وأعمال الجوارح إما عادة وإما عبادة. وعلم القلوب ينقسم إلى مذموم ومحمود.

وللعالم خمس علامات من علماء الآخرة: الخشية، والخضوع، والتواضع، وحسن الخلق، والزهد. ويقتضي التفقه في الدين النذارة والحذر لأنه يقيس الغائب على الشاهد. وعلم الآخرة من الذكر. وهو علم المشاهدة. والمشاهدة صفة عين

(1) وذلك مثل بدن الإنسان الأصول كالقلب والكبد والدماغ وفروع خاصة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة، ومكملة ومزينة لها كالأظافر والأصابع والحاجبين.

اليقين. وإذا هرب العالم من الناس يؤتى إليه. وإذا طلب العالم الناس يُفر منه[1].

8 ـ علم العقل، وعلم الأحوال، وعلم الأسرار

وتنقسم العلوم إلى ثلاثة: علم العقل، وعلم الأحوال، وعلم الأسرار. يحصل علم العقل ضرورة بعد النظر في الدليل والعثور على وجه الدليل وشبهه في عالم الفكر. ومن النظر صحيح وفاسد. ويحصل علم الأحوال بالذوق. لا يحده عاقل ولا يُعرف بدليل بل بالتجربة وحدها والذوق. وهو متوسط بين علم العقل وعلم الأسرار وإن كان أقرب إلى علم الأسرار وإلى علم العقل الضروري عند من شاهده، وأبعد عن علم العقل النظري.

أما علم الأسرار فإنه فوق العقل، من نفث الروح القدس في الروع. يختص به النبي والولي. وينقسم بدوره إلى علمين: الأول يحصل بالعقل دون النظر لمجرد مرتبته. والثاني ينقسم إلى قسمين. الأول علم الأحوال ولكنه أشرف. والثاني علم الأخبار ويحتمل صدق وكذب. وصدقه من صدق المخبر وعصمته مثل الأخبار الواردة عن الأنبياء عن القيامة والجنة والحوض ووجود الله ولا شيء معه. وهو أشرف العلوم لأنه حاوٍ لجميع العلوم[2] لا يرفضه الذكي. يكفيه احتماله وجوازه. صدقه في نفسه بالرغم من صدق قائله. ينفع قبوله، ويضر نفيه. لا يبطل أركان الشريعة أو أصلاً من أصولها. ينال بالشهادة والإلهام. لا يطعن فيه متكلم أو فيلسوف أو فقيه لأنه يعتمد أيضاً على إدراك العقل الحدسي دون

(1) السابق جـ1/ 10-11/ 21.
(2) الفتوحات جـ1/ 31-33.

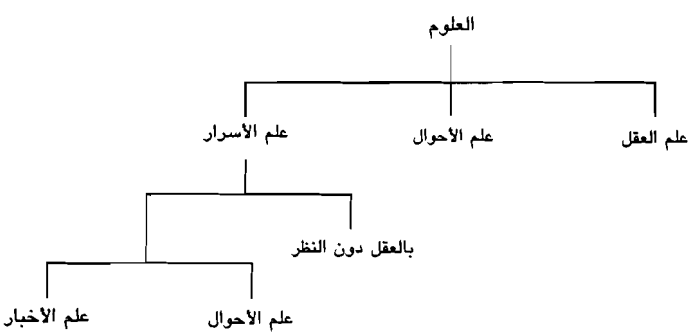

النظري. قد يصعب على الفهم من أجل العبارة. لذلك تستعمل الأمثلة والمخاطبات الشعرية للتعبير عنه[1].

والطريق إلى علم الأسرار للخاصة وليس للعامة على أربع شعب: بواعث ودواع وأخلاق وحقائق. وعليهم ثلاثة حقوق: حق الله وهو عبادته، وحق النفس وهو سلوك طريق سعادتها، وحق الخلق وهو كف الأذى عنهم. والدواعي خمسة: الهاجس وهو الخاطر، والإرادة، والعزم، والهمة والنية. والبواعث عليها ثلاثة، رغبة ورهبة وتعظيم. والرغبة اثنان، مجاورة ومعاينة. والرهبة من العذاب ومن الحجاب. والأخلاق ثلاثة أنواع: متعد، وغير متعد، ومشترك. والمتعد لجلب منفعة أو لدفع مضرة. والحقائق أربعة، الذات والصفات والأفعال والمفعولات وهي الأكوان. وهي على ثلاث مراتب، علوية وهي المعقولات وسفلية وهي المحسوسات وبرزخية وهي المخيلات. الذاتية من غير تشبيه ولا تكييف ولا عبارة ولا إشارة، والصفاتية هي الأسماء والصفات المختلفة والمتقابلة والمتماثلة، والكونية معرفة الأرواح والبسائط والأجسام والاتصال والانفصال، والفعلية كن فيكون والقدرة. وكلها الأحوال والمقامات. فالمقام صفة للبقاء فيها مثل التوبة. والحال صفة للبقاء في وقت دون وقت كالمحو والغيبة والرضا أو تكون مشروطة مثل الصبر مع البلاء والشكر مع النعمة[2].

وقد يتناول بعض مسائل هذا العلم المتكلم أو الفيلسوف أو صاحب النظر ولكنه لا يصبح بذلك صوفياً. فإن الفيلسوف يتناول الموضوع بالعقل الخالص بصرف النظر عن الدين على عكس الصوفي. ولا يعني ذلك أن ما يقوله الفيلسوف باطلاً بل هو مثل المتكلم والفقيه مادام علمه قد بسطته العبارة وحسن التعبير عنه. أما علم الأسرار فإنه عويص على الأفهام، سمج العبارة، لا تدركه العقول الضعيفة المتعصبة التي لم تتهيأ للنظر والبحث. أما علوم الأحوال فمتوسطة بين علم الأسرار وعلم

---

(1) وهو علم الخضر مع موسى. وفيه قال الرضى من حفدة علي:

يارب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

السابق جـ1/ 32.

(2) السابق جـ1/ 33-34.

العقول. يتناوله أصحاب التجارب. هو إلى علم الأسرار أقرب وإلى علم العقول أبعد. لا تتوصل إليه العقول إلا عن طريق الأخبار. وهو أقرب إلى العلم العقلي الضروري أي إلى أوائل العقول وبداهاته. وهو ضروري عند أصحاب الأذواق[1].

ثانياً: علوم الوقت

1 ـ مفردات العلم

تعني مفردات العلم محاولات تعريفه عن طريق ذكر الألفاظ المشابهة أو القرينة به مثل المعرفة واليقين والحال والإيمان والدليل وغيرها من المفردات المتعلقة بالعلم أو وسائل التعبير عنه بالحروف والأسماء والإشارة وسائر مفردات اللغة[2] وإذا تكلم الإنسان عُرف. وإذا تكلم المنافق عُرف. الكلام كاشف. وهو هيبة الإنسان[3] المعرفة إشارة ورمز تكون عليها الواردات متصلة والأحوال متشابهة[4] العلم لغة. واللغة حروف وأسماء وأفعال. وبذهاب الأسماء تذهب المعاني. وإذا ذهبت المعاني انكشفت. فاللغة حجاب. كل شيء شجر. واللغة مثل الشجر، جذور وجذوع وفروع وأوراق وثمار[5] اللغة وسيلة للتعبير. الباطل يستعير الألسنة، والحق لا يستعيرها من غيره[6].

وما يخص نظرية العلم في علم الكلام الأشعري الصوفي هو أن العلم ليس تصورا للمعلوم ولا معناه بل هو تخيله إن أمكن[7] العلم لا يتغير بتغير العلوم. ولا يتغير المعلوم بتغير العلم. وإحاطة العلم بالعلوم يقتضي تناهيه. ولا يلزم من تعلق العلم بالمعلوم حصول المعلوم في نفس العالم ولأمثاله. العلم والعالم والمعلوم

(1) السابق جـ1/ 32-33.
(2) النفري: المواقف ص66-67/ 70.
(3) التستري ص218-219.
(4) «إن ورد عليك بعض إشارة ورمز فلولا أن تكون الواردات متصلة والأحوال متشابهة مشتركة في المنزلة لما تقابلت الواردات، ولا تساوت الحالات، ولا عللت الخافيات»، أخبار الحلاج ص53.
(5) النفري: المواقف ص92.
(6) السابق ص96.
(7) الفتوحات جـ1/ 42-47.

شيء واحد[1] ولا يوجد شيء من العلم التصوري مكتسب بالنظر الفكري. والأشياء كلها مجتمعة في المعرفة وليست في العقل. والمعرفة كلها مجتمعة في العقل وليست في العلم. والعلم كله مجتمع في العقل وليس في السنة. والسنة كلها مجتمعة في العمل غير مجتمعة في الإخلاص. والعمل كله مجتمع في الإخلاص غير مجتمع في الحلم[2] المعرفة كالريح، والعقل كالفتيلة. تهب المعرفة على العقل كما تهب الريح على الفتيلة. والعلم كالنار والمريد كالزند. وتنير النار على قدر الزند[3] والعالم لا يفرض على الأشياء نسقاً بل يدرك نسق الأشياء[4] والعين تشير إلى ذات الشيء الذي تبدو منه الأشياء. وهي تغني عن البحث والطلب. وعين الجمع اسم من أسماء التوحيد[5] وهو لفظ مشابه يدل على عضو العين وعلى منبع الماء وعلى مصدر المعرفة.

والعلم أقل من المعرفة. العلم باب والمعرفة أبواب. وأحياناً تعني المعرفة المعلومات المنقولة المحفوظة. وفي هذه الحالة تكون أقل من العلم المباشر. ويكون العلم أعمق من المعرفة[6] والعلم وجد وليس مجرد معرفة. هنا يكون العلم أعلى من المعرفة. والعلم طلب المعرفة. وهنا تكون المعرفة أعلى من العلم[7] وقد لا يكون العبد عارفاً إلا إذا كان عالماً بالله. ولا يكون عالماً إلا إذا كان رحمة للخلق. السماء رحمة للأرض. وبطن الأرض رحمة لظهرها. والآخرة رحمة للدنيا. والعلماء رحمة للجهال. والكبار رحمة للصغار، والنبي رحمة للخلق. والله رحيم بالخلق. أصل المعرفة الخلقة[8] والعالم بحاله أفضل من العارف بحاله لأنه يعرف الشكر. والعارف يعبد في الحال، والعابد يعبد بالحال. ولا يصح إعلام

(1) العلم والمعلوم والعالم ثلاثة حكمهم واحد السابق ص91-92.
(2) التستري ص139.
(3) السابق ص377.
(4) السابق ص237. وهو ما قاله برجسون فيما بعد
(5) اللمع ص450.
(6) النفري: المواقف ص96.
(7) النفري: المخاطبات ص212. قوت القلوب جـ1/ 262.
(8) التستري ص153/ 299-300.

الحال أو المعرفة مع العاصي لأن الحال إيجابي، والمعصية سلب[1] بدء الأشياء المعرفة، وآخرها العلم. وبدء الشيء العلم وآخره المعرفة. وآخر باب من العلم أول باب من المعرفة. وأول باب من المعرفة السكون إلى الله. وكمال الذكر هو العلم بالمشاهدة. المعرفة أقرب إلى الإدراك الحسي، والعلم تحويل هذه المعرفة الحسية إلى معرفة عقلية أي إلى علم. وفي نفس الوقت بداية الشيء العلم به وآخره المعرفة بالمعنى الباطني أي العلم بحقيقته. فالمعرفة الحسية سابقة على العلم، والمعرفة الحدسية تالية له. والعلم اللدني هو المشاهدة التي تأتي بعد الذكر[2].

ويستحق العبد أن يسمى عارفاً بالله بأول درجة من درجات المعرفة إذا وقف بعمله على همومه فيعرف كل هم بالقلب. والعلم أدنى درجات الذكر. وكماله الحكمة[3] من عرف الله في الدنيا فإنه بلاء وغم إلى الأبد[4] مع أن المعرفة والسعادة شيء واحد عن الصوفية خاصة الغزالي. المعرفة توقظ الوعي وتعطي الإحساس بالواجب، وتبعث على الأمل.

ويفسح التصوف مجالاً لنفسه في حد العلم كما فعل المحاسبي في «كتاب العلم»[5] يعتمد على حجج نقلية أقل وتحليل عقلي وأخلاقي أكثر، وعود إلى تصنيف العلوم[6] فالعلم علمان: الأول، علم الفقه، وهو علم الحلال والحرام، علم أحكام الدنيا، وهو علم الظاهر فإن طال فلخصومات الناس. والدنيا مؤسسة على العدل والخصومات قائمة على الشهوات والأهواء ترد إلى الأصول. وهو فرض عين. علم الفقه الذي بدأ منه التصوف وانتهى إليه. هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق، علم المعاملات الخاصة والعامة، علم أصول الأمر والنهي. هو علم طلب المشكلات والشبهات أي علم الواقع. وهو العلم النافع[7] وإدراك العلم

(1) السابق ص336-337/ 90، شطحات الصوفية ص124.
(2) السابق ص319.
(3) السابق ص67/ 69.
(4) السابق ص323.
(5) المحاسبي: كتاب العلم ص81-99.
(6) الآيات (3)، الأحاديث (1).
(7) وهو معنى حديث «أعوذ بالله من علم لا ينفع»، قوت القلوب جـ1/ 266.

لا يتم بالفقه[1] والبدعة بين الفقه والتصوف. لا يثبت حساب للمبتدع لأنه لا سنة له. وأشنع بدعة الوقوف على طلب العلم، والتفاضل عما لا يُعلم كما قال سقراط «ما ظل الإنسان عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل»[2] وصاحب البدعة لا تقبل توبته لأنها انحراف عن الطريق. ومع ذلك ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[3].

والثاني علم أحكام الآخرة، وهو علم الباطن، علم العبادة الباطنة، الورع والتقوى والزهد والصبر وسلامة الصدر وسخاوة النفس وحسن الطاعة والصدق والإخلاص. وكلها حلال في مقابل الحرام وهي أهواء النفس[4] وهو علم ضروري، فرض كفاية. وهذه هي أصول الدين. فالعقائد أخلاق، التحلي بالأخلاق السنية والتخلي عن الأخلاق الدنية وهو أحد تعريفات التصوف. تمثلها الرسول ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. وأكرم الناس عند الله أتقاهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وأشر شيء هو أشر العلماء. هم علماء المساكين.

والعلماء ثلاثة: عالم في القلب، وعالم في السمع، وعالم في التعلم من أعلى إلى أدنى. الأول صاحب العلم المباشر، والثاني صاحب العلم المنقول، والثالث صاحب العلم المحصل. والقراء ثلاثة: قارئ عرف الكل، وقارئ عرف النصف، وقارئ عرف الدرس. الأول صاحب العلم الكلي، والثاني العلم الجزئي، والثالث المحصل. الكل الظاهر والباطن، والجزء الظاهر، والدرس التلاوة[5] وقد أعطي الرسول ثلاثة علوم: علم يقيني، وربما علم ظني، وعلم سري لا يظهر[6] علمه يقيناً الشريعة التي يعرفها العامة، وعلمه ظناً الطريقة التي يعرفها الخاصة، وعلمه السري هو الحقيقة.

---

(1) النفري: المخاطبات ص221.
(2) السابق ص67.
(3) السابق ص278.
(4) مثل الغل والحقد والحسد والغش وحب المنزلة وحب الثناء، والكبر والغضب والحمية والأنفة وحب الرياسة والعداوة والطمع والفخر والخيلاء والفضول والمداهنة والعجب والتملق والضعف، المحاسبي: كتاب العلم ص84-85.
(5) النفري: المواقف ص99.
(6) التستري ص340.

التصوف هو العلم الأول، علم الإيمان السابق على علم القرآن. فالإيمان يسبق القراءة والفهم. ومن اشتغل بطلب العلم وقراءة القرآن لم يصبه المرة البتة أي حزن أو سوء الحظ أو ابتلاء. فالعلم هو العلم الإيماني. العلم حلم، صديق المؤمن. العمل دليله. والرفق أخوه. والبر والده. والصدق أمير جنده[1] ليس العلم مجرد معرفة خالصة بل هو موقف أخلاقي يرتبط بالحلم والرفق والبر والصدق. العلم هو الأصل. وهو الشهادتان[2] أصل العلم قول لا إله إلا الله والخوف واجتناب النواهي، ورجاء أداء الفرائض، والحب والشوق، والاقتداء بالسنة[3] المعرفة معرفة الإيمان. والعقل عقل الإيمان. واليقين يقين الإيمان. والروح روح الإيمان. والحياة حياة الإيمان. وهذه هي الحياة وإلا فالموت. واضح أن الإيمان هو المصدر الأول للمعرفة. واليقين والروح والحياة أقرب إلى المسيحية منها إلى الإسلام[4].

وهو علم الباطن وفرائض القلوب[5] والخضر نموذجه. وهو أعلم أهل الأرض من ولد آدم[6] ومن لم يبلغ علمه هذا القدر فإنه ميت. يخرج منه حيّ يظهر حاجته وفقره وسره. يدبر أمره، ويتولى أموره. فالعلم متواصل بين الأحياء والأموات، وبين الأموات والأحياء[7] دعوى العلم حجاب. وكمال العبد سكونه إلى جهله. وعلى قدر سكونه لا يحجب عن ربه. ليس العلم ادعاء وإلا كان حجاباً. ولا يسعى في طلبه وإلا كان جهلاً. العلم كشف لحجاب[8] العلم كشف وبهوت عندما تشتد الرؤية وتنبهر بها العين. والحجب خمسة: حجاب أعيان، وحجاب علوم، وحجاب حروف، وحجاب أسماء، وحجاب جهل. والبهوت من

(1) السابق ص94.
(2) السابق ص90.
(3) السابق ص201.
(4) السابق ص323.
(5) وهو معنى حديث «وعلم باطن في القلب، وهو العلم النافع»، قوت القلوب جـ1/ 163.
(6) «إبليس أعلم منه وأعرف. يحذر الملائكة منه. والملائكة، جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت (عزرائيل)، أعلم منه. جبريل حسن الخلق، كيس فطن. وميكائيل رحيم، وملك الموت أفظعهم وأغلظهم وأقساهم». التستري ص304-305
(7) السابق ص152.
(8) السابق ص325.

صفات الجبروت لأنه يأخذ بالعين، ويطغى الموضوع على البصر[1] العلم هو الحياة والحياة هي العلم. وكلاهما صفتان لله مع القدرة في الثلاثي الأول[2] ودون العلم هو الموت. العلم حياة. والسكون روح. واليقين نفس وهو عين الشيء. فالمعرفة والوجود شيء واحد[3] العلم حركة حتى يأتي اليقين. فيتحول إلى سكون. والعمل حركة حتى الإخلاص فيصير طمأنينة. فالحركة نقص. والسكون كمال[4] الناس موتى إلا العلماء. والعلماء موتى إلا الخائفين. والخائفون مقطوعون إلا الراجين. والراجون لا يصلون إلا المحبين. والمحبون هم الذين يؤثرون الله على كل شيء. وفي تسلسل آخر: الناس موتى إلا العلماء. والعلماء سكارى إلا العاملين. والعاملون مخدوعون إلا المخلصين. والمخلصون وجلون حتى يعرفوا خاتمتهم[5] الدنيا جهل وموات إلا العلم. والعلم حجة على الخلق إلا إذا عمل به. والأعمال هباء إلا الإخلاص فيها. والإخلاص لا يعرفه إلا الله. وما على الإنسان إلا الحذر من الموت. فالأعمال بخواتيمها[6] والسؤال: كيف يقيم الإنسان حياته على ما لا يعرف؟

العلم حال من مقام همومية[7] وطلب العلم على قد الحال. وطلب الحال على قد اليوم. وطلب علم اليوم على قد الأنفاس والهموم. وطلب الهموم على قد الخاطرات، وطلب الخاطرات على قد الخروج منها[8] فالعلم علم شعوري، علم هموم الحياة الحياة اليومية في المنزل أو في العمل طبقاً لضرورة الحياة العملية. العلم يفرضه العمل. بل هو علم العمل. العلم هو العلم بالحال في اليوم ومن اليوم. هو العلم في اللحظة[9] هو علم النفس. ومن النفس الهمة، ومن

(1) «موقف الكشف والبهوت»، النفري: المواقف ص169-172.
(2) من العقيدة إلى الثورة جـ2/ التوحيد، ص418-423.
(3) التستري ص335.
(4) وهو أحد اختيارات التراث القديم في حين اختار الغرب الحركة على السكون. وهو أحد أسباب تخلف المسلمين وتقدم الغرب. السابق ص256.
(5) السابق ص98.
(6) السابق ص187.
(7) السابق ص311.
(8) قوت القلوب جـ1/ 262.
(9) التستري ص286. وهو معنى العلم عند برجسون وهوسرل.

الهمة الخاطرة، ومن الخاطرة الحركة[1] والغضب الذي يهيجه العلم رحمة. فالعلم ليس نظرياً بل وجدانياً، ليس مجرد معرفة بل سلوك[2] وغضب الأنبياء والعلماء حكم لأنهم لا يصدرون عن الهوى[3] ويختلف العلماء في الذات ومقاماتهم. ويتكلمون على قدر معاملاتهم.

وهو علم أخلاقي، علم الإخلاص أي الصدق مع النفس، ومعرفة آفات النفس ومكايد العدو، إبليس أي الصراع بين الخير والشر. خير العبادات، الإخلاص. ويقتضي التمييز بين المداراة والمداهنة. المداراة كل ما يدل على الدنيا. والمداهنة السكوت على أمر الدين. فلا ينخدع العلماء بثلاثة أشياء بعد معرفتها: معرفة العدو، ومعرفة الدنيا، ومعرفة النفس[4] ويُرمز إلى العلم بحركة البدن. فجلوس المتعلم الجثي على الركب. وجلوس العالم الانتصاب. وجلوس المحب، الفخذ على الفخذ. الانحناء للمتعلم، والوقوف للعالم، والملامسة للمحب[5] وتتجلى الأخلاق في سلوك العلماء. وفي علم العالمين أثبت الله أسماءهم عنده في العلماء، راضيين عنه، قانعين به عمن سواه، حامدين له على ما ابتلاهم، ومستغفرينه من كل أفعالهم، طالبين السلامة والعفو، خائفين عدل الله، وراجين فضله. ليس العالم فقط هو حامل العلم بل من له سلوك العلماء من الفضيلة والتقوى. أما أنهم معروفون سلفاً نظراً لعلم الله المسبق بكل شيء فذاك خارج عن نطاق العلم وأدخل في العقائد. والغوص في العلم قد يؤدي إلى الهلاك في الطريق إلا علم الرضا وبنية الإخلاص[6].

والعلوم روحية وكونية أو بتعبير المعاصرين إنسانية وطبيعية. العلوم الروحية مثل علم عيسى وهو علم الحروف والنفخ[7] والعلوم الطبيعية أي الكونية

---

(1) السابق ص266. الفصل الحادي والثلاثين: «كتاب العلم وتفصيله وأوصاف العلماء»، قوت القلوب جـ1/ 262-364. العلم وتفصيله وأوصاف العلماء ص262-267.

(2) السابق ص234.

(3) السابق ص286.

(4) السابق ص152.

(5) السابق ص224.

(6) السابق ص162.

(7) «في العلم العيسوي ومن أين جاء وإلى أين ينتهي وكيفيته وهل تعلق بطول العالم أو بعرضه أو بهما»، الفتوحات جـ1/ 167-169.

ثلاثة[1]: علم التوالد والتناسل ويكشف عن العلم الإلهي. وعلم التوالج والالتحام والنكاح الحسي والمعنوي. وهناك علم منزل المنازل وترتيب جميع العلوم الكونية[2] وهي منازل معرفية[3] ولكل منزل أربعة أصناف[4] أما منزل الرموز فإنه يحتوي على منازل أخري[5] والعلوم الكونية مصدر للمعرفة[6] وهي عاشقة لعلوم التوحيد[7] وتختص الأقطاب بأربعة علوم[8] والأقطاب الرموز علوم مثل علم سر الأزل، وعلم الأولياء[9] وبعضه في جداول أبجدية على أربعة أعمدة وسبعة

(1) «في معرفة ثلاثة علوم كونية، وتوالج بعضها في بعض»، السابق ص170-171.

(2) «في معرفة علم منزل المنازل وترتيب جميع العلوم الكونية»، السابق ص170-180.

(3) «وهي ستة عشر منزلاً: منازل الثناء والمدح لأرباب الكشوفات والفتح. ومنازل الرموز والألغاز لأهل الحقيقة والمجاز. ومنازل الدعاء لأهل الإشارات والبعد. ومنازل الأفعال لأهل الأحوال والاتصال. ومنازل الابتداء لأهل الهواجس والإيماء. ومنازل التنزيه لأهل التوجيه في المناظرات والاستنباط. ومنازل التقريب للغرباء المتألهين. ومنازل التوقع لأصحاب البراقع من أجل السبحات. ومنازل البركات لأهل الحركات. ومنازل الأقسام لأهل التدبير من الروحانيين. ومنازل الدهر لأهل الذوق. ومنازل الإنية لأهل المشاهدة بالأبصار. ومنازل اللام والألف للالتفات الحاصل بالتخلق بالأخلاق الإلهية ولأهل السر الذي لا ينكشف. ومنازل التقرير لأهل العلم بالكيمياء الطبيعية والروحانية. ومنازل فناء الأكوان للضغائن المخدرات. ومنازل الألفة لأهل الأمان من أهل الغرف. ومنازل الوعيد للمتمسكين بقائمة العرش الأمجد. ومنازل الاستخبار لأهل غامضات الأسرار. ومنازل الأمر للمتحققين بحقائق سرهم فيهم»، السابق ص172.

(4) وهي: منازل الدلالات، منازل الحدود، منازل الخواص، منازل الأسرار. السابق ص173.

(5) وهي: الوحدانية، والعقل الأول، والعرش الأعظم، والقلوب والحجاب، والاستواء، والبرازخ الإلهية، والفقد والوجدان والقهر والخسف، والأرض الواسعة، والآيات الغربية، والاستعداد والزينة، والذكر والسلب، والدعاء، والابتداء، والأفعال، والتنزيه، والتقريب، والتوقع، والبركات، والأقسام والإيلاء، والإنية، والدهور، ولام ألف والتقرير، والمشاهدة، والألفة والتقرير، والاستخبار، والوعيد، والأمر. السابق ص173-180.

(6) «في معرفة جاءت عن العلوم الكونية وما تتضمنه من العجائب، ومن حصلها من العالم، ومراتب أقطابهم، وأسرار الاشتراك بين شريعتين والقلوب المتعشقة بعالم الأنفاس وبالأنفاس وأصلها وإلى كم تنتهي منازلها»، الفتوحات جـ1/ 182-185.

(7) وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد السابق ص184.

(8) «في معرفة وتد مخصوص معمر، وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم، وسر المنزل والمنازل ومن دخله من العالم»، السابق ص185-188.

(9) «في معرفة أقطاب الرموز وتلويحات من أسرارهم وعلومهم في الطريق»، السابق ص188-191.

مراتب[1] والعالم النوراني أعلى منزلة[2] العلم القليل لمن حصله من الصالحين[3] وهي علوم تستقل العلوم بإدراكها. ويتأرجح الموقف بين المعرفة والوجود، بين العلم والكون مثل «أنت معنى الكون». فالعلم قصد. والنظر اتجاه. والرؤية علاقة متبادلة بين الرائي والمرئي[4].

ولكل شيء ثمرة. وثمرة العلم والمعرفة التقرب إلى الله[5] وثمرة العلم الروحي هو التوجه إلى الخالق لا إلى المخلوق، إلى ما وراء الطبيعة وليس إلى الطبيعة بمصطلحات الفلاسفة[6] والله لا يُدرك مباشرة إلا من خلال الطبيعة والأدلة على وجوده. وهو علم ما لا يسع جهله من علم التوحيد.

والله لا يُري من وراء الأضداء رؤية واحدة[7] ومن عرف الله فلا عيش له إلا في معرفته. ومن رآه فلا قوة له إلا في رؤيته. إذا عرفه خف مكره. ولا يعرفه إلا المصطفون لعلمه[8] العلم علم الإيمان. وهو علم التوحيد كفرض[9] ولا يقال للعالم إنه لم يعلم ويفهم بالله لأن العالم لا يخرج بالله إلا بما فهم. فعلم الله علم عقلي وواقعي. ليس عصياً على الفهم أو التجربة. من طلب العلم لله أو للآخرة فهو على سبيل النجاة. فالعلم وسيلة للنجاة[10] وطلاب العلم ثلاثة: الأول أخذ الأصل والفرع من السر فهلك، والثاني أخذ الأصل والفرع من غيره فسلم. والثالث أخذ الأصل وثبت الفرع فصار عيشه متصلا مع الآخرة[11].

---

(1) «في معرفة أقطاب صل فقد نويت وصالك وهو من منزل العالم النوراني»، السابق ص191.

(2) «في معرفة علم منزل محاور لعلم جزئي من علوم الكون وترتيبه وغرائبه وأقطابه»، السابق ص233-237.

(3) «في معرفة العلم القليل ومن حصله من الصالحين»، السابق ص253-254.

(4) النفري: المواقف ص69-70.

(5) «الكل شيء ثمرة. وثمرة العلم والمعرفة التقرب إلى الله»، السابق ص169/ 181.

(6) «إن ثمرة العلم الروحي هو أن تصرف وجهك عن المخلوق كما توجهه إلى الخالق وحده لأن المعرفة هي معرفة الله»، رابعة ص151-152.

(7) النفري: المواقف، موقف الرفق ص103-104.

(8) السابق ص149.

(9) قوت القلوب جـ1/ 263-264.

(10) التستري ص343.

(11) السابق ص213.

ويتضمن علم العباد ثلاثة أمور: العلم بالجهل، والعلم بالوسوسة، والعلم بالنسيان. لذلك نشأ الاختلاف في العلم. وهو ليس ضد العلم. وليس بأمر إلهي[1] وطلب العلم يدعو إلى سماع الاختلاف وتمسك العالم بما له وتركه ما ليس له. وهو موقف مسبق. فالعالم ليس له شيء وليس ضد شيء بل يسمع ويحلل ويقارن ويفضل. وإذا جوز العلماء الاختلاف فإنهم علماء سوء. وهو مثل موقف إخوان الصفا من اختلافات المتكلمين. وينتهي العالم بفقد الورع والخشوع. وتزين له الدنيا فيرغب فيه وتغريه. ويطلبها سمعة ورياء دون رعاية لدين[2] إنما ينشأ الخلاف في العلم من درجة يقظة وعي العلماء. ليس هناك أفضل من الورع في العلم. والورع ترك ما لا بأس فيه إلى ما فيه بأس أي إنه معاناة ومقاومة.

وللعالم علامات مثل عدم الجزع من شدائد الدنيا، والصبر على مرارتها، وعدم الفرح برخائها ولا بغنائها أو الحزن على ما فات منها، وبنصح الخلق لوجه الله[3] العالم هو المقاوم الملتزم، النقي الطاهر. ليس صعباً على العلماء من التمييز بين المداراة والمداهنة وبين الظن واليقين. فالعلم يقوم على التمييز بين المختلطات، وأحكام المتشابهات بلغة الأصوليين. ولا يجوز تقليد العالم من سبقه من العلماء حتى يعلم حالهم من فعلهم هل يلزمه أم لا. فالعالم حالة شعورية ووضع اجتماعي. وكلاهما متغير[4] والعلماء نوعان: عالم يحمله علمه وهو معصوم، وعالم يحمله علمه، يبحث عن الحيل والرخص والمكر والخديعة[5] وإذا أخذ من كل عالم زلته فمتي يصل إلى الله؟ قد يكون للمشتغل بالعلم هفوات في الدنيا حتى يعود إلى العلم من جديد[6].

العالم لا يفرّط. فالعلم اعتدال، موقف والتزام[7] والعالم الذي يتكلم بين

(1) السابق ص190.
(2) «فأي عالم أفتاه بذلك، ورخص له واحتال له بحيله حتى يجوز له في وجه من الوجوه فهؤلاء وأشباههم هلاك الأولين والآخرين على أيديهم وهم علماء السوء»، السابق ص191.
(3) السابق ص187.
(4) السابق ص331.
(5) السابق ص279.
(6) السابق ص290.
(7) السابق ص351/ 203.

الخلق تكون الخلائق عنده سواء. ولا ينشغل بها وإلا مُحِيَ العلم من قلبه[1] هذا الحياد في العالم قد يفقد العالم حركته واتجاهه فيه. فهموم العلم تجمع بين هموم الدنيا وهموم الآخرة، هموم العلم والوطن. والعلم صمود ومقاومة[2] وسمي العالم عالماً لأن أفعاله كلها تنسب إلى الحول والقوة لا إلى التدبير. فالعالم صاحب علمه. وعلمه حال وقوة. وكل عالم آمر بالمعروف وناه عن المنكر. فعلمه متصل بالعرش[3] دور العالم إذن النقد الاجتماعي. العلم نقد وشك ومراجعة. ومن لا يرى الكل تلبيساً كان المكر منه قريباً[4].

2 ـ العلم والجهل

العلم ضد الجهل. ولا يزال العبد عالماً مادام جاهلاً. فإذا ظن أنه علم فقد جهل كما قال سقراط قديماً مما يبين توارد الخواطر بين الواصلين في مختلف الحضارات[5] ودعوى العلم جهل[6] وفاز العلماء بجهل الجهال ولم يعبأوا بجهلهم. وتعليم النفس سابق على تعليم الآخر. وفاقد الشيء لا يعطيه. والعلم يصرفه الجهل كما يصرف النهار الليل. الجهل حجاب والعلم كشف. وما اصطحب جاهلان وسلم بعضهما من بعض. ولا اصطحب عالم جاهلاً إلا سلم الجاهل بالعالم[7] العلم سلام، والجهل حرب. وعن طريق التصوير الفني العلم هو الجنة والجهل النار[8] وقد يصير العلم مشوباً بالنار عندما يتحول إلى جهل[9]

(1) السابق ص362.

(2) «يا عبد أنا الصمد. فلا تتحلل صفة العلم صفة الصمود»، النفري: المخاطبات ص167.

(3) التستري ص169-170.

(4) الحلاج: الولاية ص239.

(5) «لا يزال العبد عارفاً مادام جاهلاً فإذا زال عن جهله زالت معرفته»، شطحات ص152. «المعرفة في ذات الحق جهل. والعلم في حقيقة المعرفة حيرة، والإشارة من المشير سرك في الإشارة»، السابق ص126.

(6) أخبار الحلاج ص22، الولاية ص238.

(7) التستري ص369.

(8) «موقف الليل»، النفري: المواقف ص167-168.

(9) رابعة العدوية ص159.

ولا دليل أنجع من العلم[1] العلم دليل العلم. العلم حرز والجهل غرور[2] العلم تبصر واستبصار والجهل غرور وقطع. وخطأ العالم أضر من عمي الجاهل[3] فالعلم يتبعه الناس ويتحقق في العمل. ومن خاف دلالة علمه كثر جهله[4] العلم يورث اليقين، والثقة بالنفس. ويفوز العلماء بجهل الجاهل ولا يعاقبون. فالعلم جهد قدر الطاقة. يمنع الجهل بالله إيثار الله على النفس[5] وثلاثة أشياء تذهب بقلب العبد وعقله: الجهل، والمعصية، والنسوان[6] فالجهل في حد ذاته رذيلة بتعبير سقراط. والمعصية خرق للشريعة. والنسوان اتباع بلا حدود للشهوة. وفي مقابل ذلك ثلاثة أشياء مضادة تثبت قلب الإنسان: العلم والطاعة والذكر.

ومعنى تجويع النفس وتعريتها في الحديث الشهير هو التجرد من الجهل والتجلد في طلب العلم[7] الجاهل ميت، والناس نيام، والعاصي سكران، والمعسر هالك. فالعلم حياة، والحياة يقظة، والواجب وعي، والمراجع ناج. وإذا كان الموت بالأمس والنزع اليوم، وعدم الميلاد الغد فالهلاك في استرجاع الماضي وذكر الآتي. والنجاة في التنفس وهو العلم. الجهل موت[8] ويُرجى أن يمن الله عليهم. فالعلم فضل ومنة[9] والجهل هو الفقر الذي استعاذ منه النبي. الجهل فقر العقل[10].

وعلامة الجهل الغضب بلا سبب، والكلام غير النافع، والعطية في غير محلها، وإفشاء السر، والثقة بكل الناس، وعدم التمييز بين الصديق والعدو[11]

(1) رسالة المسترشدين ص161-162.
(2) طبقات الصوفية ص214-215.
(3) السابق ص214-215.
(4) السابق ص161.
(5) التستري ص86.
(6) السابق ص153-154.
(7) السابق ص201-202.
(8) السابق ص204.
(9) السابق ص251.
(10) السابق ص322.
(11) محمد بن الفضل البلخي، طبقات الصوفية ص215.

والمعرفة اعتراف بالجهل. وهو أيضاً ما نصت عليه آية ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] ومن أظهر محاسنه لمن لا يملك ضره ولا نفعه فقد أظهر جهله. فالجهل ليس فقط نقص المعرفة بل السلوك الجاهل[2] وهو مثل الأبله في دنياه الفقيه في دينه[3] ولا يضر الأحمق كثرة الالتفات وسرعة الجواب لأنه لا يقوم على علم[4].

والجهل مثل الموت عامان في الدنيا إلا العلم. والعلم حجة على الخلق حتى دون العمل به. والعمل هباء إلا الإخلاص فيه. ويكون صاحبه على حذر حتى الموت، ولا يعلمه إلا الله. الجهل موت في الدنيا، ونار في الآخرة. فالهوى والإرادة وسوء النية والشهوة طرق إلى النار. الشهوة ذهاب للعقل والعلم والبيان. ومما يذهب العقل والقلب الجهل والمعصية والنسيان. ويُرد العقل بالعلم والطاعة والذكر. الجاهل ميت، والعاصي جيفة، والمصر على المعصية دود. الخلق أحياء ثم ماتوا بجهلهم. والجهل طبع الإنسان لأن الإنسان على الطبيعة يعمل أكثر مما ينظر. والنسيان طبع الجدل لأن الجدل ليس علماً بل صراعاً وقتياً مع الخصوم ينتهي بانتهاء المعركة، والمعصية طبع النسيان لأن الفعل ابن وقته.

والطريق إلى الخلاص العلم بدل الجهل، والطاعة بدل المعصية، والذكر بدل النسيان. والذكر مع العمل يؤدي إلى التواصل، والذكر مع الطاعة يؤدي إلى الشكر، والشكر يؤدي إلى المزيد من الشكر. والجهل يتضمن ثلاثة أمور: أعمال البر بالمخالفة، والإصرار على شيء متشابه، وأمل شيء لا وسع فيه. والجاهل يؤدي إلى الجاهل إلى الهلاك كما قال المسيح «الأعمي لا يقود أعمي»[5].

الجهل أن يكون الإنسان أمام نفسه دون اقتداء بإمام[6] وهو ما يجعل العلم مرتبطا بشيخ وكأن النفس لا تعرف بنفسها شيئاً كما قال سقراط «اعرف نفسك

(1) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق ص428.
(2) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، السابق ص457.
(3) أبو عثمان المغربي، السابق ص481.
(4) علي بن سهل الأصبهاني، السابق ص235.
(5) التستري ص222-223.
(6) السابق ص223-252.

بنفسك». الجهل هو الدنيا. والغاية النفس. وغاية النفس البعد. ومن ارتبط العلم بالآخرة، والغاية أبعد من النفس، القرب. الجهل أساس الكفر. وهو أول ابتلاء للإنسان. فالإيمان علم. وعقاب الجهل ظلمة الهواء وهو التحير، وظلمة السماء وهو ترك الاقتداء، وسخط الرب وهو التحير في الاقتداء. وكمال العبد سكونه إلى جهله. وعلى قدر السكون لا يحجب عن الله. فهل السكون أولى من الحركة، والجهل أولى من العلم كطريق إلى المعرفة الكشفية؟

الجهل نسيان وبالتالي المعرفة تذكر[1] ولا يكون الخطأ والنسيان إلا من المتقين. مع أن الخطأ والنسيان بشريان، وأعم من النواهي والأوامر[2] خلق الله الأجساد جاهلة ناسية. وقد لا يتلاقيان حتى تكون الأرواح واحدة والدين والسر واحد والزهد والورع واحد[3] الجسم سبب الكثرة والروح سبب الوحدة.

3 ـ العلم واليقين

ولا يوجد لفظ «العلم» ضمن ألفاظ الصوفية كلفظ مفرد قبل الحديث عن علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين[4] ولا يحدد العلم باليقين بل يحدد اليقين بالعلم. فالعلم لا يكون إلا يقيناً. واليقين هو ما لا يدخل الشك فيه. وهو ضد المكر والاستدراج. ولا يطلق على الله لأنه ليس اسماً توقيفياً مع أن الله هو الحق، والحق مقولة معرفية. ويمكن للأسماء أن تكون اصطلاحاً واشتقاقاً مثل «المؤمن» و«المطْعِم» في ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾. وعلم المعرفة واليقين له فضله على سائر العلوم[5] فليس العلم بكثرة الرواية ولكن بالخشية. وحظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا. وحظهم من الرضا على قدر عيشهم منه. علم الإيمان والتوحيد وعلم المعرفة واليقين مع كل قوة من موقن حسن الإسلام. مقامه وحاله وقربه مع الله. العلم والإيمان قرينان لا

(1) السابق ص294.
(2) السابق ص215-216.
(3) وهو ما قاله أفلاطون من قبل.
(4) الرسالة ص44.
(5) «فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم، وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة»، قوت القلوب جـ1/ 267-277.

يفترقان. واليقين ثمرة التوحيد. فمن صفا في التوحيد صفا في اليقين[1] اليقين عبد المولى والمولى عالم بحاله. وأدنى يقين ثقة العبد بالله.

اليقين نور في القلب تُشاهد به أمور الآخرة، ويخرق بقوته كل حجاب للمشاهدة[2] هو حدس داخلي يساعد الحواس الخارجية على الإدراك. اليقين نور يستضيء به العبد في أحوال فيوصله إلى درجات المتقين[3] والحضور أفضل من اليقين لأن الحضور وطنات واليقين خطرات. الحضور كشف ومواجهة للحقيقة واليقين صدقها. الحضور عين اليقين، واليقين حق اليقين[4] اليقين هو المشاهدة أي الجمع بين العلم والتحقق[5] هو مشاهدة الإيمان بالغيب[6] ويشمل علم الحال. وهو أعلى من علم المقام.

اليقين النظر بعين القلب إلى ما عند الله مما وعده وادخره[7] هو تحقق الأسرار بأحكام المغيبات وكأنه يوجد يقين ذاتي بلا أسرار أو مغيبات. وأنفع اليقين ما عظم الحق في العينين وصغر ما دونه[8] اليقين ترك الشكوى عندما يضاد المراد مع أنه إذا بطلت الشكوى توقف البحث عن اليقين[9] فالشكوى أشبه بالشك الذي يؤدي إلى اليقين عند القدماء والمحدثين. وإذا كان المراد لم يتحقق فلماذا ترك الشكوى وعدم الاعتراض؟[10] وإذا كان الطريق واضحاً والحق لائحاً والداعي مسموعاً فلِمَ الحيرة والعمى؟ وهل في الدنيا وضوح بهذا المعنى؟ أليست الحيرة والتردد والشك طريقا إلى اليقين كما عبر عن ذلك الفلاسفة؟[11].

---

(1) طبقات الصوفية ص300.
(2) أحمد بن عاصم الأنطاكي، السابق ص139.
(3) يوسف بن الحسين الرازي، السابق ص188.
(4) علي بن سهل الأصبهاني، السابق ص234.
(5) رويم بن أحمد البغدادي، السابق ص183.
(6) السابق ص380.
(7) أبو بكر بن يزدانيار، السابق ص409.
(8) أبو علي الرذباري، السابق ص359.
(9) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق ص429.
(10) أبو عبد الله محمد بن خفيف، السابق ص465.
(11) أحمد بن خضرويه، طبقات الصوفية ص105.

الظن واليقين نقيضان مثل الكلام والصدق، والعبادة بالجوارح والورع[1] فلا يترك اليقين للظن[2] ومن ظن حُرم اليقين في حين أن الظن أي الشك طريق اليقين[3]. واليقين لا يأتي إلا بعد الظن. ويستطيع العالم الفقيه التمييز بين الظن واليقين[4] وهي تجربة الشك والإيمان ولكنها إلى الإيمان أقرب مثل عمر الخيام. غيب الحديث خاف. والرمز متخاف. والثقة في التصريح. فغاية الإيمان اليقين. وغاية اليقين ما يجده الإنسان في قلبه ويمسه بروحه. ويهيم عليه بفؤاده. وتسلو به نفسه[5]والظن من النفوس الكاذبة والأماني الخاتلة والوساوس الحاجبة لأنهم شاهدوا النفوس من الحظوظ[6] والظن مثل الوهم لا يقود إلى المعرفة[7] ويعتذر الصوفي عن جهله وشكه وظنه[8] وحسن الظن هو تنزيه المولي عن الهَم[9] وموقف الرفق هو موقف اليقين النظري وليس حسن المعاملة في السلوك وهو حسن الظن. اليقين يحمي من الاضطراب، ويهدي إلى الحق. في حين أن حسن الظن يؤدي إلى التصديق[10].

والوقوف على حق اليقين وهو القرآن، ثم إعطاء علم اليقين ثم مشاهدة عين اليقين يؤدي إلى سلامة الصدر. وعلامة ذلك الرضا بالقضاء والقدر والهيبة والمحبة، والحفظ والوكالة من غير تهمة اعتراض وكأن الاعتراض تهمة[11].

---

(1) التستري ص140.

(2) طبقات الصوفية ص188.

(3) التستري ص210.

(4) التستري ص83.

(5) «غيب هذا الحديث خاف. والرمز عنده متخاف. وإنما ندندن حول هذه المغافي... فثق بهذا الذي كتبنا عند ثقة توخي على ما صرحنا به. فإن غاية الإيمان اليقين. وغاية اليقين ما تحمده بقلبك وتمسه بروحك، وتهيمن عليه بفؤادك، وتسلو به نفسك وحسك»، الإشارات ص332.

(6) ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ﴾، التفسير ص153.

(7) بالظن والوهم نحو الحق مطلبهم نحو الهواء يناجون السماوات
الحلاج: الديوان ص295.

(8) إن اعتذاري إليك جهل وعظم شك وفرط عيّ
السابق ص335.

(9) التستري ص210.

(10) النفري: المواقف، موقف الرفق ص103-104.

(11) اللمع ص797.

وهو لفظ قرآني[1] له ثلاث معاني: علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين. والكشف لا يزيد من علم اليقين. وباستكمال حق اليقين يصير البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. واليقين هو المكاشفة. وهي على ثلاثة أوجه: مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيامة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد، ومكاشفة الآيات بإظهار قدرة الأنبياء بالمعجزات وللأولياء بالكرامات.

واليقين حال رفيع. وأصله على ثلاثة أحوال:

الأول للأصاغر وهم المريدون من العام. ولهم أول مراتب اليقين، الثقة بما في يد الله واليأس مما في يد الخلق. هو ارتفاع الشك. وإذا وجد العبد الرضا بما قسمه الله تكامل اليقين. هو تحقيق القلب بالمعنى الذي هو به.

والثاني للأواسط وهم الخصوص وهو زوال المعارضات على دوام الأوقات. وإذا تحقق العبد باليقين ترحّل من يقين إلى يقين حتى يصير اليقين له وطناً. واليقين هو المشاهدة.

والثالث للأكابر وهم خصوص الخصوص وهو تحقيق الإثبات لله بكل صفاته. وهو دوام انتصاب القلوب لله بما أورده عليها من اليقين وإلإلهام. ولا يحدث إلا بعد قطع كل العلاقات والأسباب. وهو أخر الأحوال وأصلها وباطنها. نهايته التصديق بالغيب وإزالة كل شك وريب، والاستبشار وحلاوة المناجاة، وصفاء النظر ومشاهدة القلوب بحقائق اليقين، وإزالة العلل. اليقين بالمعنى يؤدي إلى مشاهدة الأحوال. وإذا انكشفت حقائق المعنى خرج من أشجان الخلق، وخاطب بالتقريب، وهو الكشف عن الصدّيقية.

وصحة اليقين أول شعب الإخلاص وله ثلاث علامات: سكون القلب إلى الثقة بالله، والانقياد لأمر الله، والإشفاق والوجل من سابق العلم[2] ولليقين أول وآخر. أوله الطمأنينة، وآخره إفراد الله بالكفاية.

لذلك اليقين على ثلاث درجات من أدناها إلى أعلاها، من علم اليقين إلى

(1) السابق ص 102-104.

(2) السابق ص175-176.

عين اليقين إلى حق اليقين[1] علم اليقين يقوم على البرهان مثل العلوم العقلية أو النظرية: الكلام والفلسفة والأصول. وعين اليقين يقوم على البيان والقدرة على التعبير مثل فنون الأدب ومنها التجارب الشعرية. وحق اليقين يقوم على العيان والمشاهدة والحضور والرؤية المباشرة مثل علوم التصوف. علم اليقين لأصحاب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف.

اليقين على ثلاثة مقامات: الأول المعاينة المطابقة للخبر وهو مقام الصدّيقين والمقربين والشهداء. والثاني التصديق والاستسلام المطابق للخبر أيضاً وهو مقام المؤمنين. يضعف ويقوى مثل الإيمان. يزيد وينقص طبقاً للأسباب والعادة والحجب والمكاشفة، والوسائط والمباشرة. يأنسون بالخلق. ويتلونون بالخلاف. وهو لعموم المؤمنين، لأصحاب اليمين. والثالث يقين ظن يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء. يقوى ويضعف بالأدلة. وهو يقين المتكلمين وأهل الرأي وعلوم العقل والقياس والنظر. هو علم التوحيد والمعرفة على قدر اليقين، واليقين على قدر الصفاء والإيمان، والصفاء والإيمان على قدر المعاملة والرعاية. والظل الذي توارى إليه موسى هو ما خصه الله به من علم اليقين[2] علم اليقين ما يأتي بالدليل. وعين اليقين علم لا نزاع ولا اضطراب فيه. وحق اليقين لا حركة ولا سكون فيها[3] علم اليقين يدل على الأفعال. فإذا فعلها وأخلص فيها وظهرت له البيّنات صار حق اليقين[4].

---

(1) الرسالة ص44.

(2) ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾، الحلاج: التفسير ص137.

(3) ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، السابق ص56.

(4) طبقات الصوفية ص483.

العلم بالله ديني إذ أدين به ... والجهل بالعين إيماني وتوحيدي
في كل مجلى أراه حين أشهده ... ما بين صورة تنزيه وتحديد

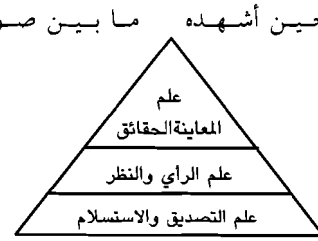

الفتوحات جـ1/ 751.

4 ـ الإدراك والفراسة

و«الفراسة» من أكبر موضوعات المعرفة الصوفية[1] وهي مذكورة في القرآن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. والتوسم هو الفراسة. وكذلك حديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». فهي خصوصية أهل الإيمان. ولا يُكتفي بإعطاء تعريفات للفراسة بل تروي حكايات عنها. المتوسم هو العارف ما في بواطن القلوب بالاستدلال بالعلامات وهي دعوة ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي علماء حكماء ومتخلقين بأخلاق الحق[2] ولا يصح الإدراك الحسي إلا برؤية الاتجاهات الستة[3] فهو إدراك للشيء في المكان، إدراك خارجي. وهو محدود بالرؤية والمنظور والحس بداية العلم التجريبي. موقف الإدراك هو رؤية العلم وطريقه. فالعلم طرقات تؤدي إلى حقائق العلم. حقائق العلم غرائمه، وغرائمه مبلغه، ومبلغه مطلعه، ومطلعه حده، وحده موقفه[4] والعلم بالسمع والرؤية والصحبة. والحس من صفة النفس. ولا يدرك فقد المحسوس الناعس حتى عند غلبة الوجد[5] أما الفراسة فهي أيضاً إدراك حسي لما وراء الحس. هو خاطر يهجم على القلب فينفي ما يضاده ويستولي عليه. وتكون حسب قوة الإيمان. هو نور الحق دون سهو أو غفلة[6] هو حكم الحق على لسان الإنسان. هي سواطع أنوار تلمع في القلب وتمكن من معرفة سرائر الغيوب لمشاهدتها والتعبير عنها بضمير الحق[7] وهي أقرب إلى الكرامة النظرية في مقابل الكرامة العملية. الفراسة مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب، ومن مقامات الإيمان. هي رؤية الغيب دون خفاء شيء منه[8] وهو ما سماه القرآن الاستنباط ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾. هي روح تنقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب فتنطق عن أسرار الخلق عن مشاهدة ومعاينة

(1) الرسالة ص105-110، اللمع ص198.
(2) السابق ص106.
(3) التستري ص153.
(4) النفري: المواقف، موقف الإدراك ص203-205.
(5) اللمع ص424.
(6) الرسالة ص105.
(7) السابق ص105.
(8) السابق ص106.

وليس عن ظن وحسبان. الفراسة ظن وفق الصواب. يخطئ ويصيب. فإذا تحقق في الفراسة تحقق في حكمها لأنها تحكم بنور الله لا بالنفس[1] وإذا استولى الحق على سر ملكه الإنسان فيعاينه ويخبر عنه. الفراسة نظر أحد في عين آخر. وهي معرفة حقيقة. هي القدرة على معرفة الأسرار إذا تملكت أحداً[2] وصاحب الفراسة يصيب في نظرته في أول مقصد ولا يعتمد على تأويل أو ظن أو حسبان كما هو الحال عند المنجمين. المتفرس هو المصيب بأول مرماه[3] هي خاطر بلا معارض وإلا تحول إلى خاطر وحديث نفسي[4] ليست ادعاء للذات ولكن اتقاء لفراسة الغير. تحيي الموتى، وتوقظ الضمير. وهو معنى آية ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[5].

والأخلاق شرط الفراسة مثل غض البصر عن المحارم، وإمساك النفس عن الشهوات وتعمير الباطن بدوام المراقبة والظاهر باتباع السنة وتعود على الحلال. وهو معنى آية ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[6] الفراسة تأدب بأدب الله. وأدب الله تحمل الكل، الصغير والكبير. وهذا يتم لسعة عليه ومراجعة الكلام على الكتاب والسنة. ولا تصح لمدع[7] وصفة أهل الله المعرفة والعلم والسماع والذكر والنظر والكلام وكلها مظاهر للحياة. فالفراسة عكس الادعاء كما أن الصدق عكس الكذب. في حين أن الفراسة في علم النفس هي القدرة على معرفة الظواهر اللامرئية من القرائن الحسية.

5 ـ المعرفة الكشفية.

وإذا كان العلم خيراً من المال وكان يحرس العالم فإن العالم يحرس المال. فإنه أيضاً نور يقذفه الله تعالى في القلب. وهو المعرفة الكشفية. وإذا كان العلم

(1) طبقات الصوفية ص174.
(2) الحلاج: الولاية ص242.
(3) الرسالة ص107.
(4) أبو جعفر الحداد، السابق ص107.
(5) أبو حفص النيسابوري، السابق ص107.
(6) أبو الحسن النوري، الرسالة ص106-107.
(7) التستري ص153/ 218/ 338.

استبياناً للمشكلات في الدين فإن المعرفة بيان شبهات حاكت في الصدور. العلم عقلي والمعرفة قلبية[1] والعارف بحاله أفضل من العالم بحاله. فالعلم عقلي والمعرفة شعورية. والمعرفة التي لا يعترف بها أحد مخيفة. وإنكار المعرفة التي لا يعمل بها المفكر أيضاً مخيفة. والإنكار صفة المعرفة وحليفتها. الجهل صورتها. وغيابها عن الأفهام آيتها.

والمعرفة تناقض بين الذات والموضوع. إذ كيف تعرف الذات موضوع المعرفة بلا أين ولا متي، بلا مكان ولا زمان ولا جهة ولا بداية ولا نهاية؟ هل بين الذات والموضوع اتصال أم انفصال؟ لا تصح المعرفة إلا لمحدود ومعدود ومجهود ومكدود[2] المعرفة للما وراء، لما وراء الوراء، وما وراء المدي، وما وراء الهمة، وما وراء الأسرار، وما وراء الأخبار، وما وراء الإدراك[3] وهناك ادعاءات عدة لإمكانية المعرفة تستلزم المعرفة الكشفية وتبررها. ويسوقها ابن تيمية لنقد المنطق الأرسطي ولتبرير الوحي وهي: أولاً، إمكانية المعرفة بالفقد والوجد. وهما حالتان نفسيان من الأحوال. فكيف يعرف المفقود الموجود؟ وكيف يعرف الحادث القديم؟ ثانياً، إمكانية المعرفة بعد الجهل. والجهل حجاب، والمعرفة كشف حجاب. ثالثاً، إمكانية المعرفة بالاسم لأن الاسم لا يفارق المسمى. فهل يمكن الوصول من الاسم إلى المسمى، ومن اللغة إلى الوجود، ومن الصوت أو الحرف إلى الشيء والعالم؟ رابعاً، إمكانية المعرفة بالمعروف نفسه، وهو تحصيل حاصل. فكيف يمكن المعرفة بالمعروف وهو غير معروف بعد؟ خامساً، إمكانية المعرفة والاستدلال عليه بالخلق والصنع كما قال المتكلمون والحكماء. وهو اكتفاء بالصنعة دون الصانع. وكيف يدل الأقل على الأكثر، والكم على الكيف، والمرئي على اللامرئي؟ سادساً، ويمكن معرفته بالعجز عن معرفته كما قيل «العجز عن إدراك الإدراك إدراك». وكيف يدرك العاجز وهو منقطع عن المعروف ولا اتصال بين العارف والمعروف؟ سابعاً، ويمكن معرفته على التبادل. فالمعرفة قصد متبادل بين الذات العارف وموضوع المعرفة. «كما عرفني عرفته». وإذا كان

(1) وهو ما يسمى في نظرية المعرفة في الغرب ما وراء المنطق Meta-logic أو ما وراء العلم Meta-science. بستان المعرفة، أعمال ص213.

(2) قوت القلوب جـ1/ 297.

(3) انظر أيضا: التراث والتجديد، ص126-137.

المعلوم مفارقاً للذات فكيف يعرف؟ ثامناً، يمكن معرفته كما وصف نفسه. وهو اقتناع بالخبر دون الأثر، وبالرواية دون الدراسة. وهو إقرار باستحالة المعرفة لأن المعروف هو الذي عرّف نفسه بنفسه. تاسعاً، يمكن معرفته بالحد المنطقي، الجنس والفصل. والمعرف لا يُحد ولا يتحيز ولا يتبعض، لا جنس ولا فصل له[1] عاشراً، ولا يمكن معرفته على الحقيقة لأن وجود العارف أقل من وجود المعروف وهو ادعاء[2].

والمعرفة ليست فقط تصوراً بل تصديقاً. ولا يعني التصديق الحكم بل إيجاد البرهان اليقيني على صدق المعرفة. الخلق كلهم يدعون المعرفة دون صدقها على عكس الأنبياء والأولياء[3] وصدق المعرفة هو علم العلم. ولا يُعرف الشيء إلا بضده. فلا يُعرف الإخلاص إلا بالرياء[4] وإذا عرف العبد العدو عرف ربه. فالمعرفة بالضد، ومعرفة الشيطان شرط لمعرفة الله. ومعرفة الشر مقدمة لمعرفة الخير[5].

والمعرفة فكر أي إنها معرفة حياة. وشجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة[6] ولا حياة إلا لأهل المعرفة وهم الخلق. وهم متحركون في أسبابهم. يربون على الأرض. فالحياة حركة. والمعرفة حركة «صوفية»[7] والعارفون بين ذائق وشائق وواموق. فالمنة شاقتهم. والشوق ذوّقهم. من ذاق في شوق فردي سكن وتمكن. ومن ذاق من غير ريٍّ أورث الانزعاج والهيمان[8] والعطش على درجات: عطش البراري، وعطش شط النيل. فالعارف لا يرتوي[9].

حقيقة المعرفة الخروج من المعارف، قراءة ما بين السطور، استنباط العلم

(1) الحلاج: بستان المعرفة، أعمال ص213-214.
(2) السابق ص225.
(3) أبو محمد عبد الله الرازي: طبقات الصوفية ص452-453.
(4) أبو عثمان المغربي، السابق ص480.
(5) التستري ص261.
(6) طبقات الصوفية ص241.
(7) السابق ص449-450.
(8) السابق ص430، التستري ص286.
(9) طبقات الصوفية ص389.

من المعلومات، ألا يخطر بالقلب ما دونه. المعرفة هي المعرفة الجوهرية[1]. تحدث المعرفة إذا بدا الشاهد، وفنت الشواهد، وذهبت الحواس، واضمحل الإحساس. فالمعرفة هي المعرفة الباطنية. البداية المعرفة، والنهاية التوحيد. وقد سمي الشاهد شاهداً لأن الشاهد الحق شاهد في الضمير، مطلع على الأسرار، وشاهد لجماله في خلقه وعباده. ويشهد الصوفي بقطع منزل المريدين وهموم العارفين.

المعرفة إحضار السر بصنوف الفكر في مراعاة مواجيد الأذكار على حسب توالي إعلام الكشوف. فالمعرفة شعورية وهي معرفة الحال في الوقت[2] هي رؤية الأشياء، واستهلاك الكل في الأجزاء. فالمعرفة طبيعية ورؤية الكل في الأجزاء وليست معرفة صورية نظرية مجردة. المعرفة وصفية. من عرف ما وصفه وصف ما عرفه. ثم تسلب المعرفة لذة المعرفة لأنها تصبح هما[3].

ولا تتم المعرفة مع الشهوة. ولا يعرف نفسه من تصحبه شهوته[4] لذلك الزهد شرط. هم العارف ما يأمل، وهم الزاهد ما يأكل. هم العارف ما يأكل. وهم الزاهد ألا يأكل[5] العارف صافي الباطن مختلط الظاهر في حين أن الزاهد صافي الظاهر مختلط الباطن. فالعارف أعلى من الزاهد. العارفون غرباء في الآخرة، والزاهدون غرباء في الدنيا[6] ومن عرف الله فإنه يزهد في كل شيء يشغله عنه. والمحبة طريقها. وأمل العارف في الدنيا الإيمان وفي الآخرة العفو. وأمل الزاهد في الدنيا الآيات، وفي الآخرة الكرامات. العلم يورث المخافة، والمعرفة تورث الإنابة، والزهد يورث الراحة[7] حقيقة المعرفة محبة لله بالقلب، وذكره باللسان، وقطع الهمة من كل شيء سواه. وهذا تعريف للمعرفة بالمعروف

(1) السابق ص444.
(2) التستري ص294.
(3) الولاية ص245-246.
(4) البسطامي، طبقات الصوفية ص70/ 72/ 74.
(5) «طوبى لمن كان همه واحداً، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه. فمن عرف الله فإنه يزهد في كل شيء شغله عنه»، شطحات الصوفية ص175.
(6) يحيى بن معاذ، السابق ص112.
(7) طبقات الصوفية ص51/ 53. اللمع ص301.

وليس تعريف المعرفة في ذاتها. ومن علامة المعرفة المحبة لأن من عرف أحب ومن أحب عرف[1] شرط المعرفة استحضار الله في القلب من أجل يقظة الضمير واستيعاب الكل.

تتم المعرفة بتضييع ما للعارف والوقوف مع ما لله. ولماذا لا تكون المعرفة من ذاتها وليس من خارجها، بالوقوف مع الذات وليس ضدها؟ وعلامة العارف ألا يفتر عن ذكر الله، ولا يمل من أداء حقه، ولا يستأنس بغيره. ويُعرف الله بالله، ويعرف ما دون الله بنور الله[2] فما دور المعرفة المستقلة إذن؟ المعرفة في ذات الحق جهل، والعلم في حقيقة المعرفة حيرة، والإشارة شرك في الإشارة. وأبعد الخلق من الله أكثرهم إشارة إليه. فذات الله خارج المعرفة. ومعرفة المعرفة حيرة. والله ليس في مكان حتى يشار إليه. ومن ثم يستحيل معرفة الله أو العلم به أو الإشارة إليه. والمعرفة في ذات الحق جهل خوفاً من الوقوع في التشبيه. والعلم في حقيقته. المعرفة جناية لوجود الظاهر والباطن. والإشارة من المشير شرك لأنه يتضمن الاثنينية[3] من التمس الحق بنور الإيمان كمن يطلب الشمس بنور الكواكب. فالحق أسطع من الإيمان به[4] ليس على العارف أشد من الحجاب عن الله ولو طرفة عين. فالمعرفة مشاهدة وكشف. المعرفة تهتك الحجب بين الإنسان والله والدنيا هي التي تحجب. العلم كشف والدنيا حجاب. المعرفة سراج والعقل فتيل. والعلم نار والمزيد زيت. وعلى قدر الزيادة تكون النار. وهو التشبيه القرآني، السراج المضيء الذي لم تمسسه نار. تتولد الشكوى وضيق الصدر من قلة المعرفة بالله. ومن أراد أن يعرف حل محلَّ نفسه ومتابعتها للحق أو مخالفتها له فلينظر مما يماليه في مراد له. فإن كان مثله فإنه متابع للحق. وهي التجربة المشتركة بين الذوات. وما يحبب الخلوة للعارفين ويحميهم من الغفلة وثبة الأكياس عن فخ الدنيا. مع أن العلم يأتي من التجارب الحية في الحياة اليومية.

والدعاء الأثير بصفاء المعرفة وتصحيح المعاملة على السنة بين الإنسان والله

(1) اللمع ص57.
(2) أحمد بن حضرويه، السابق ص105.
(3) شطحات الصوفية ص170.
(4) السابق ص59-60، الولاية ص236.

وصدق التوكل عليه، وحسن الظن به، ومن كل من يقرب إليه من العوافي في الدارين. والمعرفة في الدنيا مع اليقين والتوكل. المعرفة نور واليقين هداية، والتوكل سر أطلع الله الأنبياء والصديقين على اليسير منه. والمعرفة تؤدي إلى المحبة بالضرورة. فالأخلاق شرط المعرفة وسابقة عليها. الأخلاق مقدمة والمعرفة نتيجة. العارف لا يكدره شيء، ويصفو له كل شيء[1] والمعرفة نتيجة صفاء القلب. لا يفرح بشيء، ولا يخاف من شيء. وعلامة العارف أن يكون طعامه واحد، وبيته حيثما أدرك، وشغله بربه[2] شرط المعرفة النفس العارية والبطن الجائع[3] وأيضا عدم الفتور عن ذكره ولا الملل من حقه ولا الاستئناس بغيره. وأدنى ما يجب على العارف أن يهب له ما قد ملكه[4] وثواب العارف من ربه هو[5].

والمعصومون يعيشون في رحمة العلم، والمطيعون في رحمة القرب. فالعلم عصمة، والقرب طاعة. والعصمة والطاعة ليستا صفتين بشريتين. العلم خطأ وصواب، والطاعة يتجاذبها الهوى. ومن عرف الله نال معرفته. ومن نال معرفة جوز أمره على كل شيء دونه. فالمعرفة عمل. وكل شيء جائز دون الله. ومعرفة قيام الله تذهب النوم. فالعمل سابق للمعرفة وتال لها في آن واحد[6] وعند أهل المعرفة للدين رأسمال: خمسة في الظاهر وهي: صدق اللسان، وسخاوة الملك، وتواضع الأبدان، وكف الأذى واحتماله. وخمسة في الباطن: حب وجود السيد، وخوف الفراق، ورجاء الوصول، والندم على ما فعله، والحياء من الرب[7] لا فرق إذن بين الأخلاق والمعرفة. الأخلاق مقدمة للمعرفة ونتيجة لها في آن واحد.

ولا تأتي المعرفة من الدنيا بدائها ودوائها ولا يُرجع إليها[8] إنما العبادة تؤدي

(1) شطحات ص118. «من عرف الله فإنه يزهد في كل ما يشغله»، السابق ص226، اللمع ص56-58.
(2) السابق ص165/ 170. «رب أفهمني عنك فإني لا أفهم عنك إلا بك»، السابق ص172.
(3) شطحات الصوفية ص144/ 153/ 210.
(4) السابق ص165.
(5) السابق ص165. «ثواب العارف من ربه وكمال العارف احتراقه فيه»، السابق ص172.
(6) التستري ص261-262، «محال أن تعرفه ثم لا تحبه»، شطحات الصوفية ص156.
(7) عوارف العارف جـ3/ 8-9.
(8) التستري ص256.

إلى معرفة الله والجهل بالله يمنع من معرفته. العبادة شرط المعرفة، والمعرفة شرط العبادة. وثلاثة أشياء تستحكم بها مقام العبودية لله: الفهم والزهد والفراسة. وهي العلم والطاعة والإخلاص. وضدها الجهل والمعصية والرياء[1] وهناك فرق بين العابد والعارف. العابد يعبد بالحال، والعارف يعبده في الحال. فحال العابد خارجي مثل أوقات الشعائر في حين أن حال العارف داخلي، حال النفس[2] العبادة ظاهر، والمعرفة باطن.

والعارف كل يوم أخشع لأنه كل ساعة أقرب. وشرط القرب عدم الانشغال عن الله حتى بحلاوة القرب[3] العارف لا يلزم حالة واحدة. إنما يلزم ربه في الحالات كلها. وما يرفع العبد العلم والأدب والأمانة والعفة. فالعلم هو العلم الأخلاقي[4] والأخلاق شرط المعرفة. والاستقامة ركيزة الأخلاق وأحسن معرفة هي أحسن أخلاق. ومن علامة المعرفة بالله القيام بحقوقه وإيثاره على النفس فيما دخل تحت القدرة. فالمعرفة حقوق، ليس فقط حقوق الله بل أيضاً حقوق الإنسان[5] ولا توجد درجة أعلى من العارف إلا وجود المعروف. فهو قادر على معرفة كل شيء. وقد تختلف المعارف إلا في تجريد التوحيد. وأدنى واجب للعارف أن يهب للمعروف ما قد ملّكه[6] وليس للعارف نعمة لأنه في كل نعمة[7].

وإذا عرف الإنسان نفسه عرف ربه، فالله حال في النفس ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾. وإذا عرف الإنسان عقله، عرف ما بينه وبين الله. فالله قصد للعقل. وإذا عرف العلم عرف كيفية الوصول إلى الرب، فالعلم طريق إلى الله. عظمة أهل المعرفة بالله النظر في عظمته وملكه وطلب مرضاته أو في زاده أو في انتظار القدوم إليه. فالمعرفة به وبرضاه وبرزقه مع الانتظار للذهاب إليه. دور الإنسان إذن

---

(1) السابق ص68.

(2) شطحات الصوفية ص102/ 106/ 144. «اطّلع الله على قلوب أوليائه. فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً فشغلهم بالعبادة»، السابق ص172/ 207.

(3) شطحات الصوفية ص135.

(4) ذو النون، طبقات الصوفية ص26.

(5) اللمع ص301.

(6) طبقات الصوفية ص69.

(7) السابق ص90.

سلبي خالص. والعالم غائب عنه. والفعل لا وجود له. ومعرفة الله إحدى ضرورات ثلاث مع ضرورة الخلق وضرورة الحال أي الافتقار إليه. وهي ضرورات خارج حرية الإنسان. والأصل في المعرفة معرفة الربوبية ثم القول ثم العلم ثم اليقين ثم اليمين ثم الإيمان ثم الإسلام ثم الشهادة ثم الحكم والحاكم هو الله. فالله بداية المعرفة ونهايتها[1].

والمعرفة على ثلاثة أنواع: معرفة إقرار، ومعرفة حقيقة، ومعرفة مشاهدة. ينتج عنها أشكال التعبير بالعبارة والكلام والإشارة[2] ومعرفة الرسول درجة من درجاتها، ولو اقترب منها الصوفي لاحترق. وهي بداية ظهور الحقيقة المحمدية[3] والمعرفة على ثلاث درجات: طلب الله من الغفلة، والهرب من الله للعجز عنه، والوقف دون طلب أو هرب[4] المعرفة مطالعة القلوب لإفراده على لطائف تعريفه[5] من عرف الله ذهب من قلبه النوم. فالمعرفة يقظة دائمة. ولا يعرف إلا إذا كانت هيبته في القلب. ولا يذكر إلا إذا شعر بالطامة[6] والقلب المتخلي عن سوى الله يرى الغيب والأسرار. ليس للعارف حاجة ولا اختيار فقيامه بموجده[7].

ومقتضي العقل أن يعلم العارف أن الله غني عن عمله[8] وأكمل العقلاء من يقر بالعجز عن معرفته. فكيف إذن حضوره في كل شيء وهو مجهول؟[9] ويعرف الرب بذكره وقول لا إله إلا الله مع الثبات[10] وقد يكون العالم محجوباً من الله إن

(1) السابق ص201.
(2) اللمع ص64.
(3) «غصت في بحر المعارف حتى بلغت بحر محمد... فرأيت بيني وبينه ألف مقام. واقتربت من واحد فاحترقت»، شطحات الصوفية ص86/ 152.
(4) «أهل المعرفة مع الله على ثلاثة مقامات: فقوم طلبوا الله من حيث الغفلة عنه. وقوم هربوا من الله من حيث العجز عنه. وقوم أوقفهم فيما لا طلب معه ولا هرب لهم عنه»، السابق ص134-135/ 137/ 102-103.
(5) هذا هو رأي الجنيد، اللمع ص57.
(6) السابق ص61.
(7) السابق ص61.
(8) السابق ص135.
(9) طبقات الصوفية ص58/ 60.
(10) السابق ص145.

لم يعلم أن ما لديه من العلم هو مجرد سطر من اللوح المحفوظ[1] والعارف لا يسأل. ومن لا يعرف لا يعرف قول العارف[2] فالمعرفة شرط المعرفة، المعرفة الأولية شرط المعرفة الثانية، المعرفة البديهية أو الحدسية شرط المعرفة الإلهية. ولا يزال العارف يعرف، والمعارف تعرف حتى يهلك العارف في المعارف فيتكلم عن العارف ويبقي بلا معارف[3] ولو أن مئات الألوف من الملائكة بقدر جبريل وميكائيل وإسرافيل في قلب العارف ما أحس بهم العارف. وإن أحس بهم فليس بعارف لأن المعرفة لاشعورية[4] إذا رأى أحد العارف هابه، وإذا فارقه هابه. وإذا رأى الصادق الزاهد هابه. وإذا فارقه هان عليه أمره[5].

وعلامة العارف خمسة أشياء: القيام على باب الرب، الإقبال إليه، الأنس به، عدم الانشغال إلا به، والفرار من الخلق إلى الخالق، ومن الأسباب إلى وليها[6] وفي صنعة العارف، غيبوبة الخلق منه. وسعة مقام العارف وأدنى صفة العارف أن تجري فيه صفات الحق وجنس الربوبية. للخلق أحوال. ولا حال للعارف لحجب رسومه. فلا يشاهد في اليقظة والنوم إلا الله[7] وإذا التفت العارف إلى الخلق بغير إذن الخالق فإنه لم يعرف[8] العالم يلاحظ نفسه، والعارف يلاحظ ربه. ومن علامة المعرفة أن يصبح العارف في قبضة الله، تجري عليه تصاريف القدرة وكأن ثمن المعرفة فقدان الحرية[9] المعرفة هي الدافع على الإنابة. والعارف سره مع الله[10].

---

(1) السابق ص155/ 163.

(2) «لو عرفت ما كنت تسألني عنه. ومن لم يعرف الله فلا يعرف قول العارف. ومن عرف الله يستغن عن السؤال»، شطحات ص125.

(3) السابق ص146.

(4) «لو أن مائة ألف ملك كلهم بقدر جبريل وميكائيل وإسرافيل في قلب العارف وفي كل زاوية من زوايا قلبه ما حس به العارف ولا شعر. ولا علم أنهم في كون الله موجودون. وإن حس بهم فليس بعارف»، السابق ص150/ 166.

(5) السابق ص172.

(6) شطحات الصوفية ص166/ 172/ 206-207.

(7) السابق ص168/ 261/ 226.

(8) اللمع ص58/ 61.

(9) الحلاج: التفسير ص142.

(10) اللمع ص57.

العارف مع الناس وليس معهم، داخل معهم وبائن منهم[1] معرفته من الله ومن الناس، من الوحي ومن الحياة اليومية، من السماء ومن الأرض، من أعلى ومن أدني، من المثال ومن الواقع. العارف هو العليم بأسرار المنازل، بالله وبالكون، بالحق وبالخلق[2].

6 ـ المعرفة المباشرة

وتقابل درجات اليقين الثلاثة درجات الوصول إليها وهي: المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة. المحاضرة في البداية تقابل علم اليقين، والمكاشفة في الوسط تقابل عين اليقين، والمشاهدة في النهاية تقابل حق اليقين. المحاضرة

(1) السابق ص58.

(2) «إن في معرفة أسرار وصف المنازل السفلية ومقاماتها، وكيف يرتاح العارف عند ذكره بدايته فيحن إليها مع علو مقامه، وما السر الذي يتجلي له حتى يدعون إلى ذلك»، الفتوحات جـ1/ 255-261.

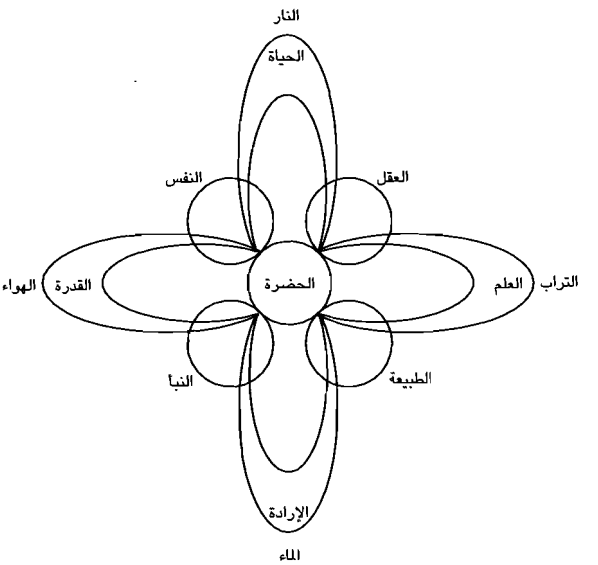

السابق ص260.

حضور القلب. وقد يكون بتواتر البرهان على ما وراء الستر. والحضور استيلاء سلطان الذكر. والمكاشفة حضور بنعت البيان دون ما حاجة إلى دليل أو طلب سبيل. لا تخلو من دواعي الريب. ولا محجوب فيه من نعت الغيب. والمشاهدة حضور الحق دون تهمة وكشف الستر وإشراق شمس الشهود. صاحب المحاضرة مشروط بآياته. وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة ملقي بذاته. صاحب المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته. يبدأ اليقين بالمكاشفة ثم المعاينة ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، والمشاهدة وهي الطمأنينة إلى الإيمان[1] فالمشاهدة توالي أنوار التجلي على القلب دون ستر أو انقطاع كاتصال البروق. ولا تصح إذا ما بقي عرق قائم[2] ولا تقتضي المباينة بين الشاهد والمشهود. المحاضرة ابتداء المكاشفة، والمكاشفة بداية المشاهدة. وقد تضم المعاينة إلى المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة. فالعلم هو المعاينة. ومن لم يعتبر بالمعاينة لا يتعظ بالموعظة ويستغني عنها[3] المعاينة هي التجربة الذاتية. المحاضرة حضور القلب. وقد يكون بتواتر البرهان وهو مازال وراء الستر أو باستيلاء سلطان الذكر. المشاهدات للقلوب، والمكاشفات للأسرار، والمعاينات للبصائر، والمراعاة للأبصار[4] فهذه أربع درجات للمعرفة: مشاهدة القلب، ومكاشفة السر. الأول ذات، والثاني موضوع. والمعاينة للبصيرة والمرآة للبصر. الأولى للعين الباطنة، والثانية للعين الظاهرة[5].

الكشف ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للإنسان رؤية العين. كشف العيون بالإبصار. وكشف القلوب بالاتصال[6] والمكاشفة حضور بالعيان دون ما حاجة إلى دليل[7] العلوم بالوسائط، والحقائق بالمكاشفة[8] واليقين مع الكشف[9] والكشف

(1) التستري ص258-259.
(2) الرسالة ص40.
(3) يحيى بن معاذ، طبقات الصوفية ص113.
(4) الرسالة ص40.
(5) السابق ص331.
(6) اللمع ص422، طبقات الصوفية ص476.
(7) الرسالة ص40.
(8) السابق ص430.
(9) النفري: موقف رؤيته، المواقف ص162-163.

شهادة. وهذا موقف حق المعرفة[1] المكاشفة أمانة الفهم وتحقيق زيادة الحال وتحقيق الإشارة[2] المكاشفة متعلقة بالمعاني، والمشاهدة متعلقة بالذوات. المشاهدة للمسمى والمكاشفة لحكم الأسماء. المكاشفة أتم من المشاهدة إلا لو صحت مشاهدة ذات الحق. فإن لم تكن فهي المكاشفة. المكاشفة تلطيف الكثيف، والمشاهدة تكثيف اللطيف. الشاهد ما يشهد بما غاب ويحضره في القلب. هو في الضمير والسر. أحلام الغيب لا تشاهد في الدنيا ولكن تشاهد فضائح الدعوى في عالم الشاهد. وعالم الغائب مجهولة أحكامه[3] والمشهود ما يشهده الشاهد. وهما لفظان قرآنيان ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[4] وشاهد الغيب هو شاهد الذمة. وشاهد اللبس هو شاهد النزع. وشاهد العلم هو شاهد العمل. وشاهد النوم هو شاهد اليقظة[5] المشاهدة إطلاع القلوب بصفاء اليقين إلى ما أخبر الحق عن الغيوب[6] ولا يجوز الاستدلال بالشاهد على الغائب لأنه لا يُعتد بصفات من يشاهد ولا يعاين. وهو ذو مثل على صفة من لا يشاهد في الدنيا ولا يعاين ولا مثل له ولا نظير[7] و«الشاهد» ما يكون حاضراً في القلب وما يغلب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائباً عنه. هو الاستيلاء على القلب حتى يُشاهد. وقد يكون المشاهد العلم أو الوجد كل ما يحضر في القلب شاهد. والسؤال هو من يشاهد الشاهد الحق أم يشاهد الحق الشاهد؟[8] وفي كلتا الحالتين الشاهد والشهادة من نفس الاشتقاق أي الفناء عن البشرية أو البقاء فيها. ولا تتضمن المشاهدة التفرقة بل المشاركة. المشاهدة حضور الحق. ولا تصبح لو بقي للإنسان عرق قائم. المعرفة ظهور الحقائق، وتلاقي الشواهد، وصرف النظر عن

(1) موقف حق المعرفة، السابق ص163-164.
(2) الفتوحات جـ2/ 496-498.
(3) طبقات الصوفية ص369.
(4) مثل:
وفي كل شيء له شاهد يدل على أنه واحد
اللمع ص415.
(5) المواقف ص121-122.
(6) طبقات الصوفية ص465.
(7) السابق ص315.
(8) الرسالة ص44.

موضوع محدد[1] المعرفة كلية وليست جزئية، نازلة وليست صاعدة، استنباطية وليست استقرائية. الواقع مثير وحامل لها، وليس مبدعها وخالقها. المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلي على القلب دون ستر أو انقطاع وهي طبع وخلقة وهبة[2] المشاهدة رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ورؤيته في الأشياء وحقيقتها اليقين من غير شك[3] كما يستعمل فعل «شهد» ومشتقاته مثل «أشهد» ويعني «أري»، «أتحقق»[4] لذلك خصص موقف للبصيرة[5] فالعلم معلوم ومعيون أي أنه موضوع المعرفة والرؤية بالعين. وعلم المشاهدة لا ينير فقط بل يحرق[6] مشاهدة الأرواح تحقيق. ومشاهد القلوب تعريف. فالروح تشاهد، والقلب يعرف[7].

المشاهدة لفظ قرآني[8] الشاهد الرب، والمشهود الكون. ومن شاهد الله بقلبه لم يشاهد سواه. والمشاهدة ما لا فات القلوب من الغيب بالغيب دون عيان أو وجد. هو وصل بين رؤية القلب ورؤية العيان لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين زيادة توهم. المشاهدة هي المحاضرة والمناداة. هي زوائد اليقين سطعت بكواشف الحضور غير خارجة من تغطية القلب. هو حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين وحقائقها.

وهي على ثلاثة أحوال:

الأول عند الأصاغر المريدين، هي مشاهدة الأشياء بعين العبر ومعاينتها بأهل الفكر.

والثاني عند الأواسط هو ألا يبقي في سر المشاهد غير الله.

والثالث عند القلة، مشاهدة الله في قلوب العارفين مشاهدة تثبيت في كل

---

(1) السابق ص40.
(2) طبقات الصوفية ص409.
(3) الفتوحات جـ2/ 494-496.
(4) وهذا أوضح في اللغات الأجنبية في فعل Witness الذي يعني أرى، أشهد. المواقف ص66.
(5) «البصيرة»، المواقف ص119-120.
(6) أبو عبد الله الصبيحي، السابق ص331.
(7) طبقات الصوفية ص380.
(8) اللمع ص100-101.

شيء، ظاهراً وباطناً، أولاً وآخراً. وهي حال رفيع من لوائح زيادات اليقين.

وتعني المشاهدة المداناة والقرب. والمكاشفة والمشاهدة والمحاضرة بمعنى واحد. أول المشاهدة زوايد اليقين سطعت بكواشف الحضور، والتماس القلب دوام المحاضرة[1].

ويشاهد الإنسان بمشاهدة الحق إياه وليس بمشاهدته له. فالمشاهدة نور في القلب قبل أن تكون رؤية لموضوع[2] القدرة ظاهرة والأعين مفتوحة ولكن أنوار البصائر ضعفت[3] الأبصار قوية والبصائر ضعيفة[4] فظلم الأطماع تمنع من أنوار المشاهدات[5] المشاهدة ابتلاء الخلائق بالدعاوى العريضة في الغيب. إذا أظلتهم هيبة المشهد انعقدت الألسنة وانقمعوا وصاروا لا شيء. ولو صدقوا في دعواهم لبرزوا حين المشاهدة، ولرأوا كما فعل الرسول حين طلب الشفاعة. لم ترعه هيبة الموقف لما كان لديه من قدم الصدق[6] وعلى قدر الابتلاء تكون المشاهدة. وعلى قدر المشاهدة يكون الابتلاء. وعلى قدر المعرفة بالابتلاء تكون العصمة. وعلى قدر إظهار الفاقة والفقر إلى الله يُعرف الضر والنفع، ويزداد العلم فهماً وبصراً. ما التذ عاقل بمشاهدة لأن مشاهدة الحق خفاء ليس فيه لذة ولا التذاذ، ولا حظ ولا احتظاظ. وإن لم يكن بالفناء لذة ولا التذاذ، لا حظ ولا احتظاظ.

من عمل على رؤية الجزاء كانت أعماله وثوابه بالعدد الإحصاء. ومن عمل على المشاهدة أذهلته عن التعداد والعدد، وكان أجره بلا عدد[7] ولذة الثواب في الآخرة على قدر لذة التعبد في الدنيا. وقياساً على ذلك يقال عن الرؤية.

والعلماء متفاوتون في ترتيب مشاهدات الأشياء في ثلاث طبقات: من

---

(1) السابق ص412.

(2) أبو بكر الواسطي، طبقات الصوفية ص302.

(3) إبراهيم القصار، السابق ص320.

(4) ينوي العتاب له من قبل رؤيته ... فإن رآه فدمع العين مسكوب
لا يستطيع كلاما حين يبصره ... كلّ اللسان، وفي الأحشاء تلهيب
السابق ص91-92.

(5) السابق ص444-445.

(6) أبو على الروزباري، السابق ص358.

(7) السابق ص486.

الأشياء إلى الله، ومن الله إلى الأشياء، ومن الأشياء إلى الأشياء. بقيت من الله إلى الله وتكتمل بذلك الأسفار الأربعة كما حددها صدر الدين الشيرازي[1] وكيف تشهده الأشياء وهي تغني بذواتها عن ذواتها فيه؟ وكيف تغيب عنه وبه ظهرت وبصفاته؟ لا يشهده شيء ولا يغيب عنه شيء. تلك وحدة الذات والموضوع. اشرأبت القلوب لمشاهدة ذات الحق فألقيت لها الأسامي. واستترت الذات إلى وقت التجلي. فالأسماء واسطة الذات وإشارة عليها. لذلك أظهرها الحق وأبداها للخلق ليسكن بها شق المحبين. وتأنس بها قلوب العارفين[2] من أعرض عن مشاهدة الله شغله الله بطاعته وخدمته. فالعبادة أقل من المشاهدة. ولو بدا له نجم الاحتراق لغيَّبه عن وساوس الاختراق[3] ولا يغيب أهل المشاهدة عن الله قياماً وقعوداً، ولا نوماً ولا انتباهاً. ولهم أحوال تسطع عليها أنوار القرب. لا يتفرغون إلى الخلق وما هم فيه. وتلك أسوأ أحوال الدهشة، دهشة وحيرة، غياباً بأسرارهم، وحضورا بأبدانهم[4]

والمشاهدة قادرة على قهر الشيطان. كما قهره الأنبياء والصدّيقون. والإنسان بين نسبتين: نسبة إلى الحق للدخول في مقدمات الكشف والبراهين والعظمة، وهي نسبة تحقق العبودية، ونسبة إلى آدم للدخول في مقامات الظلم والجهل. وكما أن شرط العلم العمل، وشرط الورع الإخلاص، فإن شرط الإخلاص المشاهدة المتبادلة بين العبد والرب، والصحبة المتبادلة. ولا راحة حتى يُري الله في القلب ويقيم عليه. فالرؤية إذن قلبية وليست موضوعية، داخلية وليست خارجية.

ولا يستطيع الإنسان أن يعلم أكثر مما في الدنيا إلا في الآخرة عن طريق

(1) أبو العباس الدينوري، السابق ص476.

الطبقة	الغاية
الله	الأشياء
الأشياء	الله
الأشياء	الأشياء

(2) السابق ص359-360.

(3) السابق ص384.

(4) السابق ص405.

المشاهدة والمشافهة. ويرى العبد ربه ويكلمه بإيمانه وتسليمه له وترك جميع أحواله واختياره له، وترك كل ما في الدنيا[1].

ويلتزم الإنسان بعدم الشبع أو الملل عن العلم وبأن الله يشاهد كل شيء، فالحاجة إليه والموت على بابه. ويبعد عن المشاهدة الطمع في الخلق والدوران عليهم بالذم أو المدح. وأفضل علم هو علم العبد بأن الله شاهده. وأفضل شرف النظرة إلى الله، والاستماع منه، والكلام معه. والناس في علاقتهم بالله يعلمون أن الله شاهدهم وهو معهم في عبوديتهم أو الاستعانة به، والصبر على ذلك. وهو خير الدنيا والآخرة، وخير السر والعلانية. وإذا منَّ الله على العبد بالإيمان وثبت في قلبه، منَّ عليه باليمنة فشهد قلبه الأسماء. فالأسماء موضوع للمشاهدة وليس للفهم. وهي أيضاً مرئية وليست فقط مسموعة. وهنا يتحقق الإسلام ثم الوصول إلى السلام ثم دار الكفاية والولاية. والعلم بأن الله شاهد العبد مشروط بطعام إلى الصرف، ولباس إلى المزبلة، ومال للميراث، وأحباب للتراب. وشهادة الله للعبد تعني أنه مطلع على أحواله، قادر على قربه، رحيم رؤوف به. وهو شرط القرب من الله والخوف منه والإيثار له والفقر إليه. فالمشاهدة متبادلة. يشاهد العبد الرب كما يشاهد الرب العبد. ويفرح العبد بمشاهدة الرب له. فيعرف مقامه من الإيمان والقرب. ويستمع إليه، ويذكره باللسان. ويطلب مرضاته وطاعته ليرحمه. ويقوم بكل أعمال البر[2].

من رأى شهد أن الشيء لله ولم يرتبط به. ومن لم ير الله لم ير الشيء ولم يشهد له. وليس كل من رأى الله شهد من رأى. الشهادة أن تعرف. وقد يرى أحد ولا يعرف. ومن أحبه الله أشهده. فإذا شهد به أحبه[3] ومن كان يعبد الله كأنه يراه فإن الله يراه وإلا كان غافلاً. وقوم ينظرون إلى الله بكرة وعشية. وبقدر طاعتهم وعلمهم لا يحجبون عنه في كل الأوقات. فالرؤية ذاتية، متوقفة على قدر الوعي الذاتي وليست إدراكاً حسياً لموضوع خارجي[4].

---

(1) التستري ص245-246.

(2) السابق ص246-247.

(3) النفري: المواقف ص129-130.

(4) التستري ص255.

المعرفة لله بكمال الربوبية، وللنفس بالعبودية. الله أول كل شيء. وبه يقوم كل شيء. وإليه يصير كل شيء. وعليه رزق كل شيء. الربوبية والعبودية لفظان متضايفان لإحساس الإنسان بأنه عبد فيكون له رب. الرب هو الأول والقائم والنهاية والرازق مثل صفات السيد[1].

7 ـ المعرفة الوجدانية

وتشمل المعرفة الوجدانية الخاطر والهاجس والوارد واللطيفة واللوائح والطوالع واللوامع والهوامع والطوارق والهجوم والبداوي واللواحظ والزوائد وأخيراً القوادح والعوارض والوساوس. وكلها خلجات النفس وهواجس الشعور، بلغة البروق واللمحات الخاطفة. وقد تفرد الصوفية بتحليلها، مفرداً أم جمعاً. منها الإيجابي ومنه السلبي.

و«الخاطر» هو ما يرد على الضمائر بصرف النظر عن مصدره الملك أو الشيطان، الله أو النفس. إذا كان من الملك يكون إلهاماً أو علماً. وإن كان من الشيطان يكون وسواساً. وإن كان من الله فهو خاطر. الخواطر إذن أربعة: خواطر النفس، وخواطر الحق، وخواطر الملك، وخواطر الشيطان. خواطر النفس تقل بالصعود إلى الحق، ويشعر بها القلب. وخواطر الحق من فوق القلب. وخواطر الملك من يمين القلب، وخواطر الشيطان من يسار القلب. بنور التوحيد يُقبل الخاطر من الله. وبنور المعرفة يُقبل الخاطر من الملك. وبنور الإيمان ينهى النفس، وبنور الإسلام يرد على العدو. وبتعبير آخر: الخواطر أربعة: رباني وملكي ونفسي وشيطاني. والشيطاني قسمان: معنوي وحسي. والحسي قسمان: إنسي وجني[2] فالخاطر يشهد له ظاهر. إن كان من الشيطان فإنه يدفع إلى العاصي. وإن كان من النفس يدفع إلى الشهوات أو الأهواء. ويمنع أكل الحرام من التمييز بين الإلهام والوسواس[3] وإن سكوت النفس عن الهواجس بصدق المجاهدة نطق القلب. النفس لا تصدق، والقلب لا يكذب[4] والفرق بين هواجس

(1) طبقات الصوفية ص382.
(2) الفتوحات: «في معرفة الخواطر الشيطانية»، جـ1/ 281-284.
(3) الرسالة ص43-44.
(4) أبو على الدقاق، السابق ص43.

النفس ووساوس الشيطان هو إلحاح النفس على الطلب في حين أن الشيطان لا يلح بل يلجأ إلى وسوسة أخرى لأن الكل لديه سواء[1] والإلهام من الملك قد يوافق صاحبه وقد يخالفه. أما الخاطر من الله فإنه يوافقه. وقد يأتي خاطران من الحق، يكون الأول أقوى من الثاني لأنه الأسبق. وقد يكون الثاني أقوى من الأول لأنه تال له[2] وقد تكون الخواطر ستة .هناك خاطران: خاطر النفس وخاطر العدو لدى كل الناس. وهما مذمومان. يأتيان مع الهوى دون العلم. وخاطر الروح وخاطر الملك أيضاً لدى كل الناس. وهما خاطران محمودان لا يردان إلا بحق وما دل عليه العلم والعقل. والعقل خاطر خامس بين الخير والشر. متوسط بين الخواطر الأربعة. والخاطر السادس خاطر اليقين. وهو روح الإيمان ومزيد العلم. يرد من خاطر الحق وخاطر العقل. وهو خاطر عند الموقنين وحدهم، وهم الشهداء والصديقون[3] وهو استفتاء القلب ولو أفتي الناس.

وتوزن الخواطر بميزان الشرع نفلاً أو فرضاً، محرماً أو مكروهاً. فإذا تساوى الخاطران يؤخذ أقربهما إلى مخالفة الهوى. والتمسك بالشرع يساعد على التمييز بين الخواطر. وسبب اشتباه الخواطر أربعة: ضعف اليقين أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها أو متابعة الهوى بحزم قواعد التقوى أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس. وترد الآفات على النفس إما بجهل أو غفلة أو طلب فضول[4].

والخواطر مقامات. وقد يعني المقام الدرجة أي المعنى العام وليس المعنى الخاص. الدرجة على الطريق الصوفي. فأول مقامات القلوب الخواطر وهي من الله. إما أن تُسقط في جهنم أو تُنزل في الجنة[5] والخاطر أول الفعل ومفتتحه. فالخواطر أفعال، والأفعال خواطر. وإذا اجتمعت في القلب ثلاث معان لم تفارقه خواطر اليقين: الإيمان والعلم والعقل[6] ومن خواطر اليقين ما يرد بشيء لا تظهر

(1) الجنيد، السابق ص43.
(2) الأول أقوى عند الجنيد، والثاني أقوى عند ابن عطاء، السابق ص44.
(3) قوت القلوب جـ1/ 234، عوارف العارف جـ4/ 278-281.
(4) «معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها»، عوارف المعارف جـ4/ 252-281.
(5) التستري ص288.
(6) قوت القلوب جـ1/ 234-236/ 252.

دلالته لخفائه أنه لا يُعلم إلا بعلم باطني، فهم التنزيل وتعليم التأويل[1].

وتنقسم الخواطر بالنسبة إلى الخير والشر عدة أقسام. ما وقع في القلب من عمل الخير إلهام، ومن عمل الشر وسواس، ومن المخاوف حساس، والأمل في الخير نية، وتدبير المباحات أمنية وأمل، وذكر الآخرة والوعد والوعيد تذكر وتفكير، ومعاينة الغيب مشاهدة، وحديث النفس هم، وخواطر العادات والشهوات لمم[2] وترتيب الخواطر ثلاثة معفوة، وثلاثة مطالب، الهمة وهي وسوسة النفس بالشيء ثم يقوي فتصير نية ثم عقداً ثم عزماً ثم طلباً وسعياً.

وبالنسبة للأنبياء العلم من الله، من التعليم وليس من العمل، من إلهامات الله. وقد كان للرسول علم من الله لم يطلع عليه جبريل ولا ميكائيل[3] وكلم الله موسى تكليماً وكلم الأنبياء وحياً. وهو ما يستقر في القلب مباشرة[4] والعارف يستدل بالله على الله ويقع الإلهام على القلب حتى ولو كان السير إليه وهماً في طريق الغيب[5] والكشف لا يوصف باللسان ولا يُدرك بالعقل[6] الخطرة للأنبياء، والوسوسة للأولياء، والفكرة للعوام، والعزم للفتيان[7].

الخاطر تحريك السر لا بداية له. وإذا خطر بالقلب لا يثبت ويزول بخاطر آخر على عكس الواقع الذي يثبت ولا يزول بواقع آخر. الواقع هو الثابت والخاطر هو المتغير. والخاطر الصحيح أوله. وقد يعني الخاطر ما لا يكون للإنسان فيه نسبة في ظهوره في الأسرار. وقد يكون القهر الذي يستوعب الأسرار[8] إذا وصل

---

(1) السابق ص241.

(2) السابق ص257-258.

(3) شطحات ص113-114.

(4) «بك أدل عليك. ومنك أصل إليك. ما أطيب واقعات الإلهام منك على خطرات القلوب. وما أحلى المشي إليك بالأوهام في طرقات الغيوب. اللهم ما أحسن ما لا يمكن للخلق كشفه، ولا بالألسنة وصفه، من حيث لا تدركه العقول»، السابق ص141.

(5) «أعرف الذي علمني ربي عز وجل» السابق ص219.

(6) «ذلك في غامض علم الله فإن ذلك لا يظهر عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب»، السابق ص222.

(7) طبقات الصوفية ص445.

(8) اللمع ص418-419.

الإنسان إلى مقام المعرفة حدثت له الخواطر. ولا يخطر له إلا الحق. وخاطر الحق لا يعارضه شيء لأنه إدراك حدسي[1] ومقام الخطرات بعيد عن مقام الوطنات لأن الخواطر تلمع ثم تختفي. والوطنات تبدو وتثبت ثم تتحقق. وتتولد الدواعي من الخواطر. إذ يظن المدعي أن ما لاح ثبت. ولا دعوى لصاحب الوطنات[2].

والوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة دون تعمد. وقد يكون وارداً من الحق أو من العلم. الواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تتعلق بنوع الخطاب، والواردات تتعلق بمعناه سروراً أو حزناً، بسطاً أو قبضاً[3] تختص الخواطر بنوع خطاب أو مطالبة. وتكون الواردات تارة خواطر وتارة وارد سرور أو وارد حزن أو وارد قبض أو وارد بسط. الوارد ما يرد على القلوب بعد البادي فيستغرقها. البادي فعل والوارد ليس فعلا[4] وإذا ورد الوارد قد يصادف شكلاً ليمازجه أو موافقة فيساكنها[5] فهل الوارد من الخارج أم من الداخل، من الأعلى أم من الأعمق؟

و«اللطائف» هبات في الخاطر من القادر. وهي مثل لفظ «الإشارات». الإشارات من أدنى إلى أعلى كالعلامة، واللطائف من أعلى إلى أدنى كالهبات. لذلك وضع القشيري عنواناً لتفسيره «لطائف الإشارات»[6] اللطيفة إشارة تلوح في الفهم، وتلمع في الذهن، ولا تسعها العبارة لدقة معناها[7] للطيفة معنيان. الأول حقيقة الإنسان أي البدن والثاني كل إشارة دقيقة تلوح في الفهم لا تسعها العبارة. وهي من علوم الذوق والحال. تعلم مباشرة دون رواية أو حد. ولها معنى ثالث أوسع يشمل اللطيف كاسم إلهي. هو ما يحصل عليه العبد من دون أن يشعر[8].

---

(1) الحلاج: الولاية ص232.
(2) طبقات الصوفية ص278.
(3) الرسالة ص44، عوارف المعارف جـ4/ 272.
(4) اللمع ص418.
(5) طبقات الصوفية ص375.
(6) في لج بحر الفكر تجري به لطائف من قدرة القادر
الحلاج: الديوان ص303.
(7) اللمع ص448.
(8) الفتوحات جـ2/ 503-505.

وتأتي الألفاظ متقاربة في المعاني مثل اللوائح والطوالع واللوامع والهوامع والطوارق. ترتبط ببدايات المعرفة. وهي على الترقي من الأولى إلى الثانية إلى الثالثة مثل درجات اليقين أو درجات الحضور[1] اللوائح تحضر وتختفي في لحظة. ما يلوح للأسرار الظاهرة لزيادة السمو، والانتقال من حال إلى حال، كالإشارات للسير أو للتوقف. والطوالع تحضر وتختفي عدة لحظات. فهي أبقى وأدوم وأقوى. هي أنوار التوحيد تطلع إلى قلوب أهل المعرفة[2] واللوامع هي التي تبقى وتدوم. فالفرق بينها في الوقت والقوة. هي مثل اللوائح إلا أنها كالبرق في قلوب الأولياء بلا توهم[3] والطوارق ما يطرق قلوب أهل الحقائق عن طريق السمع فيجدد لهم حقائقهم. وتأتي بعد الطوالع[4]. والمعارف لوائح وهوامع. يضيع فيها العارف إن لم تكن له خبرة بها من مثيل[5] اللوائح ما يلوح إلى الأسرار الظاهرة من السمو من حال إلى حال. هو ما يلوح للبصر إذا لم يتقيد بجارحة من الأنوار الذاتية والسبحات الوجهية والأسماء الإلهية[6].

وقد تكون ألفاظ المعرفة ثنائية كالأحوال. وذلك مثل البواده والهجوم. البواده من البداء وهو ما يفاجئ القلب من الغيب على سبيل الوله فرحاً أو ترحاً. والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت دون تصنع أو تكلف. ويختلفان حسب قوة الوارد وضعفه. قد تغير البواده الصوفي وتصرفه الهواجم. وقد يستطيع السيطرة عليها فيصبحون سادة الوقت[7] البادي هو الذي يبدو على القلب في الحين من حيث حال العبد. بادي الحق يبيد ما سواه[8] والبادي بلا بادي هو ما يبدو على قلوب أهل المعرفة من الأحوال وصفاء الأذكار. وهو لفظ قرآني ﴿إِنَّهُ

(1) الرسالة ص40-41.
(2) اللمع ص422.
(3) السابق ص412.
(4) السابق ص422.
(5) «لا تغتروا باللوائح فإنها تلوح من متاهات يضيع فيها من لا سابقة له»، شطحات الصوفية ص103.
(6) الفتوحات ج2/ 498-499.
(7) الرسالة ص41.
(8) اللمع ص418.

﴿هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾. يتحول معناه من خلق الكون والبعث إلى البداية في القلب. فالعالم ينشأ في القلب في لحظة الوعي به[1] والهجوم والغلبة لهما معنى متقارب. إلا أن الهجوم فعل صاحب الغلبات عند قوة الرغبة[2].

واللحظ هو ملاحظة أبصار القلوب لما يلوح لها من زوائد اليقين بما آمن به في الغيوب[3].

والزوائد مجرد لفظ لم يستمر كمصطلح صوفي. ويعني زيادات الإيمان بالغيب واليقين فزاد الصدق والإخلاص في الأحوال والمقامات والإرادات والمعاملات. وتسطيع كواشف الحضور تغطية القلوب لما وارته الغيوب[4].

والقادح مثل الخاطر إلا أن الخاطر لقلوب أهل اليقظة والقادح لأهل الغفلة.

والعارض ما يعرض للقلوب والأسرار من إلقاء العدو والنفس والهوي. فهو أحد وسائل المقاومة[5].

والوسوسة تؤدي إلى الحيرة. وهي غير الإلهام إلا عند أكل الحرام. فالإلهام يؤدي إلى زيادة فهم وبيان[6].

8 ـ الحكمة النظرية

والحكمة النظرية قاسم مشترك بين الفلسفة والتصوف فيما يعرف باسم حكمة الإشراق سواء عند ابن سينا أو السهروردي. وهي الغالبة على التصوف النظري. الحكمة هي النطق بالحق[7] وهي أعظم حق من حقوق الله. ولا يطالب الله بها إلا عندما لا توضع في حقها. فلماذا يكون من طالبه بحقها خصيما؟ علامتها

---

(1) السابق ص439.
(2) السابق ص417.
(3) اللمع ص418. وهو مثل النظرة Régard عند سارتر، وقلب النظرة Blickwendung عند هوسرل.
(4) السابق ص415.
(5) اللمع ص419.
(6) طبقات الصوفية ص350، عوارف المعارف جـ4/ 270.
(7) أبو عثمان المغربي، السابق ص483.

معرفة أقدار الناس وعدم بخس الناس أشياءهم[1] فالحكمة ليست متعالية ولا متدانية. الحكماء ورثة الأنبياء. والحكمة وراثة النبوة. وتعني إحكام الأمور. وأول علاماتها طول الصمت، والكلام على قدر الحاجة دون ثرثرة[2] والثرثرة مظهر من مظاهر العدم، الظاهر الذي ليس وراءه باطن مما يورث في النفس الغثيان. ويستمع إلى الحكمة العاقل أو العامل. يتعجب العاقل ويشتهي ما يسمع. ويتقلب العامل وكأن في قلبه حية تتلوى[3] وإذا سمع الإنسان الحكمة فلم يقبلها فهو مذنب. وإن لم يعمل بها فهو منافق[4] فالحكمة نظرية وعملية.

والفطنة من الحكمة، والأدب من الفطنة، وعلاقة الأعلى بالأدنى، علاقة العام بالخاص. الفطنة من التوفيق. وهي أهم من الفقه. ومعرفة الغيوب أعلى درجاتها في حين أن الفطنة ذكاء عملي في الدنيا، في عالم الشهادة ولا شأن لها بعالم الغيب[5]

والفكر قيام الأشياء بالحق. هو الفكر في الوجود. الفكر وقوف القلب عما عرف. والتفكر جولان القلب، مجموعة من الأفكار المتتالية. الفكر لحظة واحدة، والتفكير عملية مستمرة[6] وهو ما وضح فيه الإيمان واستوفته العقول. الإيمان أولاً، والعقل ثانياً[7] وهو ما ملأ القلوب من حال تعظيم الله أي الفكر الوجداني.

---

(1) شاه الكرماني، السابق ص193، من الحكمة المتعالية إلى الحكمة المتدانية، حصار الزمن جـ3 علوم ص697-715.

(2) أبو بكر الوراق، طبقات الصوفية ص226.

(3) محمد بن علي الترمذي، السابق ص218.

(4) أبو علي بن الكاتب، السابق ص387.

(5) التستري ص347.

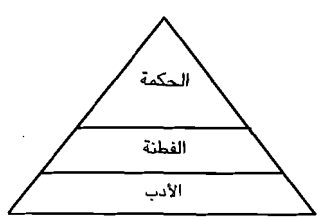

(6) اللمع، ص302-303.

(7) وهو شعار أنسيلم في العصر الوسيط الأوروبي.

وهو صحة الاعتبار أي الاستدلال العقلي. والاعتبار استدلال الشيء على الشيء أي فكر الفكر. ونظر النظر. الاعتبار ما نفذ في الغيب ولم يمنعه مانع. والخلود والانفراد يفتحان القلب على العلم مع الله بالنظر والتفكر[1] ومن صح تفكره صدق نطقه وخلص عمله[2] فهناك علاقة بين الفكر واللغة والعمل.

والفكرة على خمسة أوجه: فكرة في آيات الله وعلامته تتولد منها المعرفة، وفكرة في آلاء الله ونعمائه تتولد منها المحبة، وفكرة في وعد الله وثوابه تتولد منها الرغبة في الطاعة والموافقة، وفكرة في وعيد الله وعقابه تتولد منها الرهبة من المخالفة[3] وفكرة في جفاء النفس في جنب إحسان الله إليها يتولد منها الحياء من الله. فالفكرة حالة شعورية.

وطلب النظر إلى شيء حجاب عنه لأن المسافة مازالت بعيدة بين الطالب والمطلوب. وطلب الاستماع من الشيء حجاب والنظر والاستماع وسوسة للقرب بين الطالب والمطلوب. فالحواس لا تقدر على كشف الحجاب. العين والأذن، البصر والسمع مجرد وسوسة إنما هو العلم القادر على ذلك[4] هو العلم والعمل حتى يتجلي الشيء. فالنظر طبقاً لإرادة الناظر. وطلب النظر والاستماع يرد إلى الفترة والشهوات والدنيا. ويتم التخلص من ذلك بالسخاء والشجاعة والصدق. ثم يحدث السكون إلى الله وقلة الغذاء والهرب إليه من الخلق[5] لاينبغي التفكر أو النظر أو النطق أو التدبر أو الحركة بالأعضاء إلا بأمر المولي. وهو سلب مطلق للذات، لقواها المعرفية والحركية[6] حسن النظر للنفس في عاقبة الشيء[7] فالإدراك للمصير. والنظر إلى النفس مرة مرة يغني عن النظر إلى الكون. كل منهما يحيل إلى الآخر. بل إن البداية بالنظر إلى العالم لجمع المادة ثم النظر إلى النفس لتحليلها وإيحاء دلالتها. النظر إلى الخارج قبل النظر إلى الداخل ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ

(1) التستري ص300.
(2) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد، طبقات الصوفية ص457.
(3) أبو بكر بن حامد الترمذي، السابق ص281-282.
(4) التستري ص330.
(5) السابق ص233.
(6) السابق ص283.
(7) السابق ص270.

أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

ويصح الفهم من أربعة مواضع، في ركعتي الفجر والوتر وعند الأكل وعند الغضب[2] الفجر والصلاة صحيحان أما الأكل والغضب ففيهما شك. ويُعطى المؤمنون بالقدر فهم القرآن بكل حرف ذهن، وبكل ذهن ألف فهم، وكل فهم ألف فطنة، إذ تتعدد الأذهان، وتتعدد الأفهام، وتتعدد الفطن، وتتعدد معاني الحروف. فلا يوجد معنى واحد للحرف، ولا ذهن واحد، ولا فهم واحد، ولا عمق واحد. لذلك تتعدد المعاني إلى ما لا نهاية، ألفاً في ألف في ألف في ألف أربع مرات[3] والفهم على قدر العلم، والعلم على قدر العقل، والعقل على قدر الإيمان[4] وجعل الله القلم في الفهم، واللوح في الحفظ. وقد رفع الحجاب عمن عرف وفهم. ويتم الانتقال من الشيء إلى الدلالة. والله هو الذي يُفهم الإنسان عن نفسه لأن الإنسان لا يفهم الله إلا به[5] فما قيمة الفهم الإنساني إذن إذا كان عاجزاً عن الفهم بذاته؟ والتدبر في الخلق عبرة. والتدبر في النفس موعظة. والتدبر في القرآن حقيقة ومكاشفة. والتدبر في العالم أو في النفس أو في القرآن.

9 ـ الحق والباطل.

والحق والباطل أو الصواب والخطأ، هي إحدى الثنائيات الصوفية الشهيرة

(1) طبقات الصوفية ص358.
(2) التستري ص209.
(3) السابق ص263.

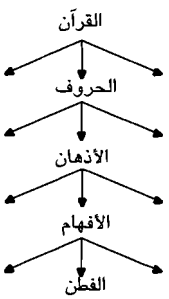

(4) السابق ص305.
(5) البسطامي، طبقات الصوفية ص72.

مثل: العلم والمعرفة، الظاهر والباطن، النقلي والعقلي، العقلي والتجريبي، النظري والتجريبي، الظن واليقين، الخاصة والعامة، التنزيل والتأويل، السلف والخلف، الدنيا والآخرة، الإنساني والإلهي...الخ. وفي كل ثنائية يمكن الجمع بينهما إلا ثنائية الحق والباطل. وإذا كان حق يشاركه باطل فقد خرج عن قسمة الحق إلى قسمة الباطل. فالحق غيور لا يقبل أن يدخل في قسمة مع شيء غيره. ومن وقف بهمته على شيء ينوي الحق فإنه الحق لأنه لا يرضى معه بشريك. الحق واحد والباحث عنه واحد. ومن علت همته على الأكوان وصل إلى مكوِّنها. ومن غيرة الحق أنه لا يجعل لشيء غيره طريقاً، ولا يدفع أحداً إلى اليأس من الوصول إليه. ويترك الناس حيارى وفي ظنون. فمن ظن أنه وصل إليه ابتعد منه وانفصل عنه. ومن ظن أنه ابتعد عنه منّاه للوصول إليه. لا مهرب عنه، ولا بد منه. وإذا كان الحق واحداً فطالبه وحداني الذات[1] فالوحدانية صفة مشتركة بين الذات الإلهية والذات الإنسانية. وجود العطاء من الحق شهود الحق بالحق لأن الحق دليل على كل شيء. ولا يكون شيء دونه دليلاً عليه[2] الإعراض عن الحق هو السخط. وعلامة الركون إلى الباطل التقرب من المبطلين[3] والادعاء خلو عن الحقائق. ولا يتحقق شيء لما نُطق به ادعاء[4].

مطالبة الحق إذا بدا قهر وجذب إلى ما أراد بصولته. الحق هو الذي يفرض نفسه على الذات. وجذبة الحق تربو على أعمال التقليد. والإغاثة ثقل مطالبة الحق على القلب فرضاً للأوامر. وأثقال الحق لا يحملها إلا مطايا الحق[5] وقلوب أهل الحق حاضرة. وأسماعهم مفتوحة. فالحق يدرك من خلال الحواس. ويقوم الحق بالحق إذا بلغ الميقات حينه. واستوفي الحق مجاري أحكامه من ظاهر هيكله. أوقد سراج الإيمان القلب واكتسي ظاهر الهيكل بنور الحق وانتصر له من الظالم[6] ومن لم يترك الكل رسماً في جذب الحق لا يحصل له الكل حقيقة.

(1) أبو عبد الله بن الجلاء، السابق ص178-179.
(2) أبو بكر الكتاني، السابق ص374.
(3) شاه الكرماني، السابق ص193.
(4) أبو على الروزباري، السابق ص358.
(5) السابق ص465/ 488.
(6) السابق ص482-483.

وهو الحق. الحق هو الكل غير المرتبط بالحدود والرسوم أو البينونة، قائم بذاته، قديم لا يلحق به شيء من الحوادث[1].

ما أبرم الحق للخلق إلا اسماً أو رسماً. وما تكلم به إلا كل من لم يحقق[2] فالحق ليس للكلام بل للتحقيق. وهو أمر عظيم يطلبه الخلق. يطرح الدنيا والآخرة[3] إذا بدا الخلق فلا التفات إلى جنة ونار أو التفكير فيهما. من وافق الحق في لحظة أو خطرة لا يقع بعد ذلك في مخالفة. فالحق يعصم. وهي موافقة الأثر الحسن والأمر الأحسن[4] الحق إذ لاحظ عبداً يبره غيّبه عن كل مكروه في وقته. وإذا لاحظه بسخطه أظهر عليه من الوحشة ما يهرب منه كل أحد[5] فالحق منطق العلاقات بين الذوات، منطق العداوة والصداقة. هو الحق الاجتماعي وليس الحق النظري. ومن قلّت آفاته اتصلت بالحق أوقاته[6] فالحق يجمع بين الحقيقة والأخلاق.

ما نطق أحد عن الحق إلا كان محجوباً. فالحق كشف. وأعظم حجاب بين الإنسان والحق الاشتغال بتدبير النفس، والاعتماد على آخرين عاجزين مثل الذات[7] ولماذا يكون الانشغال بتدبير النفس حجاباً عن الحق، وإثبات الذات الحقيقة الفلسفية الوجودية الأولى عند كثير من الفلاسفة قدماء ومحدثين من الموروث والوافد؟ ولماذا عجز الذات وقواها لا ينتهي؟

والحقيقة غير الحق. الحقيقة للشيء والحق هو الكل. ومن ادعي شيئاً من الحقيقة كذبته شواهد كشف البراهين[8] الحقيقة كلها علم. والعلم كله حقيقة، لا فرق بين الذات والموضوع[9] الحقيقة هم. يسقط هم البحث ويبدأ هم التبعة.

---

(1) السابق ص469-470/ 488/ 491.
(2) السابق ص474.
(3) أبو الحسن الصيرفي، السابق ص504.
(4) أبو القاسم النصرأباذي، السابق ص485-486.
(5) السابق ص445.
(6) أبو عبد الله الروزباري، السابق ص499.
(7) أبو محمد الراسبي، السابق ص513.
(8) السابق ص490.
(9) السابق ص394.

ينتهي هم النظر ويبدأ هم العمل. والحق واحد لا يُجمع. والحقائق جمع حقيقة. إذا تجلت حقائق الحق لسر أزالت الظنون والأماني لأن الحق إذا استولى على سر قهره. ولا يبقى للغير معه للغير أثر[1] وإذا بدت الحقائق سقطت آثار الفهوم والعلوم، وبقي الرسم الجاري لمحل الأمر، وسقطت منها حقائقها[2].

الحقيقة ثلاث: حقيقة مع العلم، وحقيقة معها العلم، وحقيقة تشطح عن العلم. وأتم الحقائق ما قارن العلم. الحقيقة كلها علم، والعلم كله حقيقة.

وتأبى الحقائق أن تدع في القلوب مقالة للتأويلات. فالحقيقة رؤية واضحة مباشرة لا لبس فيها. الحقائق المختزنة إذا بدت حجبت الحقائق المستترة.

الألسنة ثلاثة: لسان علم بالوسائط، ولسان حقيقة الوصول إلى الأسرار بلا وسائط، ولسان حق ليس له طريق. وحقيقة الوصول ذهاب العقول. وكل حقيقة تخالف الشريعة فهي كفر.

والتحقيق تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة جهده وطاقته. والتحقق مثل التحقيق، التعلم والتعليم. والحقيقة مفرد والحقائق جمع. وتعني وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدي من آمن به وإلا بطل الإيمان[3] والحقوق أي الأحوال والمقامات والمعارف والإرادات والقصود والمعاملات والعبادات. والحقوق لا تجتمع مع الحظوظ لأنهما ضدان[4] وأهل الحقائق أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى. وما حصل عليه أهل الحقائق في حقائقهم أن الله غير مفقود فيطلب، ولا ذو غاية فيدرك. فمن أراد موجودا فهو مقرور. الموجود معرفة حال وكشف علم بلا حال.

الحق هو الله. والعبد موقوف مع الحق بالحق للحق أي مع الله بالله لله. وهو دوران العبد وتغليقه ثلاث مرات بالله فلم يعد يبق منه شيء ظاهر[5] وهو

(1) السابق ص377.
(2) السابق ص422.
(3) اللمع ص213.
(4) الجنيد، السابق ص413.
(5) أبو سعيد الخراز، الجنيد، اللمع ص411.

نفس معنى منه وبه وله. ويتحقق العبد بالعبودية إذا سلم القياد من نفسه إلى ربه وتبرأ من حوله وقوته، وعلم أن الكل له وبه.

وعلامة الحقيقة البلوى أو رفع البلوى. وليست الحقيقة في الله فقط بل هي أيضاً في الإنسان وحقيقة الإنسانية ألا يتأذي أحد من إنسان. فحقيقة الاسم في نفسه، الاستئناس مع كل شيء[1].

وفي الصباح يستذكر الإنسان آفات الليل لتأدية حق الله ونصيحة النفس كما يؤدي الإنسان حق الناس إذا دخل بيتا أو خرج منه. والله شاهد، يغفر الذنب بالاستعانة به فذاك خير الدنيا والآخرة، والسر والعلانية. وما من نفس يتنفس العبد إلا إذا كان عارفا بالله مصلحاً الفساد بنفسه قبل أن يسأل الله الصحة. الله هو الذي يهب السعادة والشقاء. فمن علامات السعادة النظر في الشيء قبل الدخول فيه والاستعانة بالله عليه والصبر إلى الممات. ومن علامة الشقاء سرعة الدخول في شيء قبل استكمال علمه بالادعاء فيه أو الجزع منه[2] الهوى يحجب الإنسان عن الله والنفس عن هواها. فإذا ما تخلصت النفس منه وصلت إلى الله. والركون إلى الله يكشف الحجاب مع الصبر والسكون إليه والركون عليه حتى يأتي الفرج من عنده وهو إلى أبلاه[3] ومن كان شغله مع الله ذهبت منه الشهوات. نظر التوحيد الشعور نحو غاية واحدة. وهو تصور ثنائي متعارض للروح والمادة بقدر ما ينعزل الإنسان عن المادة يصل إلى الروح، التصور المانوي القديم. وفي تصور آخر لا يُعرف الروح إلا في المادة، ولا الخير إلا في الشر، ولا الطاعة إلا في المعصية، لا فرق بين أبي نواس وعمر الخيام. ومعاينة الله استغناء به عن كل ما سواه[4] وتتجلى الأخلاق الإلهية في الجنة والنفس والخشوع. وهي من أساميه[5] فالجنة ثواب، والنفس موطن التجلي، والخشوع علامة الطاعة.

يسأل الرب عن حق نفسه وحق عقله وحق العلم الذي بينه وبين العبد. وأيهما

(1) السابق ص286.
(2) التستري ص155.
(3) السابق ص172.
(4) السابق ص291.
(5) السابق ص343.

أولي بالسؤال حق العبد أم حق الرب؟[1] وللعبد حقوق على الرب، الأمن من الخوف، والأمل بالرجاء، والتقرب بالحسنات، والقبول بالتوكل عليه[2].

وبالرغم من ندرة لفظ الحقوق في التراث، وشيوعه في الفكر المعاصر، الحقوق والواجبات، حقوق الإنسان، حقوق الشعوب إلا أنه يظهر أحياناً في التصوف. وهي على سبعة مراتب: المؤمنون والمؤمنات المجهولون الذين لم يرهم ولم يسمعهم أحد، والمؤمنون بالسمع دون الرؤية، المؤمنون في الرؤية دون المشافهة، والمؤمنون في الرؤية والمشافهة، والمؤمنون في الرؤية والمشافهة والمحبة، والمؤمنون غير المعروفين الذين يحبون في الله. لا تُعرف حقوق الناس. غنما تركوا الدخول في التبعات، وأقاموا أنفسهم على الضرورة لئلا يلزمهم حق. لا تعرف حقوق الناس لأنهم لا يعرفون واجباتهم[3] وجعلوا أنفسهم على الطبيعة تهربا من الواجبات. فكل حق يقابله واجب، وكل واجب يقابله حق.

وتبدو ثنائية الصواب والخطأ، وهي ثنائية معرفة وليست وجودية ملحقة بالحق والباطل كثنائية وجودية. وإذا كان الحق والباطل مطلقان فالصواب والخطأ نسبيان. فالصواب كل نطق عن إذن[4] وهو لدى الأنبياء وحدهم. وماذا عن الصواب كجهد للإنسان؟ وإذا كان الصواب التوحيد فقط، وكان التوحيد كل شيء فأين الخطأ؟ ويبدو أن التصوف قد ضحي بالنسبي في سبيل المطلق.

10 ـ علوم الخاصة.

والطريق إلى هذا العلم هو طريق الخاصة من المؤمنين الطالبين طبقا للتفرقة التقليدية الثنائية بين الخاصة والعامة أو الثلاثي: الخاصة، والعامة، وخاصة الخاصة. فكل شيء له مستويات أو درجات أو مراتب: النجاة والحقوق والدواعي والبواعث والرغبة والرهبة، الحقائق والأخلاق والمعرفة. فالنجاة على أربع شعب: بواعث، ودواعٍ، وأخلاق، وحقائق. دفعت إليها ثلاثة حقوق: حق الله، وحق

(1) السابق ص80-81.
(2) السابق ص225.
(3) السابق ص372.
(4) اللمع ص303.

النفس، وحق الخلق. حق الله عبادته، وحق الخلق كف الأذى عن الناس باستثناء إقامة الحدود، وحق النفس سلوك طريق السعادة. فإن أبت فلجهل أو لسوء طبع. والجهل ضد الدين. وسوء الطبع ضد المروءة. والدواعي خمسة: الهاجس السببي وهو نفر الخاطر، ثم الإرادة ثم العزم ثم الهمة ثم النية. والبواعث على هذه الدواعي ثلاثة: رغبة أو رهبة أو تعظيم. والرغبة رغبتان: رغبة في المجاورة ورغبة في المعاينة. رغبة فيما عنده ورغبة فيه. والرهبة رهبتان، رهبة من العذاب ورهبة من الحجاب. والتعظيم قد يكون على الأفراد بلا مستويات. التعظيم لله وحده. وقد يكون على الجمع، فالتعظيم لله والرسول والأنبياء والملائكة وأولياء الله الصالحين.

والأخلاق أنواع: خلق متعد، وخلق غير متعد، وخلق مشترك. والمتعدي قسمان، متعد بمنفعة كالجود والفتوة، ومتعد يدفع مضرة كالعفو والصفح. وغير المتعدي كالورع والزهد والتوكل. والمشترك كالصبر على الأذي من الخلق.

والحقائق أربعة. الأولى للذات المقدسة. والثانية الصفات المنزهة. والثالثة الأفعال مثل كان وأخواتها. والرابعة المفعولات وهي الأكوان والمكونات. وهي على ثلاث مراتب علوية كالمعقولات، وسفلية كالمحسوسات، وبرزخية كالمخيلات[1] وفي قسمة أخرى الحقائق أيضاً أربعة: الحقائق الذاتية، مشاهدة الحق من غير تشبيه ولا تكييف، لا تسعه العبارة ولا تومئ إليه إشارة، والحقائق الصفاتية، مشاهدة الحق عالماً قادراً مريداً حياً من الصفات المختلفة والمتقابلة والمتماثلة، والحقائق الكونية، مشاهدة الحق لمعرفة الأرواح والبسائط والمركبات والأجسام والانفصال والاتصال، والحقائق الفعلية، مشاهدة الحق لمعرفة كن وتعلقها بالقدرة خارج إرادة العبد.

والمعرفة على ثلاث درجات: معرفة العوام وهي معرفة العبودية والربوبية والطاعة والمعصية والعدو والنفس. ومعرفة الخواص، معرفة الإجلال والعظمة، والإحسان والمنة، والتوفيق. ومعرفة خواص الخواص، معرفة الأنس والمناجاة، واللطف والتلطف والقلب والسر[2] ومقامات المعرفة ثلاثة: الأول ضرورة، وهي

(1) الفتوحات جـ1/ 33-34.

(2) التستري ص67.

المعرفة النقلية أو الفطرية، معرفة الروح. وهي حجة الله على الخلق. وهي أقرب إلى معرفة العوام. والثاني ما يقع فيه سهو المخلوقين في إقرارهم بالتوحيد. وهي معرفة العلماء التي تحتمل الخطأ والصواب. والثالث معرفة الخواص وهي هبة من الله لأحبائه[1] العوام تصف الله. والخواص لا تنطق. جدل الباطل والحق لا يجتمعان بل يضرب أحدهما الآخر[2] الحدَث هو ما لم يكن فكان. وهي آية تحدث في العالم لتنبيه الخاصة لعدم ذكرها[3].

والناس على ثلاث منازل: الأولياء وباطنهم أفضل من ظاهرهم، والعلماء وسرهم وعلانيتهم واحد، والجهال وعلانيتهم تخالف أسرارهم ولا ينصفون من أنفسهم بل من غيرهم[4].

ويقوم علم أهل الله على معرفة سبعة مسائل: أسماء الله، التجليات، خطاب الحق بلسان الشرع، كمال الوجود ونقصه، الإنسان من جهة حقائقه، الكشف الخيالي، العلل والأدوية. يجمع بين المعارف الإلهية والإنسانية والشرعية والكونية والغيبية والأخروية[5] ويضم كتاب المعارف موضوعات المعرفة أكثر مما يضم وسائل المعرفة[6].

(1) «واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد»، شطحات الصوفية ص169/ 206/ 224.

(2) «وهذا لسان العوام. وأما لسان الخواص فلا نطق له. والحق حق والعبد باطل»، السابق ص33

(3) اللمع ص448.

(4) أبو الحسن البوشنجي، طبقات الصوفية ص460.

الطبقة	الحالة
الأولياء	الباطن أفضل من الظاهر
العلماء	الباطن يساوي الظاهر
الجهال	اختلاف الباطن مع الظاهر

(5) الفتوحات جـ1/ 34.

(6) وذلك مثل الروح، ومراتب الحروف والحركات، وتنزيه الحق، وسبب بدء العالم ومراتب الأسماء الحسنى، وأسرار باسم الله الرحمن الرحيم، والفاتحة، وبدء الخلق الروحاني، والجسوم الإنسانية، والأرض والأرواح النارية، ودورة الملك والآباء العلوية، والأمهات السفلية، ودورة فلك محمد، وحملة العرش، وأسرار الأنبياء، والأنفاس وأقطابها =

وقد يدخل الملائكة والجن مع الإنس في التصنيف. فالملائكة اختارت العصمة، والجن الكفاية، واختار بنو آدم الحيلة. أي الذكاء والجهد والمناورة. والعصمة والكفاية أقرب إلى الجبر منها إلى الاختيار[1].

ثالثاً: علوم التصوف

1 ـ اللفظ والمعنى

وبالرغم من شيوع اشتقاق الاسم في الدراسات الثانوية والكتب الجامعية حتى أصبح معروفاً عند جمهور الطلاب إلا أنه مازال وارداً في المؤلفات القديمة. فقد اشتق اسم الصوفية من لبس الصوف[2] وقد فعل ذلك الأنبياء من قبل. وهو حكم على الظاهر[3] ولا فرق بين التصوف بألف لام التعريف وتصوف بدونهما. فالمعنيان متقاربان.

وربما يكون قد اشتق من الصفاء. وكان في الأصل صفوي. والصفاء هو القيام لله في كل وقت بشرط الوفاء[4] الصفاء من كدر الأغيار والخروج من مراتب الأشرار. ويعني الصفاء أنه إذا تحقق العبد بالعبودية وصافاه الحق حتى صفا من كدر البشرية نزل منازل الحقيقة، وقارن أحكام الشرعية[5] الصوفي هو الخارج من

= المحققين، والمنازل السفلية، والأقطاب المصونين، والأوتاد والفتوة والبهاليل، والزمان والعالم والقيامة، والبعث والحشر والجنة والنار، السابق جـ1/ 92-322.

(1) أبو عبد الله محمد بن خفيف، طبقات الصوفية ص464.

النوع	الاختيار
الملائكة	العصمة
الجن	الكفاية
البشر	الحيلة

(2) «الكشف عن اسم الصوفية، ولِمَ سموا بهذا الاسم، ولِمَ نسبوا إلى هذه اللبسة»، اللمع ص40-41.

(3) «ذكر تسميتهم بهذا الاسم» عوارف المعارف جـ1/ 331-345.

(4) هو تعريف أبي الحسن القناد، اللمع ص46/ 296.

(5) السابق ص47، طبقات الصوفية ص428.

النعوت والرسوم وألزم نفسه باسم الصوفي لتصفيته من ممازجة الأكوان كلها بمصفاة من صافاه في الأزل. الصوفي من صُفي من كل درن فلم يبق فيه وسخ المخالفات[1] وربما لا يكون الاشتقاق لفظياً بل معنوياً. فقد سمي الصوفية بهذا الاسم لاشتمالهم على الخلق بظاهر العابدين، والانقطاع عن الحق بمراتب الموحدين. وسموا كذلك لبقية عليهم من نفوسهم، ولتنسمهم بروح الكفاية، وتظاهرهم بوصف الإنابة.

التصوف تصفية القلب عن موافقة البشرية، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة دواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولي من السرمدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، وإتباع الرسول في الشريعة[2]. وهل الموافقة مع البشرية عيب؟ ولماذا مفارقة الأخلاق الطبيعية؟ أليست الأخلاق الإسلامية أخلاق الفطرة؟ ولماذا إخماد الصفات البشرية وليس إيقاظها؟ ولماذا مجانبة دواعي النفسانية وليس إثبات الشعور؟ ولماذا منازلة الصفات الروحانية وليس تأكيدها وتحقيقها؟[3]

وبهذا المعنى، الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوي عنده الذهب والمدر. وهو دائم التصفية، يصفي الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس. ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه[4].

وربما اشتق الاسم من أهل الصفة. والصوفية من بقاياهم[5] والاشتقاق صفوي وليس صوفياً. وبصرف النظر عن اشتقاق اللفظ، ويسمون في خراسان «سَكفتية» أي سكان المغارات. وفي الشام «جوعية». ويسمون أبراراً ومقربين وصابرين وصادقين وذاكرين ومحيين. وهي ألفاظ مرسلة تشير إلى بعض أوصاف الصوفية، فضائلهم ومقاماتهم.

---

(1) السابق ص275.
(2) السابق ص464.
(3) لذلك كتب أحد الفلاسفة المعاصرين «إنساني، إنساني جداً».
(4) عوارف المعارف جـ1/ 327-328.
(5) اللمع ص47، عوارف العارف جـ1/ 337-242.

وسمي الصوفية بهذا الاسم لاستتارهم عن الخلق بلوائح الوجد وانكشافها بشمائل القصد[1].

ومن حيث المعنى الصوفية هم أهل الصفوة. أي المصطفون في الفهم والإتباع لكتاب الله والموافقون له[2]. وهو لفظ قرآني. والاصطفاء للأنبياء والصديقين. وقد خص به موسى للتوحيد. الاصطفاء هو الاجتباء في سابق العلم[3]. وتتخصص الدعوة للمصطفين وطبقا لتفاوت المستمعين ودرجاتهم في قبول الخطاب بين الإقرار، والإقرار والإتباع، والإقرار والإتباع والتحقيق. هم العلماء الذين يخشون الله، الراسخون في العلم. وهم الذين يثوّرون القرآن[4]. هم الذين يلقي إليهم السمع ويتدبرونه عند التلاوة وفهم الخطاب بما يخاطب به المتلقي. وهم أرباب القلوب في فهم القرآن. وهم السابقون والمقربون والأبرار لطرقهم في الفهم والاستنباط. وهذا لا يعني التراخي في فهم القرآن بل التشديد فيه دون التخلي عن الفهم الإشاري للحروف والأسماء، وعلى قدر حضور الصوفي ودرجة قربه من الله. وهناك مقياس للاستنباط وصواب وخطأ في الفهم الإشاري للقرآن. خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف نظراً لتعدد الفهم الإشاري طبقاً لأعماق الشعور. ويؤكد الصوفية ذلك درءا لاتهام الفقهاء لهم بسوء التأويل. الصوفي من اختاره الله لنفسه فاصطفاه، وعن نفسه براه. ولم يرد إلى تعمل وتكلف بدعوي. التصوف قدر إلهي وليس اختياراً إنسانياً. وهم الذين يقتدون بالرسول في الفهم والموافقة[5]. والرسول هو القدوة في الأخلاق والأفعال والأحوال التي اختارها الله له. وقد رخص الرسول للأمة ووسع عليهم فيما أباحه الله في حالات خاصة وعامة في الاقتداء به. وأهل الصفوة يأخذون بالعزائم. ويتبع مشايخ الصوفية الرسول ضد من يزعم خروجهم على السنة.

---

(1) أبو حمزة الخراساني، طبقات الصوفية ص317.

(2) أهل الصفوة في الفهم والإتباع لكتاب الله عز وجل، اللمع ص105-129.

(3) واصطنعتك لنفسي، ولتصنع على عيني، واجتبيناهم وهديناهم، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، السابق ص474.

(4) وذلك طبقاً لحديث «من أراد العلم فليثوّر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين»، السابق ص105.

(5) كتاب الأسوة والاقتداء بالرسول، السابق ص130-146.

ويستنبط أهل الصفوة من القرآن والحديث فهماً صحيحاً لهما طبقاً لتفرقة الرسول بين الظاهر والباطن. وقد يقع الاختلاف في مستنبطات أهل الحقيقة في معاني علومهم وأحوالهم. واختلاف أهل الباطن مثل اختلاف أهل الظاهر. ويستنبط أهل الصفوة تخصيص النبي وشرفه وفضله على إخوانه من الكتاب عن طريق الفهم[1]. وكما يتبع أهل الصفوة الرسول يتبعون أيضاً صحابة الرسول وأهل الصفة[2]. وقد كان الاسم معروفاً منذ عهد الرسول وفي صحبته مثل العباد والزهاد والفقراء والراضين والمخبئين والبكائين. وكانوا يقيمون في آخر المسجد. ولم ينهرهم الرسول بعد إقامة الدولة وبناء المجتمع، ولكن نهرهم عمر. فمن يطعمهم أعبد منهم. وكان الصوفي يطوف بالكعبة قبل الإسلام[3].

لا يهم إذن الأصل الاشتقاقي للفظ «التصوف» بالرغم من صعوبته. فالحقل الدلالي واحد، الصفاء أو الصفوة أو الصفة أو الصف أو الصوف أي هيئة أو سلوك معين يدل على الانعزال عن العالم والتوجه نحو النفس، من الخارج إلى الداخل أو من الدنيا إلى الآخرة[4]. وربما سموا صوفية لبقية بقت في نفوسهم وإلا استحالت التسمية[5].

والصوفي لا يمكن تعريفه وكأنه مصطلح علمي، ولكنه هو الفقير المجرد من الأسباب. وهو مع الله بلا مكان، ويعلم كل مكان. فالصوفي بالموقف والسلوك وليس بالاشتقاق أو التعريف[6]. وكل التعريفات اجتهادات يختلف عليها الصوفية أنفسهم. يقبلون بعضها ويرفضون البعض الآخر[7]. وقد يكون أحد أسباب كتابة

(1) كتاب المستنبطات، السابق ص147-165.
(2) كتاب الصحابة، السابق ص166-193.
(3) ذكره الحسن البصري وأبو سفيان الثوري مشيراً إلى أبي هاشم الصوفي. «الرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم، وهو اسم محدث»، السابق ص42-43.
(4) القشيرية ص126.
(5) الشبلي، السابق ص127.
(6) ابن الجلاء، السابق ص128.
(7) اعترض أبو القاسم القشيري على تعريف الحصري الصوفي بأنه «لا يوجد بعد عدمه ولا يعدم بعد وجوده» وأوله بمعنى أنه إذا فنيت آفاته لا تعود إليه. وإذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق. فالحادثات لا تؤثر فيه. السابق ص128.

ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم حل ما فيها من إشكالات في تعريفها[1].

الصوفي هو المقرب. وهو ليس مذكوراً في القرآن. بل تُرك ووضع اسم «المقرب» بدلاً عنه. ولا يستعمل هذا الاسم في المغرب وتركستان وما وراء النهر لأنهم لا يتزينون بزي الصوفية «ولا مشاحة في الألفاظ». وكل مشايخ الصوفية المذكورين في كتب الطبقات من المقربين. وعلومهم علوم أحوال المقربين الأبرار. هم الصوفية دون التزيي بزي أو اشتباه. فالتصوف سلوك وليس شكلاً[2].

وقد يكون الاشتقاق صوتياً وليس حرفياً. فصوفي على وزن «عوفي» أي عافاه الله، و«كوفي» أي كافأه الله، و«جوزي» أي جازاه الله. ففعل الله ظاهر في كل الأحوال.

2 ـ تعريف التصوف

وتتراوح المعاني المختلفة للفظ طبقاً لمراحل التصوف، المرحلة الخلقية والمرحلة النفسية والمرحلة الفلسفية. فلا يوجد معنى شامل لكل المراحل إلا المعنى الاشتقاقي. فالتصوف تجربة ذاتية وممارسة عملية وليس تصوراً ذهنياً يمكن تحديده منطقياً في قضية.

أ ـ التصوف الخلقي. ويعني «الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني»[3]. وهو مطلب يقتضي قسمة الإنسان قسمين. قبيح وحسن، شر وخير، أدني وأعلي، وإدانة الأول والبعد عنه، ومدح الثاني والقرب منه. وهي نظرة مانوية للحياة تنكر الإنسان الوجودي بلحمه وعظمه ووضعه بين الحيوان والملاك بالتعبيرات الشعبية. كان التصوف في بدايته تصوفاً خلقياً. كان في هذه المرحلة «أخلاقاً كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام»[4]. وهو معنى قول الرسول «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». سُمي خُلقه عظيما

(1) هذا هو ما يدل عليه باب «في تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة وبيان ما يشكل منها»، السابق ص31.

(2) عوارف المعارف جـ1/ 238-239.

(3) اللمع ص45، الرسالة ص226، طبقات الصوفية ص436.

(4) اللمع ص45.

لاجتماع مكارم الأخلاق فيه[1]. ليس التصوف رسوماً ولا عكوفاً ولكنه أخلاق[2]. التصوف خلق. فمن زاد في الخلق زاد في الصفاء[3]. هو طريق لا يصلح إلا لقوم كنس الله بأرواحهم المزابل. فهو ليس فقط السلوك الأخلاقي بل إشباع الأخلاق من أرواحهم لتنظيف بيئتهم[4].

ولا يؤخذ التصوف من القيل والقال لكن من الجوع أي من التجربة وترك الدنيا، والتخلي عن المألوف والمستحسن. التصوف صفاء المعاملة مع الله، والعزوف عن الدنيا. التصوف ترك كل حظ للنفس من الدنيا[5]. وهو ألا يملك الإنسان شيئاً ولا يملكه شيء[6]. وإذا امتلك شيئاً فإنه لا يملكه شيء. علاقته بالملكية علاقة حرة. ليس عبداً لما يملك بل هو حر فيما يملك[7]. الصوفي يمتلك الأشياء اقتداراً[8]. لذلك لا يتعب الصوفي طلب، ولا يزعجه سبب لأنه تخلي عن العلائق[9]. التصوف كف فارغ وقلب طيب، زهد في الدنيا ورغبة في الآخرة[10]. هو رؤية الكون بعين النقص، وغض الطرف عن كل ناقص لمشاهدة المنزه عن كل نقص[11] ومن عظم خلق الصوفي صغر الأكوان في عينيه بمشاهدة مكوّنها[12].

وعلامة الصوفي الصادق الفقر بعد الغني، والذل بعد العز، والخفاء بعد الشهرة. وهو ما قاله المسيح ناصحاً الرجل الغني لشرط الدخول إلى ملكوت

(1) عوارف المعارف جـ2/ 365.
(2) طبقات الصوفية ص278.
(3) القشيرية ص127.
(4) السابق ص128.
(5) طبقات الصوفية ص166-167.
(6) اللمع ص45.
(7) القشيرية ص127.
(8) طبقات الصوفية ص480.
(9) اللمع ص45-46.
(10) يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم.
(11) سري وسرك لم يعلم به أحد إلا الجليل ولم ينطق به نطق
طبقات الصوفية ص352.
(12) عوارف المعارف جـ2/ 365.

السماوات بأن يترك كل شيء ويتبعه. علامة الصوفي التحول الجذري في رؤية الحياة من الكل إلى لاشيء، ومن الإيجاب إلى السلب، ومن الإثبات إلى النفي.

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغيِّر الله من حال إلى حال

فلم يجعل الله لرجل قلبين في جوفه. ولا يستطيع أن يخدم سيدين في نفس الوقت، المال والله كما قال السيد المسيح. ملكوت الصوفي ليس من هذا العالم مثل ملكوت بوذا. وعلامة الصوفي الكاذب الغني بعد الفقر، والعز بعد الذل، والشهرة بعد الخفاء، والتحول من الآخرة إلى الدنيا. التصوف فقر وذل وخفاء، عزلة وتواضع وكمون[1]. هو التحول عن العالم والقوة والشهرة. التصوف هو «التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار». فهو إذن عدم الحراك الاجتماعي، أن يظل الفقير فقيراً وعدم تغيير أسبابه. وفي نفس الوقت هو بذل وإيثار مع أن الفقير لا يملك شيئاً يبذله. والأخطر ترك التعرض والاختيار أي إيثار اللافعل على الفعل، والسلب على الإيجاب، والتنازل عن الحرية والاختيار[2]. التصوف هو الفقر، والصوفي هو الفقير. فيُحد التصوف بأحد مقاماته دون أخذ بالأسباب ثم بعد ذلك يأتي العلم[3]. الفقر بداية التصوف. والفقير ليس له حاجة عند الله. هو الذي لا يملك ولا يُملك. هو الاحتراز من الغني حتى لا يفسد. الفقر ماهية التصوف. ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف. الفقر هو أن لا يستغني الإنسان بشيء دون الحق. هو السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود[4]. والتصوف جامع للفقر والزهد وهما مقامان. وأحيانا يكون التصوف فوق الزهد وفوق الفقر. هو نهاية الفقر مع شرفه.

وقد ارتبط الجمال بالأخلاق. فالحسن الأخلاقي هو أيضاً الحسن الجمالي والقبح الأخلاقي هو أيضاً القبح الجمالي. فالصوفي يدرك القبيح ولا يعظم الحسن مع أن إدراك النقص يكون إدراكاً سلبياً للكمال. فالغياب حضور. وأقبح من كل

(1) القشيرية ص127.
(2) السابق ص127.
(3) اللمع ص46.
(4) «في ماهية التصوف»، عوارف المعارف جـ1/ 317-331.

قبيح صوفي شحيح. فالصوفي كريم مثل الله[1].

وتستعمل عديد من التشبيهات لتعريف التصوف لأنه تجربة وليس تصوراً، مشاهدة عيانية وليس مقولة ذهنية. الصوفي كالأرض يطرح فيها كل قبيح ولا تنتج إلا كل مليح، إتباع السيئة بالحسنة، ودفع الشر بالخير. وهي إحدى وصايا المسيح في «الموعظة على الجبل». التصوف أرض يطؤها البر والفاجر. ويتوقف الأمر على كيفية إخصابها. التصوف كالسحاب يظل كل شيء، كريم لا حدود لعطائه. التصوف كالقطر يسقي كل شيء، عطاء مستمر وليس ثواباً وعقاباً مقنناً[2].

وللمتصوفة آدابهم[3]. مما يجعل التصوف في البداية تصوفاً أخلاقياً لهم آدابهم في الوضوء والطهارات، وفي الصلاة وفي الزكوات والصدقات، وفي الصوم، وفي الحج، تجعل أحكام الشريعة أحكاما إنسانية أخلاقية عامة. وللفقراء آداب وأحكام في الحضر والسفر، وفي الصحبة، وفي مجاراة العلم، وفي الطعام والاجتماعات والضيافات، وفي السماع والوجود، وفي اللباس، وفي الأسفار، وفي بذل الجاه والسؤال والحركة من أجل الأصحاب، وفيما فتح الله عليهم من الدنيا، وفي الاشتغال بالمكاسب والتصرف في الأسباب، وفي الأخذ والعطاء والرفق بالفقراء، وفي المتأهلين ومن له ولد، وفي الجلوس والمجالسة، وفي الجوع، وفي زيارة المرضي، وفي صحبة المشايخ وعطفهم عليهم، وفي ذكر المريدين والمبتدئين، ومن يتفرد ويختار الخلوة، وفي الصداقة والمودة، وعند الموت. فالتصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب[4]. هو آداب كل وقت. ولكل حال ومقام أدب.

وحتى يتبدد وهم أن التصوف ضد الشريعة كان من تعريفات الصوفية أنهم العلماء بالله وأحكامه، العاملون بعلمه، المتحققون بما استعملهم فيه، الواجدون بما تحققوا بما وجدوا حتى لا يفتي كل واحد بما وجد[5]. أصل التصوف ملازمة

(1) حمدون القصار، القشيرية ص127.
(2) الجنيد، السابق ص127.
(3) كتاب آداب المتصوفة ص194-282.
(4) القشيرية ص127.
(5) اللمع ص47.

الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات. وما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء وبتأثيره في الانتهاء[1]. التصوف نوعان: صحيح وفاسد. الصحيح هو الشريعة والسلوك القويم. والفاسد هو البدعة والابتداع والرخصة. وأوائل بركة الدخول في التصوف تصديق الصادقين في الإخبار من أنفسهم عن مشاعرهم[2]. وهو ما يتنافي مع التحقق من الرواية، وافتراض صدق الراوي بلا برهان. وهو بداية التبعية والتقليد والعودة من علوم الدراية إلى علوم الرواية.

التصوف الخلق مع الخلق، والصدق مع الحق[3]. فأخلاق الذات تؤدي إلى توحيد الذات. والتصوف هو إثبات الذات والعكوف عليها[4]. وهو معنى إثبات الذات عند إقبال. ولا يعني إثبات الذات الغرور والترفع وطلب الكثير والعجب بالنفس[5]. الصوفي متفرد عن الخلق[6].

ب ـ التصوف النفسي. وهو المعنى الذي يبدأ من النفس لسلوك الطريق بداية بالوقت أي باللحظة، لحظة التوبة. واختيار التحول هو أن يكون الإنسان في كل وقت بما هو أولي به في الوقت[7]. التصوف علم لبواطن القلوب. فمن اعتني بظاهره فإن باطنه خراب. هو استرسال النفس مع الله على ما يريد، وتسليم الانقياد له. هو تخل عن الذاتية والمسؤولية الفردية، وثقة زائدة بالآخر. ومن لم ينظر في التصوف فهو غبي لأن التصوف هو عالم الشعور. هو ترك الفضول أي

(1) طبقات الصوفية ص488.
(2) السابق ص511.
(3) عوارف المعارف جـ2/ 365.
(4) الصوفية هم «القائمون بعقولهم على همومهم، والعاكفون عليها بقلوبهم، المعتصمون بيدهم عن شر نفوسهم»، اللمع ص45.
(5) «للقبيح عندهم وجوه من المعاذير، وليس للكثير عندهم موقع فيرفعوك به فتعجب بنفسك»، السابق ص46.
(6) «تراني عيون الغيب أني مثلهم. ولو رأوني كيف صفتي في الغيب كانوا دهشاً»، شطحات الصوفية ص101.
(7) اللمع ص45، القشيرية ص127، طبقات الصوفية ص421-422.

شحذ الطاقة نحو غاية واحدة وعدم التشتت[1]. هو القوامية لله على النفس، وأن يكون الصوفي مع الله علاقة وتخل عن السببية[2]. الصوفي من سمع السماع وأنكر الأسباب. فمتي نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده[3].

التصوف هو «الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق»[4]. فالحقائق النازلة تستدعي ترك الحقائق الصاعدة. وهل العلاقة بين الحقائق الإلهية والحقائق علاقة تضاد وتناقض «إما . . . أو» أو علاقة تقابل وتماثل؟ ومن الذي سيدافع عما في أيدي الخلائق أو يحقق فيه العدل بين الناس؟

الصوفية قوم أعطوا حتى بسطوا، ومنعوا حتى فقدوا ثم نودي عليهم من أسرار قريبة بالبكاء عليهم[5]. وهي حالات القبض والبسط، والفقد والوجد، والحزن والبكاء، وتحويل تقلبات العالم الخارجي في الزيادة والنقصان إلى حالات شعورية. ولو خير الصوفي بين حالين لاختار الأحسن والأعلى. وهي أيضاً مقامات. فالتصوف نشر مقام واتصال بدوام[6]. التصوف إنامة على باب الحبيب وإن طرد عنه. والصوفي في مقام المحبة. وهو الحب المطلق من طرف واحد. وهو وصف القرب بعد كدورة البعد بناء على حالتي القرب والبعد[7]. الصوفي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء. وصل إلى حالة روحية تمحو إحساسات المنفعة والضرر، واللذة والألم[8]. فالطريق الصوفي بداية التصوف النفسي. وهو يدل على الطابع النفسي الدفاعي للتصوف.

والتصوف يؤخذ عنوة وليس صلحاً عن طريق الرياضة والمجاهدة. وهم جماعة مغلقة لا يدخل عليهم غريب[9]. وهو أيضاً «ذكر مع اجتماع، ووجد مع

(1) السابق ص127، طبقات الصوفية ص428.
(2) اللمع ص46، القشيرية ص127.
(3) طبقات الصوفية ص421-422.
(4) معروف الكرخي، اللمع ص46، القشيرية ص127.
(5) السابق ص127.
(6) اللمع ص45.
(7) القشيرية ص127.
(8) السابق ص127.
(9) السابق ص127.

استماع، وعمل مع إتباع». يشير إلى بداية الطريق الصوفي بالذكر الجماعي والسماع والعمل بالقدوة الصالحة[1]. فهو حلقة لأهله، مجتمع مغلق «أهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم»[2]. وتتعدد الطرق الصوفية. ويختلف المشايخ فيما بينهم. فمازال الصوفية بخير ما تنافروا. فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم[3]. خلاف الصوفية رحمة بينهم مثل خلاف الأئمة، مما يشير إلى أهمية التعددية والطرقية[4]. ومن صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك. ولماذا لا يصاحب الإنسان فريقاً بنفس وقلب والتزام ليحقق قصداً مشتركاً؟

هو مجرد طريق إليه طريق التوكل والزهد، والشكر والصبر. والرضا والورع والقرب والبعد من المقامات والأحوال. وهناك ألفاظ أخرى لم تتحول إلى مصطلحات مثل الحجا والنهي، والرقدة والهبة، والبلاغة والعي، والتخنيق والتنفيس، والتكدير والتخليص[5]. والغالب على الكل الثنائيات المتعارضة. الأهبة هي العزيمة، ولكن بقي لفظ العزيمة وسقط لفظ الأهبة[6]. التصوف إخلاص أعمال الظاهر، وتصحيح أحوال الباطن. هو الصبر تحت الأمر والنهي دون اعتراض وتحويل الوحي إلى قهر بدلاً من حرية اختيار وإلى فرض بدلاً من طبيعة[7]. طريق التصوف الخلقي، والتصوف النفسي، الرياضات والمجاهدات، أشياء يشعر بها الإنسان بنفسه ويحصل عليها بجهده ويحمد الله عليها[8]. الصوفي

(1) الجنيد، السابق ص127.
(2) السابق 127.
(3) السابق ص127.
(4) طبقات الصوفية ص181-182.
(5) السابق ص515-517.
(6) «أتدري ما الأهبة؟ هي أن تجدد العزيمة في نفسك من قاذورات هذه الدنيا، ثم تصل العزيمة بالصريمة في الصبر على واردات البلوي. ثم تطهر بباطنك نفسك، ثم تستر بباطنك لظاهرك، ثم تعتمد إلى الحق معتقدا، وتثابر على العمل معتمدا»، السابق ص245.
(7) السابق ص454.
(8) «قد سمعت فنوناً من القول في المعرفة والتوحيد، والتوكل والزهد، والعبادة والوجد، والشكر والصبر، والوسوسة والخطرة، والدعاء والمناجاة، والتفويض والتقييض، والرضا والسخط، والورع والتقي، والحجا والنهي، والرقدة والهبة، والمراد والمريد، والصلاح والفساد، والسر والجهر، والقرب والبعد، والانبساط والانقباض، والإقدام والإحجام، =

هو من إذا استقبله حالان أو خلقان كلاهما حسن كان مع الأحسن. فالتصوف طلب الكمال والرقي[1]. هو «إسقاط الجاه وسواد الوجه في الدنيا والآخرة» أي التحول في القصد من العلن إلى السر، ومن العالم إلى الله، ومن الدنيا إلى الآخرة كشرط لسلوك الطريق[2]. وحتى الكلاب لا تنظر إلى أرواح من لم يسلك الطريق[3]. والصوفي يكون مع الواردات لا مع الأوراد. فالأوراد والأذكار والرياضات والمجاهدات في البداية حتى ترد اللوامع والهوامع على النفس[4]. الصوفي المصطلم بما لاح من الحق، من علوم الذوق[5]. والتصوف نور شعشاني رمقته الأبصار فلاحظها[6]. هو استقامة الأحوال مع الحق[7].

جـ ـ التصوف الفلسفي: والتصوف أيضاً قول في المعرفة والتوحيد. أرفع العلوم في التصوف علم الأسماء والصفات، وتمييز الخلاف عن الاختلاف. التصوف الفناء عن الذات والبقاء بالله «أن يميتك الحق عنك، ويحييك بك»[8]. والموت عن الذات فناؤها، والإحياء بالله بقاؤها بقواها الذاتية. ثمن التصوف الفناء فيه ثم البقاء فيه إلى الأبد لأن الفناء عن الحس بقاء بمشاهدة المطلوب إلى الأبد. يعني الفناء في التصوف الإخلاص له، والبقاء للمشاهدة، رؤية الذات في الموضوع، والموضوع في الذات[9]. الصوفي «من يرى دمه هدراً وملكه مباحاً»[10]. فهو شهيد العشق الإلهي، يفعل الله فيه ما يشاء بعد أن يتخلى عن إرادته وحرية اختياره ويسقط تدبيره. «الصوفية أطفال في حجر الحق». وهو ما

= والبلاغة والعي، والرياء والإخلاص، والتحقيق والتلبيس، والتخنيق والتنفيس، والتكدير والتلخيص»، التوحيدي: الإشارات الإلهية ص227.

(1) القشيرية ص127.
(2) السابق ص128.
(3) السابق ص128.
(4) السابق ص128.
(5) السابق ص128.
(6) طبقات الصوفية ص357، الرسالة ص128.
(7) طبقات الصوفية ص511.
(8) الجنيد، القشيرية ص126.
(9) طبقات الصوفية ص412.
(10) التستري، القشيرية ص127.

يعني إسقاط التدبير[1]. التصوف ترك التكليف وبذل الروح.

التصوف جلوس مع الله بلا علاقة أي بالاندماج المطلق فيه[2]. والصوفي هو المشير عن الله، والدليل عليه[3]. هو نعت يقيم الإنسان فيه ونعت للحق حقيقة[4]. هو واسطة بين العبد والرب ليس بشخصه بل لصفاته[5]. هو شفيع بيد الخلق. وأحيانا أخرى يرفض الصوفي أن يكون واسطة بين الخالق والمخلوق حتى لا ينشغل بالمخلوق عن الخالق كما يفعل الغافل[6]. الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق[7]. التصوف إسقاط رؤية الخلق ظاهراً وباطناً. ولا يكون له قبول عند الخلق. ويكون مرجعه في كل الأحوال إلى الله. الصوفي هو ما سماه الحكماء المتوحد. والطريق الصوفي هو «تدبير المتوحد». وتعني ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ إبعاده عن كل غير. وهي أنانية لا تجوز على الله. وماذا يبقى منه في العالم؟ ومن الذي سيعمره ويستخلف فيه؟ وإذا كان الصوفي لن يراه فلماذا التقريب إلى هذا الحد وعدم بلوغ المنتهي؟ الصوفية أثرة الله في خلقه، يظهرها أو يخفيها[8].

الصوفي وحداني الذات، لا يقبله أحد ولا يقبل هو أحداً، ذاتية فريدة. فالأنا تساوي الأنا قبل الأنا تختلف عن الآخر. فقانون الهوية سابق على قانون الاختلاف[9]. المتناهي في حاله يتوقى كل شيء، ويدخل في كل شيء، ويأخذ من كل شيء، ولا يسترقه شيء، ولا يؤخذ منه شيء[10]. وإذا كان «التصوف

(1) طبقات الصوفية ص158.
(2) الشبلي، السابق ص127.
(3) أبو منصور، السابق ص127.
(4) شطحات الصوفية ص167.
(5) «ليس بي يتمسحون لكن يتمسحون بحلية حلانيها ربي فكيف أمنعهم من ذلك وذلك لغيري؟ شطحات الصوفية ص99. «وقع في خاطري أن استقبلك وأتشفع إلى ربي بك»، السابق ص206.
(6) «إلهي، الخلق لك، وأنت مالكهم، مالي والتكلف بالدخول بينك وبين خلقك لولا الغفلة»، السابق ص146.
(7) الشبلي، القشيرية ص127.
(8) اللمع ص46.
(9) الحلاج، القشيرية ص127.
(10) طبقات الصوفية ص436.

عصمة عن رؤية الكون»[1]. فمن الذي سيمكث فيه ويعمره ويصبح خليفة الله في أرضه؟ وإذا كان التصوف انقياداً للحق فمن الذي سيدحض الباطل؟ هي علاقة مباشرة مع الله، أن يكون الإنسان مع الله بلا علاقة، استرسال النفس مع الله على ما يريد[2]. التصوف هو إيثار الله على كل شيء وإيثار الله له على كل شيء[3]. فهو وحدانية مطلقة بين الطالب والمطلوب، والراغب والمرغوب. الصوفي لا تقله أرض ولا تظله سماء فالله يرعاه. ولأنه أصبح مثلاً أعلى في كل مكان، تحول من الشخص إلى الكون، ومن الجزء إلى الكل[4].

التصوف «حال تضمحل فيه معالم الإنسانية» وهي حالة الفناء. فمن الذي يبقي؟[5]. هو يرقة محرقة حتى ولو حرق نفسه. التصوف الإعراض عن الاعتراض[6]. وهو ما تحاوله النظم السياسية التي تقوم على القهر والتسلط ضد المعارضة. والصوفي لا يوجد بعد عدمه، ولا يعدم بعد وجوده. فقد تحول إلى سلب مطلق بلا حركة أو انتقال من الوجود إلى العدم سلباً أو من العدم إلى الوجود إيجاباً[7]. هو السكون عند العدم والإيثار عند الوجود. يفنى عن نفسه ولا يبقى. وكيف يكون إيثاراً وهو غير موجود؟[8]. وجده وجوده، وصفاته حجابه. هو الوجود المتجلي. صفاته سلب وهو الحجاب. إن وصف جمد، وإن تخلى كشف. فهي وصف الله. فإن كل ما خطر بالبال فالله على خلافه. وإن لم يصف كشف له الحجاب ووقع في مغامرة الشطح[9]. الصوفي «مقهور بتصريف الربوبية، مستور بتصرف العبودية». فالربوبية قهر والسلطة السياسية قهر. والقهر الديني والقهر السياسي قرينان. والإنسانية مجرد ستار يخفي القهر والتسلط. ولماذا لا تكون الربوبية تحرراً بفعلى النفي والإثبات في «لا إله إلا الله»، وتكون الإنسانية

(1) المزين، القشيرية ص127.
(2) اللمع ص45.
(3) السابق ص46.
(4) السابق ص48، القشيرية ص127.
(5) أبو يعقوب المزايلي، السابق ص128.
(6) أبو سهل الصعلوكي، السابق ص128.
(7) طبقات الصوفية ص491، القشيرية ص128.
(8) السابق ص128.
(9) طبقات الصوفية ص491.

حقيقة رافضة لستار العبودية؟ والصوفي لا يتغير. فإن تغير لا يتكدر[1]. الصوفي في حالة من السكون الدائم أشبه بالنرفانا الهندية، ولا يتأثر بالتغير، لا سلباً ولا إيجاباً. لا يتعبه طلب، ولا يزعجه سلب. ومع ذلك التصوف اضطراب. فإذا وقع سكون فلا تصوف. فالروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية. التصوف حركة وحياة وقلق. السكون في الفلسفة وفي العقائد وليس في التصوف الذي يبحث عن معنى الحياة، والأصول التي تحقق مصالح الناس المتغيرة. الصوفي لا ينزعج في انزعاجه. ولا يقرر في إقراره. الصوفي في حركة مستمرة لا يسكن له قرار[2].

التصوف صفة الحق يلبسها العبد[3]. ومع أن التصوف هو الإشكال والتلبيس والكتمان إلا أنه مذهب كله جد، ولا يخلط بشيء من الهزل مثل الخزعبلات أو ادعاء الجنون باسم الولاية[4]. الصوفي لا يطلب صفة تعينه إذا ضعف بل يطلب الولاية الروحية[5]. التصوف طرح النفس في العبودية ومن الصعب التمييز بين العبودية لله والعبودية لغيره طالما أن العبودية هي البنية النفسية للإنسان. وتعليق القلب بالربوبية هو إخراج الذات عن ذاتها، وتعليق وجودها على غيرها. واستعمال كل خلق سني هو العودة بالتصوف إلى المرحلة الخلقية، والنظر إلى الله بالكلية بداية لوحدة الشهود.

وقد يكون تعريف التصوف شاملاً الخلقي والنفسي والفلسفي في آن واحد، تصفية القلب من الأكدار وهو التعريف العملي، والخروج من رق الصفات الإنسانية وهو التعريف بالحقيقة، والتحلي بالصفات الإلهية وهو التعريف بالحق[6]. أوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة. فالإبداع جماع العلم والعمل.

---

(1) السابق ص128.

(2) السابق ص489.

(3) شطحات الصوفية ص110.

(4) «طرح النفس في العبودية، وتعليق القلب بالربوبية، واستعمال كل خلق سني، والنظر إلى الله بالكلية» السابق ص138.

(5) السابق ص184.

(6) «بشرط العلم، وهو تصفية القلوب من الأكدار، واستعمال الخُلق مع الخليقة، وإتباع الرسول في الشريعة. وجواب بلسان الحقيقة وهو عدم الأملاك، والخروج من رق الصفات والاستغناء بخالق السماوات. وجواب بلسان الحق، أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم، وصفاهم من صفاتهم»، اللمع ص48.

3 ـ من هم الصوفية؟

وقد نشأ التصوف نشأة داخلية محضة من القرآن والحديث في ظروف نقيضة لما تدعو إليه النصوص. فنشأ التصوف كرد فعل عليها[1]. الفضيلة في مقابل الرذيلة، والنفس في مقابل البدن، والآخرة بدلاً من الدنيا، والله بديلاً عن العالم. فللصوفية فضائل كبري. فهم أحق الخلق بحقائق التقوى، وأحوج العباد إلى الزهد، وأعلم الناس بالعمل والخواطر وعلم الباطن والإخلاص والوقت والحال والحلال والفقه والأمر والنهي والتوحيد. ثم يكرمون بخوارق العادات. هم أعلم الناس بالنفس وأهوائها، والمقامات والأحوال والمحاسبة والمراقبة والإنابة[2]. هم الذين أحيوا السنة وصفوا أنفسهم من مغانم الدنيا. سلكوا طريق المشايخ والمريدين. وهو ليس طريق المجاذيب ولا المجتهدين. الأول تنكشف له الحقائق ولا يجتهد فيها. والثاني يجتهد في الحقائق دون أن تنكشف له[3].

والمتشبه بالصوفي له معنيان. إيجابي بالمحبة، وسلبي بالادعاء. فالإنسان مع من أحب وهو المعنى الإيجابي للمتشبه بالصوفية من أجل سلوك طريقهم. أوله إيمان ثم علم ثم ذوق. والمتشبه في أحد مراحل الطريق. المتشبه صاحب إيمان، والمتصوف صاحب علم. وهو الفرق أيضاً بين الصوفي والمتصوف، بين العالم والمتعلم، بين الفيلسوف والمتفلسف. الصوفي في مقام المتفردين، والمتصوف في مقام السائرين. الصوفي في مقام الروح، صاحب مشاهدة. والمتصوف في مقاومة القلب صاحب مراقبة، والمتشبه في مقاومة النفس وصاحب مجاهدة ومحاسبة. تلوين الصوفي بوجود قلبه وتلوين المتصوف بوجود نفسه. والمتشبه لا تلوين له لأن التلوين لأرباب الأحوال والمتشبه مجتهد سالك[4].

والصوفي إن نطق ينطق عن الحقائق. وإن سكت تكلمت عنه الجوارح بقطع العلائق. فالتعبير بالقول والفعل[5]. والتصوف خلو الأسرار مما عنه بد، وتعلقها

(1) «في ذكر منشأ علوم الصوفية»، عوارف المعارف جـ1/ 221-239.
(2) «بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها»، السابق ص263-302.
(3) «شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم»، السابق ص302-317.
(4) «ذكر المتصوف والمتشبه به»، السابق ص345-359.
(5) ذو النون، طبقات الصوفية ص19.

بما ليس منه بد[1]. ويلزم الصوفي حفظ السر وأداء الفرض وصيانة الفقر، ثلاث متطلبات تجمع بين الشريعة والأخلاق والباطن[2]. والقعود مع كل طبقات الناس أسلم من القعود مع الصوفية. فإن الخلق قعدوا على الرسوم، والصوفية قعدوا على الحقائق. طلب الخلق ظواهر الشرع، وطالب الصوفية أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق. فمن قعد معهم، وخالفهم في شيء مما يتحققون فيه نزع الله نور الإيمان من قلبه. عظمت فيهم البلية. واستحكمت عليهم الفتنة، فاستصغروا كل مقام، وعزب عنهم التدبير والنظام. يبذل الصوفية الروح. ومن أراد الدخول معهم فليفعل فعلهم. التصوف هو التبري عمن دونه، والتخلي عمن سواه[3].

حال الصوفي أن دينه هواه، وهمته شقاه، ليس بصالح تقي ولا عارف تقي[4]. ما فطنت إلا هذه الطائفة واحترقت بما فطنت[5]. الصوفية عبيد الظواهر أحرار البواطن[6]. ولماذا لا تتخارج الحرية من الداخل إلى الخارج؟ الصوفي من عزفت نفسه عن الدنيا تظرفاً، وعلت همته عن الآخرة، وسخت نفسه بالكل طلباً وشوقاً إلى من له الكل[7]. الصوفي هو من يشق طريقه بعيداً عن الدنيا والآخرة، طريق النفس والقصد والغاية. هم الرزق قائم في قلب كل صوفي. ولزوم العمل أقرب إلى الله. وعلامة ركون القلب والسكون إلى الله أن يظل قوياً عند زوال الدنيا، والثقة بما في يد الله أكثر من الثقة بما في يده[8]. فالصوفي أقرب إلى البطل منه إلى الشخص العادي. هم أصحاب الأخلاق المرضية[9]. والصوفية يحسنون الاستماع للوحي دون الوسواس من النفس الأمارة بالسوء والحظوظ العاجلة وأهواء الدنيا من أجل تصفية النفس وطاعتها والاستجابة لأربعة مطالب:

(1) أبو العباس بن مسروق الطوسي، السابق ص239.
(2) التستري، السابق ص208.
(3) علي بن سهل الأصبهاني، السابق ص235.
(4) رويم بن أحمد البغدادي، السابق ص184.
(5) أبو عبد الله المغربي، السابق ص245.
(6) أبو بكر الكتاني، السابق ص375.
(7) أبو بكر الكتاني، السابق ص377.
(8) أبو الحسين بن بنان، السابق ص389.
(9) مظفر القرميسيني، السابق ص396.

التوحيد، والتحقيق، والتسليم، والتقريب. فالاستجابة على قدر السماع من حيث الفهم. والفهم على قدر المعرفة والعلم بمقاصد المتكلم. ووجوه الفهم لا نهاية لها مثل وجوه الكلام. فأول العلم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر، خمس درجات[1].

علامة الصوفي أن يكون مشغولاً بكل ما هو أولي به من غيره، معصوماً عن المذمومات[2]. هو المتوحد الذي يحشد طاقاته نحو غاية واحدة. وبهذا المعنى لا ينشغل بما يبدد طاقاته إلا في لحظات الضعف البشري والثقل الوجودي. الصوفي بربه والزاهد بنفسه[3]. مع أن الصوفي أيضاً قد يكون بنفسه والزاهد بربه. فالزهد أحد مقامات التصوف[4]. التصوف ينفي عن صاحبه البخل كما تنفي كتب الحديث عن صاحبها الجهل. فإذا اجتمعا في شخص واحد فهو النبيل. فالنبل يجمع بين العلم والكرم[5].

الصوفية متفقون في الوحدانية في الجملة قولاً، متفرقون في الوصول إليها معاينة ومنازلة[6]. وكل واحد استحق اسم ما ظهر عليه من حاله الذي هو به

(1) عوارف المعارف جـ1/ 239-263.

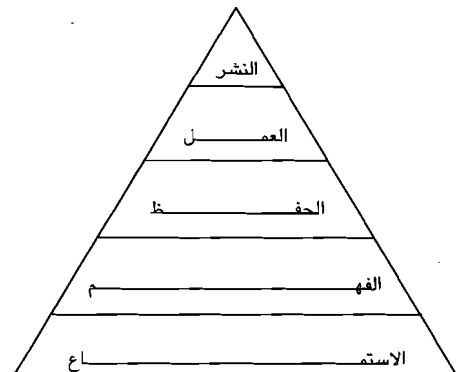

(2) أبو بكر محمد بن داود الدقي، طبقات الصوفية ص448.
(3) السابق ص495.
(4) السابق ص500.
(5) السابق ص503.
(6) بندار بن الحسين الشيرازي، طبقات الصوفية ص467/ 469.

موصوف بعد اتفاقهم في الوجدانية قولا مثل: مجتهد، زاهد، عابد، خائف، راج، غني، فقير، مريد، مراد، صابر، راض، متوكل، محب، مستهتر، مستأنس، مشتاق، واله، هائم، واحد، فان، باق ...الخ. وقد تجتمع الأحوال في واحدة ويسمي بما عليه الجميع[1].

الصوفية هم أهل السنة والجماعة. هم الفرقة الناجية. فعقود القلب من السنة المجتمع عليها. والمتكلمون: المعتزلة والمرجئة والحرورية والخوارج هم الفرق الضالة الهالكة. وهم الذين ابتدعوا قضية خلق القرآن والتحكيم بوضع المصاحف على السيوف، والصلة بين الإيمان والعمل. وكلها نبعت بالعراق. ومنه طلع قرن الشيطان، وظهرت فيه الفتن. وفي العراق أيضاً ظهر التصوف في البصرة عند رابعة والحسن، وفي بغداد عند الحلاج[2]. والمغالون مجاوزون للسنة والآثار. والمبطلون مدعون بالرأي والقياس. والجاهلون الشاطحون من المتصوفة الضلال.

4 ـ الأولياء والفتيان والملامتية والشطار والظرفاء والبهاليل

النبوة للأنبياء، والولاية للأولياء. الأنبياء للمشاهدة، والأولياء للمجاورة، والصالحون للملازمة، والعوام للمجاهدة[3]. أرواح الأنبياء في حالة الكشف والمشاهدة. وأرواح الصديقين في القربة والاطلاع[4]. ويسمع الصوفي صوت الله الداخلي، هاتفاً باطنياً، إلهاماً لا وحياً مباشرة ودون واسطة. من كان لله مطيعاً كان الله له ولياً يثق بالله ويحكم عليه ولاستجاب لسؤاله حتى لو كان زوال الدنيا[5]. فالله يأخذ الصوفي ولياً. والصوفي يأخذ الله ولياً. فالولاية متبادلة.

اطلع الله على قلب أوليائه. فمن لم يصلح منهم للمعرفة شغله بالعبادة[6]. فالعبادة أقل من الولاية. ومن صفات الأولياء، الثقة بالله في كل شيء، الغني به

(1) أبو بكر الطومستاني، السابق ص474.
(2) قوت القلوب جـ2/ 259-260/ 262-273.
(3) طبقات الصوفية ص269.
(4) السابق 318.
(5) ذو النون، السابق ص19.
(6) البسطامي، السابق ص71.

عن كل شيء، والرجوع إليه في كل شيء[1]. والسؤال: ألا توجد مرجعية أخرى يمكن استعمالها كمقياس للصدق؟

بُسط بساط المجد للأولياء ليأنسوا به وليرفع عنهم حشمة بديهية المشاهدة. وبساط الهيبة بسط للأعداء ليستوحشوا منه قبائح أفعالهم. فلا يشاهدوا ما يستروحون منه إليه في المشهد الأعلى[2]. الولي من يوالي أولياء الله ويعادي أعداءه[3]. وإذا زاد الله في الولي ثلاثة زاد منه ثلاثة. إذا زاد جاهه زاد تواضعه، وإذا زاد ماله زاد سخاؤه، وإذا زاد عمره زاد اجتهاده.

أبى المليك إلا اختيار الأولياء ومتعرضاً لهم بأعدائه. ويختبر في قربه بعدوه لمعرفة صبرهم عليه. فإن صبروا على بلوي الأعداء جلّلهم بالعلم، وحباهم بالوصل، وأسكنهم في جواره، ونعّمهم بمشاهدته، ولذذهم بذكره، وأوصلهم بمعرفتهم، وجعلهم أئمة يقتدى بهم، ونجاة لعباده ورحمة لهم في أرضه، وجعل محبتهم في قلوبهم، وأنسهم في رؤيتهم، وحلاوة في قلوبهم[4]. ولا يعظم أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله. ولا يقدر الولي إلا الولي. في حين ينكر الولاية الجهال في قلوبهم لضيق الصدور من الصادر، وبعد العلوم عن موارد القدرة. والاستهانة بالأولياء من قلة المعرفة بالله[5].

والولي لا يسمي نفسه ولياً ولا يشير إلى سمة يتسم بها لأن من شروطه عدم تعرف الآخرين عليه. الولي لا يفشي سره مباشرة أو على نحو غير مباشر كأن يظهر فقره وزهده. وأفضل عمل رعاية السر، وعدم الالتفات إلى شيء سوى الله[6]. وهو في ستر حاله أبداً. والكون كله ناطق من ولايته. والمدعي ناطق به. والكون كله ينكر عليه[7]. الولاية كالنبوة بها صدق وادعاء. الأولياء أسرار نعم الله. والأصفياء رهائن كرمه. والأحباء عبيد منته. فهم عبيد محبته لا يُعتقون،

(1) أحمد بن خضرويه، السابق ص103/ 106.
(2) أحمد بن أبي الورد، السابق ص250-251.
(3) محمد بن أبي الورد، السابق ص250.
(4) أبو عثمان المغربي، السابق ص480-481.
(5) السابق ص282.
(6) السابق ص103/ 106.
(7) السابق ص318.

ورهان كريم لا يفكون وأسرار نعم لا يطلقون. فالولي عبد وأسير ورهين[1]. الولاية فضل. وكما أن لأهل الفضل فضل لم يروه فإذا رأوه فلا فضل لهم فكذلك لأهل الولاية ولاية لم يروها. فإذا رأوها فلا ولاية لهم[2]. فالفضل والولاية من الأسرار، من عالم اللاشعور.

وعلامة الأولياء أن تكون همومهم لله، وشغلهم فيه ومزارهم إليه[3]. وعلامتهم أيضاً خوف الانقطاع عنه لشدة في قلوبهم من الإيثار له والشوق إليه[4]. وعلامة الولاية ثلاثة: تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وإنصاف عن قوة[5]. والحرص على استمرار الولاية غرور. فلم يحرص الأنبياء على استمرار النبوة.

من نظر إلى ولي فقبله وأكرمه أكرمه الله على رؤوس الأشهاد[6]. فالولي لله. ومن والاه فقد والي الله. وما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله مما يحبون. محبة أولياء الله دليل على محبة الله. والله لا يحتاج إلى واسطة في محبته. وقد عجل الله لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه. وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم وأجزل نصيبهم من كل شيء، أبدانهم من الجنانيين وأرواحهم من الربانيين. فالأولياء أصحاب مصلحة مزدوجة في الدنيا والآخرة، في البدن والنفس. ولهم لسانان، واحد يعرفون به الصنائع الإلهية، وواحد في الظاهر يعرفون به علم المخلوقين. لسان الظاهر يكلم الأجساد ولسان الباطن يناجي الأرواح[7]. ويُعرف الأولياء في الخلق بلطف لسانهم، وحسن الأخلاق، وبشاشة الوجوه، وسخاء الأنفس، وقلة الاعتراض، وقبول الأعذار، والشفقة على الخلائق، برهم وفاجرهم[8].

وكما يظهر للأنبياء معجزات وآيات، للأولياء كتمان كرامات حتى لا يفتن

(1) السابق ص110.
(2) شاه الكرماني، السابق ص193.
(3) السابق ص90.
(4) السابق ص418.
(5) السابق ص254.
(6) الجنيد، السابق ص162.
(7) أبو سعيد الخراز، السابق ص229.
(8) السابق ص415.

الناس بها[1]. الأولياء مرتبطون بالكرامات والدرجات. والأنبياء مكشوف لهم عن حقائق الحق. فالكرامات والدرجات عندهم وحشة[2]. الأنبياء منبسطون على بساط الأنس، والأولياء على درجات الكرامة[3]. الولي من أيد بالكرامات وغُيّب عنها. فالكرامة علامة الولاية[4]. ومن عامل الله على رؤية ما سبق منه إليه مشى على الماء أو في الهواء فليس بشيء من الله بعجيب. ومن تأدب بآداب الصالحين يصلح لبساط الكرامة، وبآداب الأولياء يصلح لبساط القربة، وبآداب الصديقين يصلح لبساط المشاهدة، وبآداب الأنبياء يصلح لبساط الأنس والانبساط[5] تظهر الكرامات على من عامل الله على رؤية السبق[6]. من أظهر كراماته فهو مدع ومن ظهرت عليه الكرامات فهو ولي. فالكرامة تظهر طبيعية لا صنعة. آيات الأولياء وكراماتهم رضاهم بما يُسخط العوام عن مجاري المقدور. مع أن العوام تعشق كرامات الأولياء لأنها من صنع خيالهم. وتتعدد مستويات الكرامة. فالطيران في الهواء أفضل من المشي على الماء[7]. وقد أعار الله بعض أخلاق أوليائه إلى أعدائه ليستعطف بهم على أوليائه، وكأن الله يلجأ إلى التحايل ويعير الصفات من شخص إلى آخر وكأن الصفات غير ذاتية[8].

ومع الولاية هناك الفتوة. فالفتى معنى آخر للصوفي، والفتيان للصوفية، والفتوة للتصوف. ليست الفتوة فقط إسقاط الرؤية وترك النسبة ولكنها أداء

(1) أبو عمرو الدمشقي، السابق ص277.
(2) التستري ص213.
(3) السابق ص321.
(4) السابق ص121.
(5) السابق ص270.

الأنبياء	الأنس
الصديقون	المشاهدة
الأولياء	القربة
الصالحون	الكرامة

(6) أبو الحسين بن بنان، السابق ص390.
(7) السابق ص351.
(8) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق ص429.

الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف. وهي زيادة على آدم وذريته. تؤخذ من الاستعمال والمعاملة وليس من النطق. وتعرف بالممارسة وليس بالتعريف. ومن علامة الفتى أن يري الفتيان ولا يستحي منهم في شمائله وأفعاله. الفتوة أن تنصف ولا تنتصف[1].

الفتوة عذر الإخوان في الزلات وعدم معاملتهم بما يوجب الاعتذار[2]. الفتوة إذن هي الشهامة. هي احتقار النفس وتعظيم حرمة المسلمين. تقوم على إنكار الذات والتضحية بالنفس في سبيل الآخر[3]. من النفاق لبس لباس الفتيان دون حمل أثقال الفتوة. الفتوة رؤية أعذار الخلق وتقصير الذات، وتمامهم ونقصانها والشفقة على الخلق كلهم برهم وفاجرهم. وكمال الفتوة هو عدم الانشغال بالخلق عن الله[4]. الفتوة رؤية فضل الناس بنقصان الذات[5]. هي سمة التواضع، وعدم رؤية الإنسان زيادة فضل له على غيره. هي فضيلة دون رؤية النفس فيها. الفتي من لا خصم له ولا يكون هو خصماً لأحد. بل الخصومة لله على النفس. الفتوة كف الأذي وبذل الندي والمسالمة لدرجة عدم منافرة الفقير ومعارضة الغني وهما ضروريان للتغير الاجتماعي. الفتى من كسر الصنم مثل إبراهيم، وتكسير الأصنام رمز للقضاء على الضلال الديني والانحطاط الخلقي والفساد الاجتماعي. كما أن الفتوة عدم الهروب من المسائل وعدم الاحتجاب من القاصدين[6].

وهي الستر على عيوب الأصدقاء حماية لهم من شماتة الأعداء. وهي من طباع الأحرار. واللؤم من شيم الأنذال[7]. الفتوة واللؤم نقيضان مثل الشهامة والخسة، البطولة والجبن. التصوف هو الحرية والفتوة، وترك التكلف في السخاء، والتظرف في الأخلاق، والعودة إلى الطبيعة. الفتوة حفظ السر مع الله على

(1) أبو حفص النيسابوري، السابق ص117-118.
(2) رويم بن أحمد البغدادي، السابق ص183.
(3) السابق ص436.
(4) أبو عبد الله السجزي، السابق ص255.
(5) أبو عبد الله المغربي، السابق ص511.
(6) القشيرية ص103-105.
(7) شاه الكرماني، طبقات الصوفية ص193.

الموافقة، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة واستعمال الخُلُق[1]. الفتوة هي حسن العلاقة مع الله والبشر على مستوى الأخلاق. هي الإيمان بالله بلا واسطة. أصل الفتوة الحفاظ، والشكر، والصبر، والرضا[2]. وبعضها أخلاق وبعضها مقامات. الفتوة ما عليه الأنصار، الفتوة العملية، إيثار الآخر على النفس[3]. هي الإيثار مع العطاء، والشكر مع المنع، إظهار النعمة وأسرار المحنة. الفتوة حسن المراعاة، ودوام المراقبة، واتحاد الظاهر والباطن. والفتى من يخالف هواه، ومن يترك ما يهوى لما يخشى[4]. الفتوة حسن الخلق وبذل المعارف لمن تبغضه، وبذل المال لمن تكرهه، وحسن الصحبة مع من ينفر القلب معه. هي حالة العطاء المستمر، ومقابلة الإساءة بالإحسان، الإقبال على الناس دون مقابل. تتضمن الفتوة المروءة والشهامة وربما البطولة. الفتوة إتباع السنة والتقاليد وعدم الخروج عن المعروف.

وللفتوة علامات ثلاث: وفاء دون حلف، ومدح بلا مقابل، وعطاء بلا سؤال[5]. وهي وفاء دون حفاظ. فالفتوة عدم الادخار وعدم الاعتذار أي مناقضة بالبخل والتنصل. وتتحدد الفتوة سلباً كما تتحدد إيجاباً. فليس من الفتوة الربح على الصديق لأن ذلك ضد المروءة، وصب النساء الماء على أيدي الرجال لأن ذلك ضد الشهامة. واستخدام الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة لأن ذلك ضد الأريحية. الفتوة دعوة عشرة وعدم التغير إذا حضر واحد أو أحد عشر. والفتى من لا يميز عند من يأكل عنده بين ولي أو كافر. ويستوي عنده المقيم والطارئ. الفتوة ترك التمييز بين الناس وتفضيل أحد على آخر. ليست فقط أخلاقاً فردية بل هي أيضاً عادات اجتماعية وخصائص للشعوب مثل اشتهار الشام بالفتوة، والعراق باللسان، وخراسان بالصدق[6].

والملامتية من نفس روح الفتوة. فالملامتي لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً.

---

(1) محمد بن الفضل، السابق ص216.
(2) أبو الحسين الوراق النيسابوري، السابق ص301.
(3) عوارف المعارف جـ3/ 36.
(4) أبو الحسن البوشنجي، طبقات الصوفية ص461.
(5) معروف الكرخي، السابق ص89.
(6) القشيرية ص104-105.

ويخفي حاله على وجهين لتحقيق الإخلاص والصدق ولستر الحال عن غيره. يرى كتم الأحوال والأعمال. ويستوحش من ظهورها. ولا يكون لأهل الملامة دعوى على أحد وليس لديه ما يدعيه[1]. الملامتي يخرج الخلق من عمله وحاله. وإن أثبت نفسه فهو مخلص. والصوفي أيضاً أخرج نفسه من عمله وحاله كما أخرج غيره فهو مخلص. وشتان بين المخلص والخالص والمخلص. والفرق في رؤية الإخلاص. الملامتي يتمسك بالإخلاص ويعظم موقعه لديه. والصدق أصل والإخلاص فرع. الملامتي مقيم في أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة خلاصه. وهو الفرق بين الملامتي والصوفي. يتقدم الملامتي على المتصوف ويتأخر عن الصوفي. الملامة خوف القدرية ورجاء المرجئة[2].

عند الملامتية الذكر على أربعة أقسام: ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالسر، وذكر بالروح. ذكر الروح يشمل السر والقلب واللسان وهو ذكر المشاهدة. وذكر السر يشمل ذكر القلب واللسان وهو ذكر الهيبة. وذكر القلب يشمل ذكر اللسان وهو ذكر الآلاء. وذكر اللسان بمفرده هو ذكر العادة[3].

وكما يوجد الفتوة والملامتية يوجد أيضاً الشطار. فالشاطر من شطرت نفسه

(1) طبقات الصوفية ص456.
(2) السابق ص129.
(3) «ذكر الملامتي وشرح حاله»، عوارف المعارف جـ1/ 359-373.

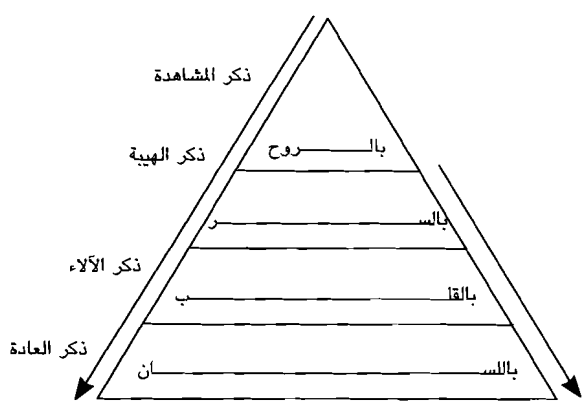

عن الباطل[1]. والظرفاء مع أهل الفتوة وأهل الملامة. الظريف هو الخفيف على ذاته وأخلاقه وأفعاله وشمائله من غير تكلف[2]. والصوفية هم أيضاً البهاليل[3]. والبهلول أشبه بجحا، ظاهره غير باطنه. ظاهره البلاهة، وباطنه الحكمة. ظاهره الجنون، وباطنه العقل[4]. وكلهم «أولاد البلد» و«الجدعان».

5 ـ الحروف والأسماء

اللسان ليس هو العضو الذي في الفم أو اللغة بل هو البيان عن علم الحقائق. علم البلاء لسان. وعلم بلاء البلاء سنان. لسان العلم ما تأدى إلينا بواسطة. ولسان الحقيقة ما تأدى إلينا بلا واسطة. ولسان الحق لا يأتي إلا بالكشف[5]. اللغة حرف واسم ولفظ ومنها تتكون العبارة. وكلها أفعال. الحرف فعل. والاسم فعل، واللفظ فعل. والحروف ليست مسموعة أو مكتوبة فقط في تكوين الألفاظ بل هي حركات وسكنات في العالم. تكوّن الأسماء الحسنى. فهي أكثر من حروف صوتية أو خطية[6]. ولكل حرف حد في التلاوة. ولا يجاوز المسموع في التفسير المنقول[7]. هي حروف المعجم لأن لها معنى في المعاجم[8]. وهي في حاجة

---

(1) طبقات الصوفية ص182.

(2) السابق ص460.

(3) «في البهاليل وأئمتهم في البهللة»، الفتوحات جـ1/ 247-250.

وكن كالبهاليل في حالهم مع الوقت يجرون كالعاقل

السابق ص247.

(4) وهو معنى آية ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، وحديثي «زملوني، زملوني»، «دثروني، دثروني».

(5) اللمع ص430.

(6) «في معرفة مراتب الحروف والحركات من العالم ومالها من الأسماء الحسنى ومعرفة الكلمات، ومعرفة العلم والعالم والمعلوم»، الفتوحات جـ1/ 51-92.

(7) عوارف المعارف جـ1/ 355.

(8) «في معرفة الحروف ومراتبها والحركات وهي الحروف الصغار وما لها من الأسماء الإلهية»، الفتوحات جـ1/ 51-84.

إن الحروف أئمة الألفاظ شهدت بذلك ألسن الحفاظ

السابق ص51.

إلى ترجمة لتعدد الألسنة[1]. الحروف لغات وتصريف وتفرقة وتأليف، موصول ومقطوع ومبهم ومعجم وأشكال وهيئات[2]. الحروف من حيث الشكل منكوسة وأفقية ومستقيمة أي رأسية والغرض من ذلك إظهار «لمع ولوائح وإشارات من أسرار الوجود»[3]. والوجود في الذات[4]

الحرف نطق، والهم صمت[5]. والله قريب من الحرف إن نطق، وبعيد عنه إن صمت[6]. فالله رب الحروف والمحروف فليس لها منه مجال. وهو مرقب الحرف والحروف فليس لها عن فعله مدار. وللحرف حكم أودعه الله. وللمحروف حكم وصفه الله. ويكون التأويل هو التطابق بين الحكم المودع مع الحكم الموضع، والرجوع إلى الله لتنفيذ ما حكم[7]. وسواء ثبت الحرف أو عارضه فلا الإنسان من الله ولا الله من الإنسان[8]. فالتأويل مازال درجة من درجات القرب دون الوصول. والخروج من بين الحروف ينجي من السحر. ثم يسقط الحرف، وتهدم الدنيا والآخرة، ويحترق الكون كله، ويبقي الرب بمفرده. فاللغة مرتبطة بالتخاطب في الدنيا.

والحرف يسري في الحرف في النطق كالنغم. ويقود الحرف الحسن إلى الجنة والسيئ إلى النار[9]. فالحرم هو المقام يوم القيامة. وكلاهما من اشتقاق واحد. ومع ذلك لا يستطيع الحرف التعبير عن المحامد ولا الثبوت في

---

(1) النفري: المواقف ص147-148.

(2) النفري: المخاطبات ص241.

(3) الفتوحات جـ1/ 57.

(4) يا طالب لوجود الحق يدركه ارجع لذاتك فيك الحق فألتزم
السابق ص62.

(5) المخاطبات ص212/ 214.

(6) السابق ص230.

(7) «يا عبد، للحرف حكم أنا مودعه، وللمحروف حكم أنا واضعه. فلا تذهب بالحكم المودع عن الحكم الموضع. فإليه يرجع ما أودع وبه ينفذ ما حكم. يا عبد لا تذهب بالحكم الموضوع عن الواضع فيه يجري ما وضع وإن شاء وقفه»، السابق ص230-231.

(8) «يا عبد ثبت لك الحرف ما أنت مني ولا أنا منك. عارضك الحرف ما أنت في ولا أنا منك... يا عبد فقهتك فتأولت ما أنت في ولا أنا منك...»، السابق ص228.

(9) وذلك مثل جريان الموجة فوق الموجة في الأغاني العاطفية.

المقام[1]. الحرف هوة عميقة يقع فيها من يلتفت إليه أو إلى ما فيه ولا ييأس من الله حتى ولو كانت الحروف سيئة. وأعظم الحروف ما أعطى علماً أو لم يعط. فالعلم مباشر أو غير مباشر. جاهز أو يُعدّ، بالفعل أم بالقوة، ظاهر أم كامن. وإذا ما وصل الصوفي إلى الله في نهاية الطريق يجعل الحرف وراءه. فالحرف حجاب مانع من المعرفة المباشرة. بل إن معنى الحرف حرف لأنه قرين. والسوي حرف لأنه مغاير. وهو موضع شك حتى ولو كان به الكيف. الحرف حجاب، والحجاب حرف. وأصحاب الحروف محجوبون عن الكشوف.

ويقف الحرف أمام الكون، والعقل أمام الحرف، والمعرفة أمام العقل، والإخلاص أمام المعرفة[2]. الحرف لا يلج الجهل ولا يستطيعه. وهو دليل على العلم. والعلم وراء الحروف. والحضرة تحرق الحروف. والحرف لا يلج الحضرة. وأهل الحضرة يعبرون الحروف ولا يقفون عليها. بل ينفونها بما في ذلك من نفي الخواطر. والخارجون عن أنفسهم خارجون عن الحروف[3]. الحرف يسري حيث القصد. القصد جيم جنة أو جحيم. أهل الحرف الظاهر أهل النار، وأهل الحرف الباطن أهل الجنة. الحرف نار الله وقدره وحتم أمره وخزانه سره. ولا دخل للعبد في قوة النار وإلا أكله نور الحرف. والحرف فج إبليس، محفوف بالمخاطر[4]. ومقام العبد من وراء الحرف. ولا يدخل العبد إلى الحرف إلا ونظر الله في قلبه ونوره على وجهه واسمه على اللسان[5].

أربعة حروف يهيم بها القلب. وتتلاشى بها هموم الفكر: الألف لألفة الخلائق، واللام للملامة، ثم لام أخرى تأكيداً على المعنى، ثم الهاء للهيام. وهي الحروف التي تكوّن «الله»[6] الألف أول حرف في «الله». والهاء الهوية، والعين العالم. فلكل حرف مخرجه الصوفي الدال عليه. وتشير الحروف إلى عوالم الشهادة

(1) المواقف ص146-147.
(2) الإخلاص المعرفة العقل الحرف الكون، السابق ص177.
(3) «موقف المحضر والحرف»، السابق ص176-183.
(4) السابق ص202.
(5) النفري: المخاطبات ص271.
(6) أحرف أربع بها هام قلبي ... وتلاشت بها هموم وفكري
ألف تألف الخلائق بالصفـ ... ـح ولام على الملامة تجري

والملكوت، والغيب والملكوت، والشهادة والجبروت، والغيب والجبروت، والملك والجبروت، والملك والشهادة، والشهادة والقهر[1]. والواو وصال، والدال دلال، والحاء حياء، والطاء طهارة، والواو الوفاء، والصاد صفاء، واللام دهاء لمدار العمر، والخاء خفاء، والشين إشارة. وهنا الحرفان يدلان معا[2].

والحروف ليست فقط حروف اللغة بالنطق أو بالكتابة بل هي الوجود[3] والوجود هو عالم العناصر الأربعة: الهواء والماء والنار والتراب[4] والحروف على علاقة بالأفلاك. وهي على أربع مراتب[5]. وكل حرف له مرتبته في العناصر الأربعة: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة[6].

ومن تكلم بالحروف فهو معلول. ومن كان كلامه بالمثقاب فهو مضطر. فالحروف مازالت في إطار عالم الخلق[7]. والكلام نظر واستدلال وليس مشاهدة.

ثم لام زيادة في المعاني ثم هاء بها أهيم وأدري
الديوان ص307.

(1) الفتوحات جـ1/ 65-84.

(2) بواو الوصال، ودال الدلال وحاء الحياء، وطاء الطهاره
وواو الوفاء، وصاد الصفاء ولام وهاء لعمر مداره
على سر مكنون وجد الفؤاد وخاء الخفاء، وشين الإشاره
الديوان ص308.

(3) فكل بكل، جميع الجميع من الكل بالكل حرف نهاره
السابق ص323-324.

(4) هو الطين والنار والنور إذ ما يعود الجواب بعقب العباره
السابق ص308.

فاجمع الأجزاء جمعا من جسوم نيرات
من هواء ثم نار ثم من ماء فرات
السابق ص294.

(5) حروف مرتبتها سبعة أفلاك وهي الألف والزاي واللام. وحروف مرتبتها ثمانية أفلاك وهي النون والصاد والضاد. وحروف مرتبتها تسعة أفلاك وهي العين والغين والسين والشين. وحروف مرتبتها عشرة أفلاك وهي باقي حروف المعجم وهي ثمانية عشر، الفتوحات جـ1/ 52.

(6) الألف طبعها الحرارة والرطوبة واليبوسة والبرودة، السابق ص52.

(7) الولاية ص230.

الحرف حرف الله، والعلم علمه. والإنسان عبد الله لا عبد الحرف ولا عبد العلم. والوقوف بين يدي الله وليس بين الحروف والعلوم. الحروف والعلوم نفسها تقوم بين يدي الله مثل الإنسان. هي خزائن الله، من دخلها حمل أمانته. إن حملها لله لا لنفسه كرامة. وإن حملها لله ولنفسه مطالبة. وإن حملها لنفسه وليس لله يبرئ الله من ذمته. تشهد الحروف على صنعة الله. هي مطايا لرؤية وجه الله[1]. الحرف والمحروف دهليز إلى العلم، والعلم دهليز إلى الاسم، والاسم دهليز على المسمى. الاسم والعلم والحرف حجب وأبواب، ستر وكشف. والكل يؤدي إلى النور[2]. إذا جاءت ترجمة الله ينقطع بها العبد عن ملكه وملكوته. فإذا بدت ينقطع عنها إلى أن تصير التراجم والحروف آلة للمعرفة، ومركبا للنطق[3]. الحرف بداية ونهاية[4]. الحروف كلها مرضي إلا الألف لاستقامتها، والأخرى مائلة. والميل مرض[5].

لذلك كانت الحروف موضوعا للتأويل. لها ظاهر وباطن وهو موضوع كتاب «الطواسين» أي حرفي الطاء والسين. فالسين في ياسين وموسى أنوار الحقيقة. وأقرب إلى الله من حروف «يا» و «مو»[6]. وطلب التوحيد من حرفي اللام ألف وإلا كان كفراً. والتعرف على الهوية من خط الاستواء حيرة. وهنا يتوحد الفكر بالحرف بالرياضة بالطبيعة[7]. وعين التوحيد في السر، والسر بين الخاطرين، والخاطران بين الفكرتين، والفكرة أسرع من الرؤية[8]. الحرف إحدى طرق

(1) النفري: المواقف ص202.
(2) المخاطبات ص231-232.
(3) السابق ص237.
(4) النفري: المواقف ص255.
(5) السابق ص269.
(6) أخبار ص29.
(7) «من طلب التوحيد في غير لام ألف فقد تعرض للخوضان في الكفر. ومن تعرف هو الهوية في غير خط الاستواء فقد جاس خلال الحيرة المذمومة التي لا استراحة بعدها»، السابق ص30، الولاية ص236.
(8) «عين التوحيد مودعة في السر. والسر مودع بين الخاطرين. والخاطران مودعان بين الفكرتين. والفكر أسرع من لواحظ العيون».

الوصول إلى الله[1]. وهناك ثلاثة حروف دون إعجام. وباقي الحروف رموز غامضة لا تفك[2] وعبادة الله ستة أحرف، بينها حرفان أعجميان. وهما أصل الإنسان، وآخر للإيمان. وتقوم الحروف مقام بعضها البعض[3] الحروف تقديس وإفراد وتركيب[4]. والأعداد مثل الحروف سر من أسرار الله في الوجود. يتصرف الإنسان بين أربع حقائق: ذاتية وربانية وشيطانية وملكية. وهذه الحروف والألفاظ من غير تأويل ولا صرف. والمتأولة أهل فكر ونظر[5].

والحروف في أوائل السور لها دلالات. الألف المألوف، واللام الآلاء، والميم الملك، والصاد الصادقون[6]. والقرآن به علم كل شيء، وعلم كل شيء في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الأحرف في اللام ألف، وعلم اللام ألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهو، وغيب الهو في التنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. فالحرف في البداية يحيل إلى الألوهية في النهاية. وتتعدد تأويلات الحروف حسب الحالات. إذ يمكن القول أيضاً أن الألف للأزل واللام

---

(1) «من طلب الله عن الميم والعين وجده. ومن طلبه بين الألف والنون في حرف الإضافة فقده. فإنه تقدس عن مشكلات الظنون وتعالى عن الخواطر ذوات الفنون»، السابق ص40، السابق ص231.

(2) ثلاثة أحرف لا عجم فيها ... ومعجومان وانقطع الكلام
فمعجوم يشاكل واجديه ... ومتروك يصدقه الأنام
وباقي الحرف مرموز معمّى ... فلا سفر هناك ولا مقام
أخبار ص34.

(3) يا غافلا لجهالة عن شاني ... هلا عرفت حقيقتي وبياني
أعبادتي لله ستة أحرف ... من بينها حرفان معجومان
حرفان أصلي، وآخر شكله ... في العجم منسوب إلى إيماني
فإذا بدا رأس الحروف أمامها ... حرف يقوم مقام حرف ثاني
السابق ص34.

(4) الإمامان الواو والياء المعتلتان، حرفا المد واللين. والأوتاد الألف والواو والياء والنون وهي علامات الإعراب. والأبدال سبعة بإضافة تاء الضمير وكافه وهائه.

(5) «في معرفة الحركات التي تتميز بها الكلمات وهي الحروف للصغار»، الفتوحات جـ1/ 84-91.

(6) ألمص، أخبار ص116-117 .الر، تلك آيات الكتاب الحكيم، السابق ص121 .فاعلم أنه لا إله إلا هو، السابق ص144.

للأبد، والميم ما بينهما، والصاد الاتصال والانفصال. وهي ألفاظ تجري أيضاً حسب العبارات، والحق يتجاوزها[1].

ولله الأسماء والأوصاف بعد الحروف أودعها. وكلها في ترتيب القيومية[2]. الأسماء نور الحروف. والمسمى نور الأسماء[3]. لكل اسم مسماه ولكل مسمى نوره. الحقيقة تحد الأسماء والأسماء قيومية[4]. وهو لفظ قرآني كثير الذكر. ويطلب العبد من قلبه محو أثر الأسماء فيه باسم الله حتى تثبت سلطته ويفنى معناه[5]. تُعرف الأسماء والحروف والإنسان في بشريته و«الخيل يأكل العقل». وإذا كان الحذر من خيل العقل فالأولى الحذر من خيل القلب[6]. والعبد عند الله أعظم حرمة من اسمه[7]. فالمسمى أعظم من الاسم ولماذا تقديس الأسماء؟ الاسم حروف لاستدلال المسمَّى بالتسمية على إثبات المسمى. فإذا سقطت الحروف فإن المعنى لا ينفصل عن المسمى[8]. تاهت الخليقة في العلم، وتاه العلم في الاسم، وتاه الاسم في الذات. فالاسم حلقة متوسطة بين الكون والعلم من ناحية والذات من ناحية أخرى. والاسم رسم ووسم. والرسم ما رسم به ظاهر الخلق، برسم العلم ورسم الخلق فيمتحى بإظهار الحق. أما الوسم فهو ما وسم الله به المخلوقين في سابق علمه بما شاء كيف شاء فلا يتغير عن ذلك أبداً. الوسم أقرب إلى الطبيعة والخلقة داخل الشيء وليس خارجه. فإذا كان الرسم هو

(1) «في القرآن علم كل شيء. وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور. وعلم الأحرف في لام ألف. وعلم لام ألف في الألف. وعلم الألف في النقطة. وعلم النقطة في المعرفة الأصلية. وعلم المعرفة الأصلية في الأزل. وعلم الأزل في المشيئة. وعلم المشيئة في غيب الهو. وعلم غيب الهو لا يعلمه إلا هو». أخبار ص51. الولاية ص231.

(2) «يا عبد العلم والمعلوم في الاسم، والحاكم والمحكوم في العلم، والحرف والمحروف في الحكم، والظاهر والباطن في الحرف. ولكل حكمة إتقان. وإتقانها حصرها على ترتيب القيومية بها»، المخاطبات ص231.

(3) السابق ص234.

(4) السابق ص241.

(5) السابق ص258.

(6) السابق ص270.

(7) السابق ص247.

(8) اللمع ص426.

الظاهر فالوسم هو الباطن[1].

والأسماء ألفاظ وقد يكون اللفظ الصوفي مركباً بالإضافة مثل صاحب قلب. ويعني ليس له عبارة ولسان وفصاحة وبيان. علم باطني دون تعبير[2]. ومن الألفاظ تنشأ المصطلحات. فللصوفية طرقهم في التعبير في المسائل واختلاف الأجوبة[3]. العلم كله نصفان: سؤال وجواب. ولهم مسائل خاصة لم يتكلم فيها إلا هم. وهي كثيرة لا تحصي إنما يُذكر منها البعض فقط[4]. ولهم أشكال كتاباتهم والصدور والأشعار والدعوات والرسائل[5]. يصدرون الكتب والرسائل. ولهم أشعارهم في معاني أحوالهم وإشاراتهم. ولهم دعواتهم يدعون بها المشايخ المتقدمين من أهل الصفوة. ولهم وصاياهم لبعضهم البعض. وتحديد الألفاظ وتعريفاتها يطول. وما ذكره الصوفية بعض منها[6].

وكما ظهرت موضوعات التصوف في المسائل والأجوبة عليها كذلك تظهر في الألفاظ الجارية على لسان الصوفية مثل المقامات والأحوال[7]. بعضها ثنائي على التقابل[8]. وبعضها أسماء مشتقة ثلاثي الإيقاع[9]. وبعضها ثنائي أو ثلاثي

---

(1) السابق ص427/ 441.

(2) السابق ص435.

(3) كتاب المسائل واختلاف أقاويلهم في الأجوبة، السابق ص283-304.

(4) مثل الجمع والفرق، والفناء والبقاء، والحقائق، والصدق، والإخلاص، والذكر، والفناء، والفقر، والروح، والإشارة، ومسائل أخرى مثل الظرف والمروءة، والرزق، والفراسة، والتمني، وسر النفس، والفرق بين الحب والود، والبكاء، والشاهد، وصفاء المعاملة والعبادة، والكرامة، والفكر، والاعتبار، والتقية والسر، والصواب...الخ، السابق ص452.

(5) «كتاب المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل»، السابق ص305-337.

(6) «والكلام في هذا طويل. وفيما ذكرناه كفاية»، السابق ص286. «فهذا ما حضرني في الوقت من مسائلهم. ومسائل هؤلاء أكثر من أن يتهيأ ذكرها»، السابق ص304.

(7) المقامات والأحوال. المقامات مثل: الشكر، والأحوال مثل: القبض والبسط، والغيبة والحضور، الصحو والسكر، الفناء والبقاء، الوجد والفقد، الجمع والفرق.

(8) كتاب البيان عن المشكلات، السابق ص409-452. باب في شرح الألفاظ الجارية في كلام الصوفية، السابق ص409-410. باب بيان هذه الألفاظ، السابق ص411-452.

(9) الأسماء المشتقة ثلاثية الإيقاع: الحق بالحق للحق، منه به له، الحال والمقام والمكان، الدهشة والحيرة والتحير، الحق والحقوق والتحقيق، التحقق والحقيقة والحقائق، =

بالصوت[1]. وقد يكون لفظاً واحداً[2]. وبعضها يشير إلى المعرفة والبعض الآخر إلى الأخلاق، والبعض الثالث إلى الميتافيزيقا الخالصة. والبعض تحول إلى جمل مفيدة[3]. وهي الألفاظ التي تدور في فضاء الفناء والتي يمكن تحويلها وقلبها إلى فضاء البقاء.

وبعد الحروف والأسماء والألفاظ تأتي العبارة. وهي مجموعة من الحروف. ليس لها سلطة أي «حكومة». إذ تعرف السلطة بلا عبارة. ويمكن المعرفة بلا عبارة بل عن طريق الحجر والمدر أي العودة إلى الطبيعة أصل الحروف كما هو الحال في الكتابة الهيروغليفية. السكون إلى العبارة نوم. والنوم موت. والأفكار في الحروف، والخواطر في الأفكار. وفكر الله الخالص من وراء الحروف والأفكار. واسمه من وراء الذكر[4]. وجواز الحروف توقف في الرؤية. وبعد الوصول إلى الله تترك العبارة وراء الظهر، والمعنى وراء العبارة، والوجود وراء المعنى[5].

6 ـ الصمت والإشارة

التصوف لغة، صريحة أو ضمنية، حقيقة أم مجاز، عبارة أم إشارة. ومن لم

= الاسم والرسم والوسم، الوصل والأصل والفصل، الطمس والرمس والومس، التجلي والتخلي والتحلي، الأزل والأبد والأمد، الوجد والتواجد والتساكن.

(1) تقابل الأصوات مثل: اللوائح واللوامع، الزوائد والفوائد، الشاهد والمشهود، والنفس والحس، التجريد والتغريد، الروح والتروح، المحو والمحق، الكون والبون، الوطر والوطن، الشرود والقصود، الريْن والغين، المريد والمراد.

(2) اللفظ الواحد مثل الهجوم، الغلبات، المبتدئ، الطوالع، الطوارق، الكشف، المشاهدة، الإشارة، الإيماء، الرمز، الصفاء، المعدوم، الشطح، الصول، الذهاب، توحيد العامة، توحيد الخاصة، وهم، سر، المحادثة، المناجاة، المسامرة، رؤية القلوب، الدعوي، الاختيار، البلاء، اللسان، السر، العقد، الهم، اللحظ، الأثر، السبب، النسبة، التلوين، التلف، اللجأ، الانزعاج، الذوق...الخ.

(3) الجمل المفيدة مثل: أنا بلا أنا، نحن بلا نحن، أنت أنت، أنا أنا، أنت أنا، أنا أنت، هو بلا هو، نحن مسيّرون..

(4) النفري: المواقف ص151-153.

(5) «إذا جئتني فألق العبارة وراء ظهرك، وألق المعنى وراء العبارة، وألق الوجد وراء المعنى»، المواقف ص154.

يقف على إشارات الصوفية لم ترشده عباراتهم. ولو صمت المشاهد لصمتت العبارة وإلا لحزب السر وهلك[1]. ولو علم الناطق آفة النطق لصمت عمر نوح. ولو علم الصامت آفة الصمت لنطق ضعفي عمر نوح. هناك إذن جدل بين الصمت والكلام. إذا أعجب الكلام فالصمت. وإذا أعجب الصمت فالكلام[2]. وتعلم الصمت مثل تعلم الكلام. وإذا كان الكلام يهدي فإن الصمت يقي[3]. الصمت هو علم لا أدري في مقابل الكتاب الناطق والسنة القائمة. فالتوقف عن الحكم علم[4]. ولا يعني الصمت السكوت عن الحق. فالساكت عن الحق شيطان أخرس. والخلوة شرط الصمت. والصمت شرط التوبة[5]. ويقترن الصمت بالخلوة وترك الشهوات وسهر الليل سنتين ثم يعرض الحال على الله والاستعانة به. الصمت يُعرّف الحال. والخلوة تقطع الآفات. وترك الشهوات يقطع عن الدنيا. والخلوة تمنع من الاشتغال بالناس. وسهر الليل يميت الجهل ويحيي العلم. وهذا هو الطريق إلى البديل والصديق وإلى العلم النافع[6]. والصمت يطيل العمر مثل التوبة والأدب والخلوة.

ويتطلب الالتزام بالأمر والنهي الالتزام بالصمت والخلوة، وترك الشهوات، وسهر الليل[7]. يعرف الحال بالصمت، وتنقطع الآفات بالخلوة والانشغال بالناس في أمور الدين والدنيا. وإدراك الجهل والوصول إلى العلم بسهر الليالي. ومن قام بذلك صار بديلاً من البدلاء وصديقاً مع الصديقين.

والصمت عند الصوفية رد فعل على الكلام عند المتكلمين، ومن المغالاة في الجدل إلى المغالاة في الصمت. ترك الصوفية الكلام بعلم. والكلام فقط للضرورة من أجل تجنب آفات الكلام فيرفع الحجاب.

والصمت هو المقام السابع في مقامات السالكين. وهي حكمة تقتضي انقطاع

(1) الحلاج: الولاية ص239.
(2) القشيرية ص58-59.
(3) السابق ص59.
(4) «بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين في العلوم»، قوت القلوب جـ1/ 277-282.
(5) القشيرية ص58-59.
(6) التستري، ص163-164.
(7) السابق ص232-233.

الوسواس وموت الطبيعة عن الفضولات. فعمارة القلب نعمة، وعمارة اللسان فتنة. «الصمت حلم وقليل فاعله». والصمت والإنصات متقاربان[1]. وغياب الصمت يُوقع في الفضول حتى مع الصمت. وهو حب الاستطلاع والرغبة في الكلام. الصمت سلامة، وهو الأصل. وعليه ندامة إذا ورد منه زجر[2]. وقد ورث الحكماء الحكمة بالصمت والتفكر. واللسان أحق من إطالة سجنه. لكل شيء بابان وللسان أربعة، الشفتان والأسنان. خلق للإنسان لسان واحد وعينان وأذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول. الصمت لسان الحلم، ومن آداب الحضرة[3].

الكلام لا يكون إلا فيما يعني المتكلم. فإذا نطق فيما لا يعنيه خرج عن حد الصمت. ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. الكلام مع الناس قليل، ومع الله كثير لعل القلب يراه. صون النفس بامتلاك اللسان، وعفة اللسان صمته. واللسان مثل السبع يعتدي دون وثاق. الصمت سكوت، والسكوت في وقته صفة الرجل. كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال[4]. ومن لم يستعن بالسكوت وقع في اللغو. وفرق بين سكوت صوناً عن الكذب والغيبة وسكوت لاستيلاء سلطان الهيبة[5] ولسان الجاهل مفتاح حتفه. والسكوت قسمان: سكوت بالفم واللسان، وسكوت بالقلب والضمير. فالمتوكل يسكت قلبه عن السعي وراء الرزق. ليس الصمت خاصية للسان لكنه خاصية للقلب والجوارح. صمت العوام باللسان، وصمت الخواص بالقلوب، وصمت المحبين عن خواطر الأسرار. إذا سكت المحب هلك. وإذا سكت العارف ملك. اللسان لا يسمع إلا من القلب. والقلب لا يتكلم إلا من اللسان. ولو سكت اللسان لما نجا من كلام القلب. وقد يكون سبب السكوت حيرة البديهة. فإذا ورد كشف بغتة خرست العبارات.

---

(1) روزبهان: طهارة القلوب ص31.

(2) القشيرية ص57-58.

(3) السابق ص57.

(4) السابق ص57-59.

(5) رأيت الكلام يزين الفتى ... للصمتُ خير لمن قد صمت
فكم من حروف تجر الحتوف ... ومن ناطق ود أن لو سكت
السابق ص59.

وهناك ما يقال وما لا يقال[1]. ما يُعرف يقال، وما يشاهد لا يقال. الأول يمكن النطق به، والثاني يستحيل النطق به. الأول مجال الكلام، والثاني مجال الصمت. ما يقال حروف، وما لا يقال إشارات. ما يقال مقولات وما لا يقال كشوف. والمواجيد بالمقولات شطحات يُحكم عليها بالكفر. والحرف عاجز عن الإخبار عن الله أو تعريفه. الحرف من مخلوقاته. فكيف يعبر المخلوق عن الخالق؟ ما يقال كتابة وحساب، وما لا يقال لا يكتب ولا يحسب. وقد كان الرسول أميا لا يقرأ ولا يكتب وكان يتلقى الوحي سماعاً.

الله هو الناطق وليس هو النطق[2]. وهي نفس ثنائية الظاهر والباطن، التجلي والستر، الكشف والحجب. وتجمع النطقية في حرف، وتجمع الصمتية على هم. ويقيل الحرف والهم على الله[3]. وإذا وصل العبد لله فإنه لا ينطق[4]. وقد تكون المعرفة بلا نطق. الصمت يحكم. والنطق يدعو[5]. ويصبح الله كل شيء. صامت في الصامت وناطق في الناطق[6]. الصامت والناطق مقولتان في الفكر الشيعي. وهي البيئة الرئيسية التي خرج منها كبار الصوفية.

ومع الصمت والنطق هناك السر والخفاء. وهما لفظان قرآنيان. السر خفاء بين العدم والوجود. هو ما غيبه الحق ولم يشرف عليه الخلق. وسر الخلق ما أشرف عليه الحق بلا واسطة، وسر الحق ما لا يطلع عليه إلا الحق. وسر السر ما لا يحس به إلا السر[7]. السر ما لا يحس به هاجس النفس فقد غيّبه الحق. والسر سران: سر للحق بلا واسطة، وسر للخلق بواسطة. السر من السر للسر، حق لا يظهر إلا بحق. وما ظهر بحق ليس سراً[8]. وقلوب الرجال قبور الأسرار. ولا توجد الأسرار إلا في صدور الأحرار. فهي دلالة على يقظة الضمير. ولا يمكن

(1) «موقف ما لا ينقال»، المواقف ص122-123.
(2) المخاطبات ص206.
(3) السابق ص212.
(4) السابق ص239.
(5) المواقف ص130-131.
(6) المخاطبات ص247.
(7) ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، اللمع ص430.
(8) السابق ص300/ 303-304.

الإطلاع عليه بالقوة، بالقهر أو التعذيب لأنه يعادل الضمير والوجود الإنساني في ذاته[1]. وصمت السر هو ترك الاشتغال بالماضي والمستقبل. فالعمل تجل. وتعذب الأسرار قبل الزلل بعد النية على العمل.

الأسرار بكر لا يفتضها وهم واهم ولا فهم فاهم لأنها أقرب إلى حديث النفس. ومع ذلك السر هو ما خفي ظاهره وبدا معناه. والطور هو طيران السر إلينا وإليه[2]. وقد يكون للسر معنى عضوي. فهو لطيفة مودعة كالأرواح. وهو محل للمشاهدة كما أن الأرواح محل للمحبة، والقلوب محل للمعارف. السر ألطف من الروح. والروح أشرف من القلب. السر لا إشراف عليه. والأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والأطلال. ولا يطلع على سر السر إلا الحق. السر مصون ومكتوب بين الإنسان والله. ولو عرف السر الزر لخلع الزر[3].

والإشارة هو ما يخفى على المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه. والإيماء إشارة بحركة جارحة مثل التمثيل الصامت[4]. وتؤذن ببعد الغير أو حضوره[5]. فلان صاحب إشارة أي إن كلامه مشتمل على اللطائف والإشارات وعلم المعارف. الإشارة كالكناية، والكناية كالإشارة. ولا يدركها إلا الأكابر من أهل العلم. الإشارة دالة ومؤشر. فالإشارة إلى العمل طريق الورع، والإشارة إلى العلم طريق العبادة، والإشارة إلى الأمن في الرزق طريق الزهد، والإشارة إلى الآيات طريق الأبدال، والإشارة إلى الآلاء طريق العارفين. ليس المقصود بالإشارة الحركة بالإصبع أو التوجه نحو المكان. فلا يشار إلى الحق وإلا ردت. لا يشار إلى الحق إلا بالحق. وأبعدهم عن الله من يكثر الإشارة إليه. وعند أصحاب التوحيد الإشارة شرك. وقد تكون كفراً إذا كانت الإشارة إليه بعلم. فالإشارة لا تكون إلا على معلوم. ومن أشار إليه بمعرفته فقد الحد لأن الإشارة بالمعرفة لا تقع إلا على محدود. ويشير المريد إلى الله فيجد الله مع الإشارة ثم بإسقاط الإشارة. الإشارة

(1) الولاية ص252.
(2) هذا هو تفسير الحلاج لآية والطور، التفسير ص147.
(3) القشيرية ص45.
(4) اللمع ص414/ 436-438.
(5) السابق ص294-296.

تتطلب البعد والله قريب. ويمكن فهم المطلوب بغير الإشارة[1]. والإشارات الإلهية متبادلة بين الصادر والوارد كما هو الحال في البريد[2]

كلام الأنبياء نبأ عن حضور. وكلام الصديقين إشارات من مشاهدات[3]. وإذا كانت الإشارة قبل السماع كانت من فوق. القليل منها يشفي. وإن كانت بعد السماع كانت من تحت، والقليل منها يهلك[4]. السماع بالتصريح جفاء. والسماع بالإشارة تكلف. وألطف الأسماع ما يشكل إلا على مستمعه. وهذا هو الاشتباه. العبارة يعرفها العلماء، والإشارة يعرفها الحكماء، واللطائف يقف عليها الشيوخ[5]. الإشارة إبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه. وفي الحقيقة الإشارة تصحبها العلل، والعلل بعيدة عن الحقائق[6]. فالإشارة لغة الوجد وإن كانت قائمة على العلل. والعلل نفسها بعيدة عن الحقائق. العلل في الشريعة وليست في الحقيقة.

قد تكون الإشارة حروفاً أو عبارة تفهم بالأنس ويكتب بها كتاب منه عنه إليه يترجم عن الأستار[7] والعلم الإشاري تعبير باللسان مشيراً إلى الحق. لا يخفي سرا[8] استعمل الصوفية لغة الإشارة للدلالة على الباطن من الظاهر[9] بل أصبحت

---

(1) «في معرفة الإشارات»، الفتوحات جـ1/ 278-281.

(2) فمن إلهي إشارات وإن كثرت ... في الخلق ما بين إيراد وإصدار
الديوان ص301.

(3) الجنيد، طبقات الصوفية ص162.

(4) عمرو بن عثمان المكي، السابق ص205.

(5) أبو عبد الله الصبيحي، السابق ص329.

(6) أبو على الروزباري، السابق ص356.

(7) كتبت إليه بفهم الإشارة ... وفي الأنس فتشت نطق العبارة
كتابا له منه عنه إليه ... يترجم عن غيب علم الستارة
السابق ص308.

(8) بيان بيان الحق أنت بيانه ... وكل بيان أنت منه لسانه
أشرت إلى الحق بحق وكل من ... أشار إلى الحق فأنت أمانه
تشير بحق الحق، والحق ناطق ... وكل لسان قد أتاك أوانه
إذا كان نعت الحق للحق بينا ... فما باله في الناس يخفي مكانه
السابق ص333-334.

(9) تاه الخلائق في عمياء مظلمة ... قصدا ولم يعرفوا غير الإشارات
السابق ص259.

الإشارات نوعاً أدبياً عند أبي حيان في «الإشارات الإلهية» وعند القشيري في «لطائف الإشارات». يستعمل الصوفية بعض الإشارات الرمزية التي يفهمها المتحاوران. التصوف إشارة فإذا صار عبارة اختفى. ويرد لفظ «الرمز» مع «الإشارات» و«اللطائف». الإشارة رمز بسيط. والرمز إشارة مركبة. الرمز أفضل من التسمية للإجابة على سؤال لا إجابة عليه[1]. وهو أكثر قدرة على التعبير من الحد والرسم[2] والحديث عن علوم المكاشفة بالرمز والإيماء على السبيل التمثل والإجمال لتصور أفهام الخلق من الاحتمال. الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله. والرموز في مكاتبات المشايخ لا في مؤلفاتهم[3].

والشطح كلام يترجمه اللسان عن وجد فياض مما يوحي بأن صاحبه مستلب مأخوذ. ويمنع الشطح من التمييز بين الأشياء والمخاطر وبالتالي حدوث الأمن التام. وقد تعوذ البعض من شطح اللسان[4] وتدخل في صياغة الشطحات خاصة الحكايات الرمزية بعض الآيات القرآنية المتشابهة الخاضعة للتأويل، والأحاديث القدسية التي هي أقرب إلى الإشراقيات الصوفية والإيغال في الغيبيات منها إلى الأحاديث النبوية الأقرب إلى التفصيلات العملية والسلوك الإنساني[5].

والصول هو الاستطالة باللسان من المريدين والمتوسطين على أبناء جنسهم بأحوالهم. وهو مذموم على عكس الشطح الذي لا يمس ولا يسيء إلى أحد. أما الصادقون فإنهم يصولون بالله لقلة المساكنة إلى ما سوي الله[6].

---

(1) طبقات الصوفية ص296.

(2) الإحياء جـ1/ 11.

إلى الذي سئلت عنه ... رمزت رمزا ولم أسم
حتى إذا أخبر كل حد ... في خلوات الدنو أهمي
نظرت إذ ذاك في سجال ... فما تجاوز حدي ورسمي

الحلاج: الديوان ص321.

(3) اللمع ص414.

(4) السابق ص422-423.

(5) شطحات الصوفية ص97/ 109-110/ 135/ 140/ 150/ 142-143/ 154.

(6) وهذا معنى دعاء الرسول «اللهم بك أصول وبك أجول»، اللمع ص423.

7 ـ العلم والعمل

العالم هو الذي يعمل بعلمه[1]. ومن دلائل المعرفة العمل بالعلم والخوف على العمل. فالعلم مؤشر على المعرفة ويتحول إلى عمل. العمل هو المقصد النهائي للعلم. وأول العمل العلم به فصار علم العمل فرضاً من حيث تضمن العمل[2]. العلم إمام العمل. والعناية إمام العلم[3]. ولن يعمل بالعلم إلا ما شاء الله مع أنه قرار فردي يقوم على مدى الالتزام. العلم بدون عمل أسوأ حالاً إذ يصبح العلم «مأكله لحم أو طلب رياسة أو متاع الدنيا أو رياء وسمعة»[4]. العلوم كلها دنيا وآخرة للعمل بها. والعمل هباء بدون إخلاص[5]. وأنجى طريق للعبد العمل بالعلم[6]. والحذر من التزين بالعلم أو العجب بالعمل. العلم يزيد خشية، والعمل بصيرة. والعلم يورث العمل. في الماضي كان من يترك عشر العلم يهلك. واليوم من يعمل بعشر العلم ينجو. ليس العمل هو المقصود بل الكشف. فمن نظر إلى العمل حجب عمن يُعمل له. ومن نظر إلى من يُعمل له حجب عن رؤية العمل[7]. فالعمل له غاية، ولكن السؤال أين؟ في الرأسي أم في الأفقي؟ في الله أم في العالم؟ في الأعلى أم في الأمام؟

من عمل بما علم علمه الله بغير تعلم. فالعمل يفيض على العلم وبالممارسة تُعرف عيوب النظر. فبين العلم والعمل تصحيح متبادل[8]. وبإجابة العلم والعمل يزاد في العقل. فالعقل نظري وعملي معاً[9]. العالم يعمل بعلمه. والعاقل يفسر العلم والعمل[10]. وعمل النوافل أفضل من العلم بها لأن العلم مقدمة للعمل[11].

---

(1) التستري ص75، طبقات الصوفية ص452-453.
(2) قوت القلوب جـ1/ 265.
(3) طبقات الصوفية ص139.
(4) التستري ص93.
(5) التستري ص101.
(6) رسالة المسترشدين ص130.
(7) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾، التفسير ص127.
(8) التستري ص203-204.
(9) السابق ص255.
(10) السابق ص169-171.
(11) السابق ص 291.

ومن لم يقدس علمه لم يقدس فعله. ومن لم يقدس فعله لم يقدس بدنه. ومن لم يقدس بدنه لم يقدس قلبه ثم لم يقدس نيته فالأمور كلها بالنية[1]. فإذا تقدس ذلك كله اتصل بمولاه. فالعلم والعمل قطبان للبدن ومركزه القلب. والكل طريق إلى الله[2].

والأعمال على قدر مقامات الأسرار[3]. واستمرار العلم هو سبب استمرار الفعل. ومن لم يقف علمه لم يقف فعله[4]. وشكر العلم العمل به. وشكر العمل مزيد من العلم[5]. والعلم استثناء الدنيا من الجهل والموات. وهو حجة على الخلق إلا العمل به فهو حجة لهم. والأعمال كلها ضائعة دون الإخلاص، والإخلاص لا يعرفه إلا الله. والأمور بخواتيمها. ومن علامات آخر الزمان انفصام العمل عن العلم، والصبر عن العمل، والتهافت على الدنيا وادعاء العبادات. ولماذا لا يؤدي العمل إلى الوصول إلى المأمول اعتماداً على حديث واحد «لن ينجو أحد منكم بعمله بل بفضل الله» ومئات الآيات والأحاديث تشير إلى قانون الاستحقاق؟

وأحياناً يستبدل بالعلم النظر ويظل العمل. فالنظر دون العمل يقضي على الدين. ومن ينظر دون أن يعمل فلا دين له[6]. والعمل خير من النظر، وفعل الشيء خير من النظر، وفعل الشيء خير من تأمله. والاتفاق مع الصفة خير من وصفها[7]. والعمل خير من الجدل. والتصوف أفضل من الكلام[8]. العمل يفتح باب الخير ويغلق باب الكسل والتقصير هو فوت العمل[9]. والعمل وكأن لا يوجد في الأرض غير العامل ولا في السماء أحد إلا الله فالعمل دليل الوحدانية.

---

(1) طبقات الصوفية ص254.
(2) التستري ص378-379.
(3) السابق ص70.
(4) السابق ص162.
(5) السابق ص164.
(6) السابق ص157.
(7) السري السقطي، السابق ص53.
(8) معروف الكرخي، السابق ص87/ 90.
(9) حاتم الأصم، السابق ص96.

وأحياناً أخرى يستبدل بالعلم المعرفة. العلم دليل على الله والمعرفة دالة عليه. والحكمة رحمة منه. بالعلم تنال المعلومات، وبالمعرفة المعروفات. العلم بالتعلم، والمعرفة بالتعرف. المعرفة بتعريف الحق والعلم بتعريف الخلق. ثم تنشأ الفوائد بعد ذلك. فالعلم في الحالتين هو العلم النافع. للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة، وأنباء عجيبة. يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة الأزلية. والمعرفة ليست فقط نظرية بل هي أيضاً عملية، لا فرق بين العقل النظري والعقل العملي[1].

وأحياناً يستبدل بالعلم الإيمان في الثنائية التقليدية بين الإيمان والعمل كما هو الحال في علم أصول الدين[2]. وللمؤمن أربع علامات: كلامه ذكر، وسمته تفكر، ونظره عبرة، وعمله بر[3]. وهل المؤمن لا يعمل شيئاً فإذا دخل عليه شيء طيب أثر به غيره؟ وهل إيثار الآخر بعمل خارجي أفضل من العمل الذاتي؟[4]. والإيمان فطنات، يسكن ولا يخرج. واليقين خطرات[5]. فالإيمان عالم داخلي.

والعمل في الإيمان على درجات من الداخل إلى الخارج، من الشعور إلى العالم. أولاها اليقظة. فالمؤمن لا يسهو حتى يغفل. فإذا تفكر حسن واستغفر[6]. فالمؤمن هو الشعور اليقظ وليس النائم، المنتبه وليس الغافل. وثانياً التصديق بالقلب بما أعلمه الحق من الغيوب. ومطالبة الإيمان ما حدا عليه من صحة التصديق بالوعد والوعيد[7]. وثالثها العزة. فما استقام إيمان حتى يصبر إلى الذل مثل ما يصبر علي العز[8]. الصبر على العز سعي له. وتصبر على الذل تخلص منه. فمقياس الإيمان استحقاقه. ورابعها العلم. فالإيمان مقرون بالقرآن وهو علم[9]. الإيمان أحد أنماط

(1) «أوحيت إلى التقوى اثبتي وثبّتي. وأوصيت إلى المعصية تزلزلي وزلزلي»، المواقف ص96.
(2) من العقيدة إلى الثورة، ج4، الإيمان والعمل ـ الإمامة.
(3) طبقات الصوفية ص227.
(4) التستري ص90.
(5) السابق ص311.
(6) أبو بكر محمد بن داود الدقي، طبقات الصوفية ص449.
(7) أبو عبد الله محمد بن الخفيف، السابق ص465.
(8) أبو العباس القاسم السياري، السابق ص445.
(9) قوت القلوب جـ1/ 278.

العلم. وعلم الإيمان والتوحيد وعلم المعرفة واليقين مع كل مؤمن حسن الإسلام. وهو مقامه من الله. فالعلم بالله والإيمان قرينان. الإيمان مدد العلم وبصره. والعلم قوة الإيمان ولسانه. وخامسها الأخلاق. فليس الغش في الإيمان ولا من خصال المؤمنين[1]. لا يوزن الخلق بميزان النفس بل بميزان المؤمنين لمعرفة فضلهم وإفلاس الذات. ولماذا يكون القياس على الذات إفلاس؟ شرح صدور المتقين وكشف بصائر المهتدين بنور حقائق الإيمان[2]. إذا كان السلم محبوباً إلى الخلق فإن المؤمن غني عن الخلق[3]. البر الإيمان، والتقوي الإخلاص، والإثم الكفر، والعدوان المعاصي[4]. وما يذهب الإيمان والعمل من القلب القصائد أي الشعر، والشراب أي الخمر، والغناء أي الموسيقى والطرب مع أنها أقرب الأشياء إلى التصوف[5].

وأحياناً يضاف إلى ثنائية الإيمان والعمل القول في ثلاثية الإيمان والقول والعمل. فالإيمان قول وعمل. الإيمان طاقة داخلية تتخارج في القول والعمل، في اللسان وفي اليد[6]. مطابقة الظاهر والفعل ضرورة. وهي مطابقة الداخل والخارج، القول والفعل، النظر والعمل[7] ويسلم اللسان من الكذب إذا كان أصله صحيحا[8]. الكذب هو القول الفارغ من أي مضمون، قول اللسان ولا يقابله تصديق بالفكر أو بالوجدان أو بالعمل[9]. والقول والعمل واجهتان لشيء واحد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[10].

(1) التستري ص97-98.
(2) طبقات الصوفية ص324.
(3) السابق ص352.
(4) التستري ص97-98.
(5) التستري ص221.
(6) السابق ص180/ 342.
(7) وسمتك سمت ورع ودين وفعلك فعل متبع هواه
الحلاج: الديوان ص287.
(8) التستري ص379.
(9) رسالة المسترشدين ص136-137.
(10) «اللهم اجعل قولنا موصولاً بالعمل، وعملنا محققاً للأمل»، الإشارات ص361.

فضل القول على العمل منقصة، وفضل العقل على القول مكرمة[1]. فالعمل له الأولوية على القول. وصدق القول وصدق العمل ضمن أربعة خلال ومعها صدق المودة وصدق الأمانة[2]. وكلها فضيلة الصدق. يتوقف القول الخالص على العمل، والعمل على الآجل، والآجل على الطمأنينة، والطمأنينة على الدوام[3]. العلم ينزل والعمل يصعد[4]. والعمل سابق على القول، والسلوك شرط المعرفة.

والتوفيق البداية بالعمل[5]. أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله، والأعمال تعبير عن المقاصد وليست رياء للناس كما حذر المسيح. فالرياء في الأعمال بصرف النظر عن مبارزة لمن هو أقرب إلى حبل الوريد[6]. الأعمال بالنيات. والبداية بفحص النية وهي الإرادة الخيرة[7]. والنية أفضل من العمل، والعمل أفضل من القول[8]. واستقامة الطاعة للنية[9]. ومن سعادة المرء حسن النية[10]. والحذر من الرياء ومدح الجاهل أو قبل مدح النفس. الناس نوعان عالم بعمل يعلمه، وساذج بنية[11]. فالعلم أساس العمل والنية وسط بينهما، علم شعوري وعمل في حالة الإمكان. والإخلاص أربعين يوماً بالنية وحفظ الجوارح ولا يطعم إلا الحلال. ويكون الطعام واللباس لله بالنية. والنية هي التفكر[12]. وهي النية العقلية أو القيد. والنية هي الإخلاص. وهو معنى حديث «إنما الأعمال بالنيات»[13]. نية الإرادة غير نية الفعل. الإرادة عام والفعل خاص. وكما يثبت

(1) أبو على الروزباري، طبقات الصوفية ص357.
(2) أبو على الثقفي، السابق ص363.
(3) المواقف ص183.
(4) «إن لم يصعد عملك من الباب الذي نزل منه علمك لم يصل إليّ»، السابق ص190.
(5) أبو بكر الكتاني، طبقات الصوفية ص374.
(6) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق ص428.
(7) المواقف ص45.
(8) السابق ص103.
(9) السابق ص104.
(10) السابق ص166.
(11) التستري ص376/ 383.
(12) السابق ص272.
(13) السابق ص294.

حكم الظاهر بالفعل يثبت حكم السر بالنية[1]. وإن لم يصل العلماء بعلمهم وصلوا بنياتهم[2]. ولكل عمل نية ومن ثم لا يحجب صاحبه عن الله. ودون نية لا يُعرف الحكم. وضياع النية يؤدي إلى الحيرة[3]. فالنية قصد، والقصد اتجاه.

والنية هي إرادة الإنسان أن يعمل بمعنى من المعاني. فالإرادة نية والنية إرادة وتطلق على الأشياء أيضاً تشخيصاً مثل ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[4] فإن لم تحضر النية فإن ذلك يعني إما عدم توافر الباعث على الفعل أو أن يكون الفعل قد تم عن طبيعية لا إرادة[5] فإذا ما قام الإنسان بعمل لغير وجه الله ثم يندم فإن العمل يستمر بالنية الجديدة[6] وتجزئ النية عند بدء العمل وأثناءه[7] وأثناء العمل قد يزيد النشاط ويتسع الأفق، وتظهر أبعاد جديدة غير النية الأولي[8] ويجب على المريد أن يلزم نفسه حين العمل سراً وعلانية لوجه الله وحده[9] ويسر العبد عندما يظهر عليه من عمله قبل فراغه منه وبعد قراءته[10]

وقد يؤتى العمل سراً خوفاً من العدو أو من الشهرة. «واستعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان». والإنفاق بحيث لا تعلم اليد اليسرى ما تنفقه اليد اليمني. وقد يتساوى السر والعلانية مع أفضلية السر[11] ويجوز ترك العمل خوفاً من الرياء قبل العمل وأثناء العمل[12]

(1) السابق ص304/ 338-339.
(2) السابق ص335.
(3) السابق ص339.
(4) «باب وصف النية ما هي؟»، السابق ص286-288.
(5) «باب معنى قوله لا تحضر النية في العمل»، السابق ص289-293.
(6) «باب من يدخل في العمل لا يريد الله بذلك ثم يندم كيف يكون عمله بعد الندامة»، السابق ص294-297.
(7) «ما يجري من النية عند ابتداء العمل، والنية في العمل»، السابق ص280-283.
(8) «باب العبد يدخل العمل يريد الله عز وجل وحده ثم يجد من نفسه نشاطا للزيادة وما يجزيه من النية في ذلك»، السابق ص284-285.
(9) «باب ما يجب أن يلزمه المريد نفسه عند عمل السر والعلانية»، السابق ص266-267.
(10) «باب سرور العبد عندما يظهر عليه من عمله قبل فراغه منه وبعد فراغه»، السابق ص268-274.
(11) «باب عمل السر والضعف من إظهار العمل خوف العدو وحذر الشهرة»، السابق ص308-312.
(12) «باب هل يجوز ترك العمل من أجل الرياء؟»، السابق ص313-318.

ويمكن ترك بعض النوافل إشفاقاً على الناس من تكليف ما لا يطاق[1] وقد يظهر العمل للاقتداء به. فالعمل مستمر في التاريخ. «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه فيها»[2] وقد يحث الإنسان الآخرين على عمله للإقتداء به. فالمبادرة قد تأتي من العامل أو من المقلّد[3] ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

والدعاء أقرب إلى القول والإيمان منه إلى العمل والفعل وطاعة الرب ودعاؤه مستجاب للاضطرار عن طريق فعل خارجي[4]. الدعاء ترك فعلي للذنوب وليس مجرد التمني بالقول[5]. والاستعاذة بالله منه من النبي أو من اقتفى أثره. دون فعل مجرد خوف وتمنٍّ للنجاة[6]. الدعاء هو فعل سلبي، استجداء وتحقق. لا يرد الله الدعاء من الصديقين، مؤمنين أو كافرين. فالدعاء من الكافر ضرورة. والمؤمن يدعو بحكم الإيمان. الدعاء فعل قلبي، بداية تحقق الفعل بالنية. وبهذا المعنى الدعاء مستجاب فهو قضاء للحاجات دون أن يدري الإنسان حسنة كتبت له أم عقوبة صرفت عنه[7]. وهو ما سماه إقبال «فلسفة السؤال» أي الشحاذة من الله. ليس الدعاء بالقول بل بالفعل. ونتائج الأفعال مقصودة وعن روية. الدعاء بهذا المعنى مستجاب في أربعة أوقات نهاراً وليلاً، حين الضرورة، وبالاسم الأعظم وساعة الظلم، وفي سبيل الإخوة والأبوة[8]. فالدعاء أول درجة من درجات تحقق الفعل. إن الدعاء بالمعنى الشعبي مجرد قول دون فعل، يطعن في قانون الاستحقاق، الدعاء بدخول الجنة، والخروج من النار. والنصيب يرجع إلى الفضل. والدعاء بلا فعل واستحقاق تخل عن الحرية والمسؤولية. وكيف يحب

(1) «باب في الرجل يدع بعض النوافل إشفاقاً على الناس أن يعصوا الله عز وجل فيه»، السابق ص298-299.

(2) «باب إظهار العمل ليقتدي به»، السابق ص300.

(3) «باب العبد يحدث إخوانه ببعض ما يقوي عليه من العمل ليحضهم على ذلك»، السابق ص303-307.

(4) «من أنا، يرحمك الله. أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطر»، رابعة ص125/ 132/ 137.

(5) بشر الحافي، طبقات الصوفية ص43.

(6) محفوظ بن محمود النيسابوري، السابق ص274.

(7) التستري ص67.

(8) السابق ص154.

الله الإقرار بالذنب وهو الفاعل لكل شيء؟[1]. وكيف يُعرف اتفاق الدعاء «الكد» كي تسرع الإجابة حتى إذا كانت اللغة والوجود متوازيين؟[2]. وأفضل دعاء وأسرعه للإجابة وجدان قلوب الصديقين. الدعاء أفضل من العلم لأنه مع الفقر والفاقة يجمع بين القول والعمل. والدعاء المستجاب لا حيلة للعقل ولا للعلم فيه يكفيه الإيمان والعمل. هو هبة من الله. ومادام الدعاء كوسيلة لجلب المنافع غير مضمون فالأولى الأخذ بالأسباب[3]. وإذا كانت المقدمة التوحيد فإن الدعاء هو التبري من كل ما سوي الله أي الاستسلام كلية للغير[4]. الدعاء إذن دعوة للتخلي عن الأسباب. والفعل في العالم يقتضي الأخذ بالأسباب. والأمر بالدعاء والتضرع حتى لا يُسئل إلا الله. والأفضل الأمر بالفعل والكد والسعي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾. فالدعاء جامع بين الإيمان والعمل. ولا ينجع السهم من الرامي كما ينجع الدعاء ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[5]. والاضطرار يؤدي إلى الفرج القريب بطبيعة الأشياء. فلا يوجد اضطرار دائم ولا فرج دائم. الدعاء التصديق بالقلب الذي يخلق موضوعه. وما من أحد كانت له حاجة إلى الله أعيا أهل السماوات والأرض قضاؤها فدعا الله إلى الليل إلا قضيت. وهو إحساس بالأمل بعد اليأس وبالوجود بعد العدم، وبالحياة بعد الموت[6].

وإذا كانت الأعمال بالتوفيق، والتوفيق من الله، ومفتاحها الدعاء والتضرع فلم يبق للعامل شيء[7]. العمل الذي يبلغ الغايات هو رؤية التقصير والعجز والضعف. فالعمل يبدأ بالسلب. والعمل لا يحتاج إلى عصمة. وهو أشرف عمل

(1) السابق ص200.
(2) «يا مولاي! مولاي! كل نصيب جعلته للجنة فسهله لي ويسره لي. واجعل لي فيه الصلاح. وكل نصيب جعلته للنار فلا تسهله لي. واصرفه عني بحولك وقوتك. إنك على كل شيء قدير»، السابق ص180.
(3) السابق ص220.
(4) السابق ص291.
(5) السابق ص305-306.
(6) السابق ص339.
(7) التستري، طبقات الصوفية ص211.

لأنه ممارسة للحرية. ولا علم أشرف من علم آدم إلى تعلم الأسماء ولم يمنعه ذلك من العصيان وجريان القضاء والقدر عليه. ولا عبادة أفضل من عبادة إبليس لأنه لم ينج من المسبوق عليه[1].

واللعن دعاء سلبي، تمني الضر للآخرين، وليس تمني الخير للنفس. إلا أن لعن الرسول إبليس إلى الأبد كما لعنه الله، وعلى الكفار إلى التوبة فتتحول إلى رحمة، وعلى المسلمين رحمة إذا تابوا[2]. وليس من شيمة الرسول اللعنة على أحد بل الرحمة بالناس. وبسبب إبليس أتت النبوة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وإذا كان العلم ثلاثة: علم بالله وعلم من الله وعلم مع الله فهو علم التوحيد وعلم الشريعة وعلم التصوف. العلم بالله معرفة صفاته وأحواله، قوانين الطبيعة وأحواله ظواهرها. والعلم من الله علم الظاهر والباطن، والحلال والحرام، والأمر والنهي في الأحكام. وهو علم الوحي، التنزيل والتأويل، الشريعة والحقيقة. والعلم مع الله علم الخوف والرجاء والمحبة والشوق وهي علوم التصوف[3].

وعلم العقائد نفسه علم عملي سواء في العقليات، الذات والصفات والأفعال أو في السمعيات: النبوة والمعاد والإيمان والعمل والإمامة[4]. لذلك يتم التصديق من خمسة أمور: إعلام الحال، وحفظ الإيمان، وحذر العدو، وإيثار الرب، والإخلاص. باب العلم المشيئة، وباب القدرة الإرادة. فالعلم النظري علم عملي[5]. لذلك ارتبط العلم والقدرة ليس فقط في صفات الله بل أيضاً في سلوك الإنسان. فالعلم سر، والقدرة علانية. العلم باطن، والقدرة ظاهر. العلم نظر، والقدرة عمل. والعلم بلا عمل مثل العملة الورقية بلا قيمة في ذاتها، ومثل الدراهم والدنانير يتركها وراءه العالم فيعذب بها يوم القيامة. والعلم من أثر بعد

(1) خير النساج، السابق ص324.
(2) التستري ص189.
(3) طبقات الصوفية ص214-215.
(4) من العقيدة إلى الثورة، ج2 التوحيد، ج2 العدل، ج3 ج4 النبوة والمعاد، ج5 الإيمان والعمل والإمامة.
(5) التستري ص202.

موت صاحبه وليس من ترك وراءه المال في الخزائن. العلم والقدرة والنجوم ليس لها إقرار أي نهاية. فالعلم لا نهاية له. والقدرة غير محدودة. والنجوم سائر تأثيرها في الكون. وعبادة الله تظهر القدرة في أقل من أربعين يوما[1].

وأنفع العلم الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب. وهو علم الشريعة بعد العلم بالذات والصفات والأفعال والأسماء، عوداً بالتصوف إلى علم الأصول[2]. العلم هو العلم الفقهي. فالعقيدة والشريعة هما النظر والعمل، التصور والنظام، الأصول والفروع. وقد بنى أهل المعرفة بالله أصول الأحوال على شاهد العلم، وتفقهوا في الفروع. إذا كان العمل فضيلة فيما يهم، فإن ترك العمل فيما لا يهم فضيلة لأن الدخول فيما لا يعني يؤدي إلى النسيان. والحد الأدنى له الندامة يوم القيامة والجهل بالحال[3]. والكلام فيما يعني رذيلة تجب عتق مائة رقبة والتصدق بمائة درهم، وتقضي على الشكر. وهو الدخول فيما لا قصد فيه[4]. والوصول بالعلم وبالنية وبالإرادة. القيام بآداب العلم وشرائعه يبلغ بصاحبه إلى مقام الزيادة والقبول. فالعلم آداب. وأهم من العلم سلوك العلماء[5]. ولا ينقص ظاهر الأدب ظاهر العلم[6]. يؤخذ الأدب من العلم، والأنس من الخلوة، والحياء من شعاب النفس، والاعتبار من التفكر، والحكمة من الخوف[7]. العلم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي العلم الفقهي، العمل. وهو متصل بالعرش. ومن صحب العلم يشاهد الأمر والنهي ضرورة[8]. فالعلم هو التكليف أي الأمر الشرعي. ومطالبة العلم ما تبين به أحكامه فظهرت دلائله. وطالب الحق باستعماله[9]. حقيقة الإرادة استدامة الكد وترك الراحة[10]. والدنيا عمل جاد

(1) السابق ص307.
(2) طبقات الصوفية ص301.
(3) التستري ص221.
(4) السابق ص344.
(5) السابق ص411.
(6) رسالة المسترشدين ص133.
(7) السابق ص154.
(8) طبقات الصوفية ص474.
(9) السابق ص465.
(10) أبو عبد الله محمد بن خفيف، السابق ص465.

تتطلب الإقلال من الضحك وتجنب المزاح[1]. وهناك عبارات توحي بالتوجهات الإيجابية وإن لم تصبح مصطلحات مثل «الفناء في العمل»[2]. وهناك موقف خاص للأعمال[3]. فصفه الله العمل في (كن) وكذلك صفة الإنسان. والعمل دون النظر إليه. وعمل الليل عماد عمل النهار. والوقوف بين يدي الله ليس طلباً منه أو هرباً إليه بل لرفع الحجاب. والعمل عملان راتب وزائر، الأول لا يتسع العلم والعمل إلا به. والثاني لا يتسع العلم إلا به. ميزان العلم النية، وميزان العمل الإخلاص.

ويعلم الإنسان أنه على السنة والجماعة إن عرف من نفسه عشر خصال: التمسك بالجماعة، واحترام الصحابة، وعدم الخروج على الأمة بالسيف، وعدم التكذيب بالقدر، وعدم الشك في الإيمان أو المماراة في الدين، وعدم ترك الصلاة على أهل القبلة، وعدم ترك المسح على الخفين، والتمسك بالجماعة خلف الوالي وإن جار وإن عدل[4]. وتتفاوت الخصال في الأهمية مثل مساواة مسح الخفين بالعلاقة مع الحاكم الظالم. بعضها تقليدي مثل التمسك بالجماعة واحترام الصحابة. وبعضها مذهبي مثل الإيمان بالقدر وعدم الشك في الإيمان، والمماراة في الدين وهو الأشعرية. والبعض الآخر استسلام للأمر الواقع، وهو التمسك بالجماعة خلف الوالي وإن جار، مع أن التصوف مقاومة سلبية، وتغيير المنكر بالقلب وهو أضعف الإيمان. «ولا دليل إلا النبي» تجاوز للقرآن كهداية وتجاهل للإجماع كمرشد وإلى الاجتهاد كدليل. الاشتغال بطلب العلم وقراءة القرآن ينتهي إلى المسرّة وهو لفظ الإنجيل[5]. وأصول ذلك كله وفروعه في السنة. ومن ثم لزم الاقتداء بها[6]. وقد يمتد الاقتداء بالرسول إلى الصديق والفاروق[7]. والاقتداء

(1) التستري ص132.

(2) «وقت نعمة الدوام في الجزاء بأيام الفناء في العمل»، المواقف ص82. «العلم يدعو إلى العمل. والعمل يذكّر برب العلم. فمن علم ولم يعمل فارقه العلم. ومن علم وعمل لزمه العلم»، السابق ص149. «اعلم واجتهد، واعمل واجتهد، واجتهد واجتهد»، السابق ص155.

(3) «موقف الأعمال»، السابق ص87-90.

(4) التستري ص94.

(5) السابق ص106.

(6) السابق ص96-97.

(7) السابق ص201.

بالسنة قبل أن يأتي وقت يلوم الناس الرسول وينفرون منه ويهينوه ويذلونه أي نهاية الاقتداء بالنموذج والتأسي بالمثل الأعلى[1]. والعلم هو العلم الأخلاقي. يتضمن الورع والنصيحة والحلم. والورع ترك الحلال مخافة أن يجر إلى حرام. وهو نوع من الحساسية الزائدة والتوجس خيفة من النفس ومن العالم. والناس على البراءة الأصلية. والفطرة خيِّرة، والطبيعة تميل نحو الخير. والأخلاق عمل بالشرائع ما يوافق السنة، يزيد وينقص[2]. أول الإيمان منوط بآخره. عقد الإيمان «لا إله إلا الله». الإسلام منوط بأداء الشريعة بالإخلاص[3]. والإيمان بالفرائض، وفرض علمها فرض، والعمل بها فرض والإخلاص فيها فرض. فالفعل من أول صور وجوده وهي النية حتى آخر صور تحققه في العالم فرض[4]. والعلم الأكبر الهيبة والحياة. وهما شرط الخيرات. فالعلم هو العلم الأخلاقي[5]. وإذا كانت الأخلاق حداً لا يمكن عبوره تصبح غاية ذاتها. ومع ذلك يعبرها الصوفي لأن من تزين بعمله كانت حسناته سيئات[6]. وإذا ترك الصوفي العمل رجع إليه. فإذا تركه العمل فلا يرجع إليه. الحالة الأولى أخلاق، والحالة الثانية نفس. فالعمل وسيلة للمعرفة وأعمال الجوارح مقدمة لأعمال القلوب[7]. وأنفع الأعمال ما سلم من آفاتها، وكانت مقبولة من صاحبها أي الصدق مع النفس وحسن النية والرضا عن الذات[8]. والإخلاص في العمل أشد في العمل لأنه عمل مزدوج يعجز عنه الرجال[9].

لا يضيء بنور العلم إلا الأتقياء. ومن ذاق حلاوة العلم لا يعبر عنه[10].

---

(1) السابق ص259-260.
(2) التستري ص192.
(3) أبو الحسن البوشنجي، طبقات الصوفية ص461.
(4) السابق ص304
(5) السابق ص269.
(6) ذو النون، طبقات الصوفية ص23.
(7) أبو حفص النيسابوري، السابق ص118.
(8) أحمد بن عاصم الأنطاكي، السابق ص138-139.
(9) عبد الله بن حبيق الأنطاكي، السابق ص145.
(10) السابق ص214-215.

ولا تثبت الحكمة بقلب يحب الدنيا[1]. ولا يعطى العلم من كان للدنيا لديه قدر وقيمة[2]. والعمل بالحق يزيد نور البصيرة[3]. والحذر من الدين لله بالعقل، والعمل بالهوي، وترك الحق، وتبوء الباطل، وتمنى المغفرة مع نسيان التوبة. ولا علم وعمل إلا إذا ثبتا باليقين والصدق والورع والإشفاق والخشية[4]. وحماية القلب من سوء الظن بحسن التأويل[5]. ويُحذر من التوسع في المنطق حتى ولو كان الإنسان بليغا.

ثم تأتي علوم التصوف. فبين الإنسان والله سر. يفزع الإنسان، ويلجأ إليه، ويطلب العفو منه، وهو أسير بين يدي العدو، مفتون بالدنيا. والاشتغال عن الله طرفة عين يُذهب العلم. فالعلم مرتبط بيقظة الوعي بالداخل أكثر من الخارج، بالوعي أكثر من الإحساس[6]. الأعمال هي: الاستغناء بالله، والإخلاص، والرجوع إلى طاعة الله. العلم إما يدل على الهداية وهو اليقين أو على التوكل أو على الإخلاص. فالعلم نظري وعملي[7]. ولا يصح الحال إلا في أصل الدخول على الله وإتباع السنة. الصلاح للخلق. والظاهر الاقتداء بالسنة والباطن النية والإخلاص. العلم هو علم الحال في الحركة والسكون بين العالم والله. العلم شعوري، علاقة الشعور بالآخر المطلق[8]. وأقرب حالات أصل المعرفة ذكر قيام الله. العلم قطع عن الجهل وليس قطعاً عن الله. والله في العلم يعني البحث المستمر أي تقدم العلم[9]. الصوفية وحدهم من بين البرية هم السابقون السابقون، المقربون بالعطيات، والمرتفعون في المقامات. عرفوا الله حق معرفته. وعبدوه أخلص عبادة. وآووا إليه بالشوق والمحبة[10]. والاقتداء بالنبي يجعل الصوفي إماما

(1) السابق ص160.
(2) السابق ص212.
(3) التستري ص58.
(4) طبقات الصوفية ص166.
(5) رسالة المسترشدين ص89.
(6) التستري ص255.
(7) السابق ص303.
(8) السابق ص270.
(9) طبقات الصوفية ص474.
(10) السابق ص247.

لمن بعده[1]. والأنبياء معصومون، وطاعتهم بعون الله[2]. العلم إذن علمان: قيام العبد بقيامه مع الله، وعلم الله في العبد وهو مغيّب عن العباد إلا أصحاب الكشف كالنبي أو الولي[3]. العلماء بالله هم الواقفون معه على حدود الآداب، لا يتجاوزون بها إلا بإذن[4]. ومن تولاه رعاية الحق أحل ممن تؤديه سياسة العلم. فلماذا تكون رعاية الحق مضادة لسياسة العلم؟ لا يعرف الإنسان إلا العلم. وهو القاسم المشترك بين الناس[5].

والتصوف أعلى مراتب العلم وهي سبعة: المخالفة للنفس، والمكابدة، والطهارة، والسهولة والمسارعة، ودرجة الحلول ثم مرتبة المذاق. وكلها نوع من الرياضة والمجاهدة. فحكم العلم سماعه من الله وهم العلماء الأقوياء أي العلم المباشر من الله بالسماع والمشافهة أو النظر أو الصحبة. العلم هو الفهم. فلا يخرج علم من الله إلا وهو مفهوم. والعالم عالم لأن أفعاله ترد إلى الحول والقوة لا إلى التدبير. فالعلم لدني. والقوة ثلاثة أنواع. الأولى يثبت بها العمل والروح، وتؤدي بها الفرائض. والثانية تقع بها المعصية أو الطاعة والأفعال المكتسبة. والثالثة تقع بها المعاصي فقط واكتساب الأفعال بالأهواء والشهوات فتستحق العقوبات. والعلماء هم الذين فتحت قلوبهم. وهم على درجات في الغرف منه[6].

وتقيد الجوارح بأحكام العلم، ومراعاة الهم بمعرفة قرب الله وخشيته[7]. العلم ورع وأمر ونهي وسنة وآداب وترغيب وترهيب ونية[8]. يمنع العلم الدخول في الدنيا بالجهل، ونسيان المعاد[9]. والعمل بالحق، وبالله الثقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[10]. ونصيحة الصوفي الالتزام بمواهب العلم واحترام

(1) التستري ص70.
(2) السابق ص201.
(3) طبقات الصوفية ص477.
(4) السابق ص283.
(5) السابق ص411.
(6) التستري ص148.
(7) المسترشدين ص86-88.
(8) السابق ص197-198.
(9) السابق ص108.
(10) السابق ص165.

جميع المسلمين، وعدم تضييع الأيام. أما النصيحة بعدم التصدر والخمول بين الناس فكلما زاد الاشتغال بهم قل حظ إتباع أوامر الله. مطالبة العلم ما تبين به أحكامه فظهرت دلائله وطالب الحق باستعماله[1].

العلم أفضل مجاهدة. ولولا اختلاف العلماء لبقي العلم نهاية المطاف. واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد بشرط أن يكون صوفياً. والتصوف نفسه عليه خلاف. هو أحد المقاربات للتوحيد ولكنه ليس الوحيد. فهناك التوحيد كما يتصوره المتكلمون (الذات والصفات والأفعال) والفلاسفة (واجب الوجود) والأصوليون (الشارع). والعبرة بالأوتار، والمعتبر بالأثقال. الوتر سماع، والمثقال رؤية. الأول تجربة شخصية، والثاني مقياس موضوعي. والعلماء يصحب بعضهم بعضا بعيدا عن الجهال[2]. وهي نخبوية وعزلة يُستحق عليها أهل الملامة واللوم.

العلم كلمتان عدم التكلف بما كفي، وعدم ضياع ما استكفي[3]. فالتكلف تعالم والبعد عن التكلف في الدين حتى ولو كان الإنسان عالماً. ومنها عدم الإكثار من الأيمان في الصدق. العلم حياة القلب من الجهل، ونور العين من الظلمة[4]. هو العلم الشعوري المباشر. العلم يغفر العيوب. وإذا احتاج أحد إلى علم فلا ينظر إلى عيوب. حتى لا يحرم من علمه[5]. العلم لآداب الظاهر، والورع لآداب الباطن. والأهم عدم الانشغال عن الله أو الإعراض عنه[6]. والأقوال الأفعال قرينان[7]. تمثلها الرسول بدلاً من الجدل والبلبلة عند المتكلمين. وحجة الأقوال لا تقرب، وحجة الأفعال تأتي بالحب[8].

ويقل التركيز على العمل في «الولاية» على عكس الشطحات. ومن يرد عليه

(1) طبقات الصوفية ص456.
(2) حمدون القصار، السابق ص127.
(3) أبو إسحق إبراهيم الخواص، السابق ص285.
(4) أبو على الثقفي، السابق ص364.
(5) عبد الله بن محمد بن منازل، السابق ص369.
(6) إبراهيم بن شيبان القرميسيني، السابق ص404.
(7) السابق ص120-122.
(8) «حكم الأقوال والأفعال حكم الجدال والبلبال. وحكم الجدال والبلبال حكم المحال والزلزال»، السابق ص120-121.

عمله له لباس السواد. فالعمل المردود أسود، والعمل المقبول أبيض[1]. العمل مجرد وسيلة للقرب وليس غاية في ذاته[2]. وأحياناً تكون المبادرة من الإنسان. يدل على الحجاب ويمد الله له نار الوصول، إذا صحب الله وصل. وإذا سأل أجيب، وإذا اختار سقطت المؤاخذة. وإذا كفي عينيه كفاه الله قلبه. وإذا كفاه النوم كفاه الله اليقظة. وإذا كفى شهوته كفاه الله حاجته[3].

وأهل المعرفة لا يتركون العبادات أي الحركات من باب البر والتقوى. ولا يسقطون الأعمال. فقد أخذوا الأعمال عن الله ورجعوا إليه فيها. ولو بقيت المعارف ألف عام لا تنقص أعمال البر ذرة إلا إذا حيل بينهم وبينها. بل إن المعرفة تجعل العبادة أوكد، والحال أقوى. ومع ذلك لم يسلم الجنيد من اتهامه بالكفر. أما ابن سينا فإنه يعتبر العبادة وسيلة إلى الوصول والمعرفة. فبعد تحقيق الغاية ينتهي دور الوسيلة.

العارف لم يأسره لحظه ولا لفظه. في حين أن الجنيد أسره لفظه في الشطحات، ولحظه في الوجد[4]. والغفلة عن الله أشد من دخول النار[5]. شكر العلم العمل، وشكر العمل زيادة العلم[6]. العلم بالله أهم من عبادته[7]. فالعلم عبادة. المعاملة استعمال الأولى فالأولي من العلم[8].

أيام العمر معدودة كما تردد الأغاني الشعبية. إذا ذهب يوم ذهب بعض العمر أي الوجود الإنساني. من هنا أتت ضرورة العمل[9]. والصوفي قطعة شمع

---

(1) الولاية ص260.
(2) «يا عبد، لا تكن بالأعمال فتقف بك، ولا بالأحوال فتحول بك. يا عبد، كيف تكون بالعمل تعمل، ويكون قلبك عندي لا في العمل؟»، المخاطبات ص235.
(3) السابق ص251.
(4) الجنيد، طبقات الصوفية ص158-159.
(5) التستري، السابق ص207.
(6) أبو محمد الجريري، السابق ص263.
(7) أبو بكر الكتاني، السابق ص376.
(8) أبو سعيد بن الأعرابي، السابق ص428.
(9) «إنما أنت أيام معدودة. فإذا ذهب يوم ذهب بعضك. ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل»، رابعة ص127/ 137/ 175.

وإبرة وشعرة. يشتعل كالشمعة ليضيء للناس. ويتجرد ثم يعمل. فيصير نحيلاً كالشعرة[1]. والعمل هو ما لا يظهر، ولو ظهر لا يُعد عملاً[2]. والفعل ممتد في الزمان، إصلاح ما بقي في المستقبل لمحو ما مضي. فإيجاب المستقبل يمحو سلب الماضي[3]. ولا يغتم الإنسان إلا من شيء يضر في الغد[4]. ولا يفرح إلا من شيء يسره في الغد. وكيف يحدث ذلك وأفعال الغد ممكنة وليست ضرورية؟ وأفضل الأعمال عمارة الأوقات بالموافقات. والموافقات مع من، الله أم البشر؟ وماذا عن المخالفات؟ مع الله عتاباً ومع البشر معارضة؟[5]. أفضل أعمال العبيد حفظ الأوقات، وعدم التقصير في أمر أو التجاوز عن حد[6]. والعمل هو الذي يُجازي بالإحسان[7]. والمطلوب هو النجاة من العالم ومخاطره[8]، وعدم الاغترار بالدنيا وبريقها[9]. والتأني أفضل من العجلة، والتعجل في فعل الخير، وترك مواطن الاشتباه[10].

8 ـ نقد العصر

ويغلب نقد العصر على مقدمة المؤلفات. فهو أحد بواعث التأليف. وتكثر الإشارة في الأعمال الصوفية إلى «هذا الزمان» مما يساعد على رؤية ظروف العصر والبيئة الاجتماعية التي ظهر التصوف فيها كرد فعل عليها. تحزن على أحوال الناس، وتبدل الزمان، وتغير الأحوال وضياع الحق، وغياب الصدق وذهاب الإيمان وسيادة البدع. فالتصوف مرتبط أشد الارتباط بظروف العصر ولكن كرد

(1) «يا حسن! اشتعل كالشمع، وأضئ للناس. وابدأ بأن تكون متجرداً ثم اعمل. فإن فعلت هذين صر نحيلاً كالشعرة إذا أردت ألا يذهب جهدك سدى»، السابق ص150.
(2) «ما ظهر من عملي فلا أعده شيئاً»، السابق ص165.
(3) أحمد بن عاصم الأنطاكي، طبقات الصوفية ص140.
(4) عبد الله بن حبيق الأنطاكي، السابق ص145.
(5) أبو عبد الله المغربي، السابق ص243.
(6) مظفر القرميسيني، السابق ص398.
(7) السابق ص73.
(8) السابق ص104-105.
(9) السابق ص131.
(10) السابق ص135.

فعل عليه[1]. لم يخل عصر من عيوب نقدها الصوفية مثل تبعية العلم للهوي والتحول من تبعية الهوى للعلم إلى تبعية العلم للهوى[2]. ويذهب الإسلام بالعلم بلا عمل، والعمل بلا علم، وعدم تعلم ما لا يُعلم، ومنع الناس من العلم. فالعلم له الأولوية في العمل والتعلم ونشر العلم[3]. ويأتي على هذه الأمة زمان لا تطيب المعيشة فيها لمؤمن إلا بعد استناده إلى منافق. وهو زمان ضياع الإيمان، وانتشار النفاق، وتوقف الصدق على النفاق[4]. ومن مظاهر أزمة العصر ترك الكليات، والانشغال بالجزئيات حتى حرّموا كل شيء دون استعمال الكراهة. وحلّلوا كل شيء دون استعمال الندب. ووقع السلوك الإنساني بين حدي الحلال والحرام الضرورين دون أفعال الحرية المتوسطة[5]. ومن علامات آخر الزمان تكون

(1) «وفي زماننا هذا...»، قوت القلوب جـ1/ 297، «في مثل زماننا هذا»، السابق جـ2/ 34. «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع. وسيأتي عليكم زمان يكون خيركم فيه المتبيّن لوضوح الحق في القرن الأول ولدخول الشبهات في زماننا هذا فصار الحق غامضاً»، السابق ص283. «وهذان طريقان قد درسا وقد عفا أثرهما في وقتنا هذا، لا يسلكه إلا من عرفه، الفرد بعد الفرد، والسابلة من الفرار على طرقات التصنع والتزين»، السابق ص391. وقال الثوري «هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الجاهل فكيف بالمشهورين؟ وهذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد. كلما عرف في موضع تحول إلى غيره»، السابق ص425. «هذا يقوله في سنة عشرين ومائتين والحلال والنساء أحمد عاقبة فكيف بوقتنا هذا؟ فالأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمن الفتنة...»، السابق ص490. «وكان النساء قديماً غيرهن الآن»، السابق ص506. «وليجتنب الصنائع المحدثة من غير المعروفة والمعايش المبتدعة في زماننا هذا فإن ذلك بدعة مكروهة إذ لم يكن فيما مضي من السلف»، السابق ص539.

(2) مثل قول بن مسعود «أنتم اليوم في زمان الهوي فيه تابع للعلم. وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى»، الإحياء جـ1/ 86. «ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم، تلعبون بهم لعباً، وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم. إن استغفروا لم يغفر لهم. ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات. فجاء قوم بعد القرن الأول خبت فيهم الأهواء، وزين لهم البدع، فاستحلوها واتخذوا ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها. فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاؤوا»، السابق ص87.

(3) طبقات الصوفية ص214.

(4) السابق ص365. وهو نفس ما تتحسر عليه المواويل الشعبية على ذهاب النبيل والكريم وحضور الخسيس.

(5) وهو معنى قول أحمد «تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب. ما أقل العلم فيهم»، الإحياء جـ1/ 86. وقول مالك «لم تكن الناس فيما مضي يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس =

العلانية أعداء السريرة، وينتهي الباطن ويسود الظاهر، والتحول من المضمون إلى الشكل، ومن الجوهر إلى العرض[1].

وضاع من هذا العصر علماء الآخرة وكثر علماء الدنيا[2]. غاب علماء المصالح العامة وحضر فقهاء الحيض والنفاس. ذهب فقهاء الأمة وحضر فقهاء السلطان. المتقري هو الصوفي المزيف. المتكلف بنفسه، المظهر لزهده مع كمون رغبته وتربيته لبشريته. اسمه مضمر في فعله لرؤية نفسه ودعواه[3]. لا يطيق سماع القراء ومشاهدة تعظيم طاعتهم لأنهم حولوا القراءة إلى حرف بلا معنى[4]. المتقري هو الفقيه الذي يقرأ القرآن ولا يفهم معناه الباطن. فالمقصود من التنزيل التأويل، ومن القراءة التلبية[5]. والمتقريء لا يدرك إلا الظاهر. والصوفي يتخفي أمامه في أفعاله. المتقريء لا يصبر تحت شجرة التمر. ولو صبر لأكل التمر

= اليوم. ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه. ومعناه أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب»، السابق ص86.

(1) «في آخر الزمان أقوام يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة»، الفضيل بن عياض، السابق ص10. «ابتلينا بزمان وليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوي المروءة»، أبو بكر الواسطي، السابق ص303. «ذهبت حقائق الأشياء، وبقيت أسماؤها. فالأشياء موجودة، والحقائق مفقودة. والدعاوى في السرائر مكنونة، والألسنة بها فصيحة. الأمور عن حقوقها مصروفة. وعن قريب تفقد هذه الألسنة وهذه الدعاوي. فلا وجد لسان ناطق، ولا مدع مطلب»، السابق ص350.

(2) «علماء الدين هم ورثة الأنبياء. وقد شغر منهم الزمان. ولم يبق إلا المترسمون. وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان، واستغواهم الطغيان. وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظل علم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً. وقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام»، الإحياء جـ1/ 9.

(3) طبقات الصوفية ص468.

(4) السابق ص352. «كنت ترى حامل القرآن في خمسين رجلاً فتعرفه قد مضغه القرآن. وأدركت القراء الذين هم القراء. فأما اليوم فليسوا بقراء ولكنهم خراء»، حلية الأولياء جـ3/ 246.

(5) «يا متقرئ، انظر إن أعطاك كل ما أعطى الأنبياء فقل أريدك ولا أريد غيرك»، شطحات ص99.

وأصبح مع المتزهدين المقربين[1]. ويظن المتقرئ أن من يمدح الله يمدح نفسه. وينصح البسطامي المتقريء بأن يُري كما هو أو يكون كما يُري[2]. والمتقرئ يخرق نفسه ولا يدري. ولا يفهم الكرامة ويحسبها ادعاء.

نقد الصوفية ليس إنكاراً لهم بل غيرة عليهم لأنهم أفشوا أسرار الحق وأبدوها إلى غير أهلها. فهم السادة، يتقرب بمحبتهم إلى الله تعالى[3]. وهؤلاء أصحاب الشطحات. وإسقاط الأعمال أمر عظيم عند الصوفية، وكذلك القول بالحلول مثل قول النصارى والحلاج. ومن الناس من ينتمي إلى الصوفية وليس منهم. مثال ذلك القلندرية وهي الملامتية مع أنها عند إقبال نموذج الفقير. فإذا كان الملامتي حالاً شريفاً ومقاماً عزيزاً وتمسكاً بالسنن والآثار وتحققاً بالإخلاص والصدق فإن القلندرية هم أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى ضربوا العادات، وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم فقلت عباداتهم ومباحاتهم ورخصهم دون غرائمهم. لا يدخرون ولا يستكثرون. بل يتقشفون ويتزهدون ويتعبدون. يعمل الملامتي في كتم العبادات ويعمل القلندري في تخريب العادات. يتمسك الملامتي بكل أبواب البر والخير ولكن يخفي الأعمال والأهوال، ويأخذ موقف العوام في هيئته وملبسه وحركاته وأموره ستر الحال. والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا يبالي بحال. تكفيه طيبة القلوب. والصوفي يضع الأشياء في مواضعها ويدبر الأوقات، والأحوال بالعلم. يقيم الخلق مقامه، ويقيم الحق مقامهم. يستر ما يستر، ويظهر ما يظهر. يأتي الأمور في موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص. وقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا ألبسة الصوفية لينتسبوا إليهم وما هم منهم بل في غرور وغلط يتسترون بلباس الصوفية وينتهجون منهج الإباحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله. فهل هذا هو عين الإلحاد والزندقة بطرحه العبودية؟[4].

---

(1) السابق ص119.

(2) «يا متقريء أرِ كما أنت أو كن كما ثري»، السابق ص120-121.

(3) طبقات الصوفية ص408.

(4) «ذكر من انتمي إلى الصوفية وليس منهم»، عوارف المعارف جـ2/ 2-13.

9 ـ هل للصوفية أخطاء؟

وفي نفس الوقت الذي يدافع فيه الصوفية المؤرخون عن التصوف، وانتسابهم إلى القرآن والحديث واقتداؤهم بالرسول والصحابة والتابعين وأهل الصفة والمصطفين إلا أنهم يذكرون أيضاً أغلاطهم التي حملت الفقهاء إلى العداء لهم[1]. وهم على أية حال مكفرون سواء شطحوا أم لم يشطحوا.

ويجمع الصوفية على ثلاثة أشياء هي مقياس الصوفي الحقيقي الصادق من الصوفي المدّعي المتظاهر: اجتناب جميع المحارم كبيرها وصغيرها، أداء جميع الفرائض، عسيرها ويسيرها، وترك الدنيا على أهل الدنيا قليلها وكثيرها إلا ما أقام أود المؤمن[2].

إذن يمكن إصلاح التصوف وإعادة بنائه لإزالة الأخطاء المتراكمة عليهم من الطرق الصوفية وسوء الفهم، والمغالاة، وأحادية الطرف، والهروب من الواقع، والاتجاه إلى أعلى دون الأمام، وإنقاذ النفس دون العالم. وهي أخطاء عديدة يكفي البعض منها[3].

وفرق الصوفية الذين غلطوا ثلاثة طبقات لثلاثة أسباب[4]:

أ ـ الغلط في الأصول بسبب قلة الإحكام لأصول الشريعة، وضعف الصدق والإخلاص وقلة المعرفة. فقد حرموا الوصول لتضييع الأصول.

ب ـ الغلط في الفروع وهي الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال لقلة المعرفة بالأصول، وإتباع حظوظ النفس وأمزجة الطباع.

جـ ـ الزلة والهفوة دون العلة والجفوة. فإذا تبين لهم ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور.

---

(1) اللمع ص516-555.

(2) وهو معنى حديث «أربعة في الدنيا وليست هي من الدنيا: كسرة تسد بها جوعتك، وثواب تواري عورتك، وبيت تسكن فيها، وزوجة صالحة تسكن إليها» السابق ص516-517.

(3) «وقد اختصرت ذلك لكراهية التطويل. وفيما ذكرت كفاية وبُلغة لمن عقل من المسترشدين والراغبين في هذا العلم»، السابق ص555.

(4) باب في ذكر الفرقة الذين غلطوا وطبقاتهم وتفاوتهم في الغلط، السابق ص518-519.

هناك أغلاط في الأصول مثل الغلط في الحرية والعبودية. فالعبد يطلب أجر خدمته، والحر لا يطلب. وغلط من ظن أن الحرية أفضل من العبودية طبقاً للمعنى التداولي في أفضلية الحرية على العبودية. فالإنسان عبد أمام الله. فإذا وصل إليه صار حراً فسقطت عنه العبودية[1]. وعبودية العبد هي حرية القلب. وقد أطلق الله نفسه على خلقه عباده[2]. وملائكته ورسله عباده وأطلق الرسول على نفسه اسم العبد[3]. ومع ذلك فالمعنى التداولي للعبد الآن معنى سلبي. وتقوم الثورات من أجل الحرية. وتندلع المظاهرات منادية بالحرية بصرف النظر عن من هو السيد، العبد عبد لمن؟ وفي الثقافة الشعبية لا فرق بين صورة الله وصورة «سي السيد».

والغلط في التوسع والتضييق في الدنيا وترك الاكتساب[4]. لا تكون السعة إلا للأنبياء والصديقين لأنهم ينفقون على الأغيار. ويأخذون الأسباب بالحقوق لا بالحظوظ أو من توهم أنه في حال فهو خاطيء. وغلط من ظن التقلل بالتقشف وليس الدون وأكل القليل وحرم المباحات[5]. وطبقة أخرى تأخذ القوت بالكسب[6]. وهذا ليس غلطاً. والتوكل هو العزيمة، والكسب رخصة. وليس للإنسان إلا كسبه. ولا يشغله عن الصلاة. إنما الخطأ فيمن طعن على المكتسبين وقعدوا معتمدين على الأحوال[7]. وقوة الإيمان هي قوة الإرادة.

---

(1) باب ذكر من غلط في الأصول وأداء ذلك في الضلالة ونبتدئ بذكر القوم الذين غلطوا في الحرية والعبودية، السابق ص531-532.

(2) وعباد الرحمن، نبئ عبادي، والملائكة عباد مكرمون، واذكر عبادنا، واذكر عبدنا، نعم العبد.

(3) «أفلا أكون عبدا شكورا»، «خيرت بين أن أكون نبياً ملكاً ونبياً عبداً فأشار إليّ جبريل عليه السلام تواضع فقلت بل نبياً عبداً».

(4) «باب في ذكر من غلط في التوسع، وترك التوسع من الدنيا بالتقشف والتقلل، ومن غلط في الاكتساب وترك الأسباب»، السابق ص523-524.

(5) «وطبقة أخرى تعلقوا بالتقشف والتقلل واعتادوا الدون من اللباس والقليل من القوت. وظنوا أن كل من رفق بنفسه أو تناول شيئاً من المباحات أو أكل شيئاً من الطيبات أن ذلك علة وسقوط من المنزلة. وكل حال غير الحال الذي هم عليه عندهم زلة. وقد غلطوا في ذلك»، السابق ص523.

(6) «أحل ما يأكل المؤمن من كسب يده».

(7) «وطبقة أخرى طعنوا على المكتسبين، وجلسوا معتمدين على حالهم، متشرفين إلى من يفتقدهم. وعندهم أن هذا هو الحال. وقد غلطوا في ذلك لأن الجلوس عن المكاسب =

وغلطت فرقة في الإباحة والحظر، وجعلوا الأشياء في الأصل على الإباحة. وقد وقع الحظر للتعدي. وهو مبدأ أصولي، وأقرب إلى الطبيعة والفطرة[1]. أما جعل الأشياء في الأصل على الحظر حتى تتم إباحتها بالأمر فهو أقرب إلى النظرة المسيحية بسبب الخطيئة الداخلة في نسيج الكون. وليس أحد ملزماً بالشرائع السابقة[2]. ولا يتساوى الأصلان. والخير أرجح من الشر، والحلال أرجح من الحرام.

ومن الخطأ ترك الطعام وإيثار العزلة والانفراد[3]. فإذلال النفس ضد إثباتها. دخول كهوف الجبال واعتزال الناس ليس طريقاً لإصلاح العالم. وفعل ذلك اختيار شخصي وليس سلوكاً للناس جميعاً. وتكلف آخرون لبس الصوف والمرقعات المعمولة والمصبوغات وتعلموا الإشارات وظنوا أنهم من الواصلين. وهذه حالات خاصة طبقاً لقوة الدافع على العلم دون تكلف. وقوم جبّوا أنفسهم لقطع الشهوات. وهو غلط لأن قطع الآلة لا يقضي على الشهوة. وقوم هاموا على وجوههم في البراري والبوادي بلا زاد ولا ماء متوهمين أن ذلك حقيقة التوكل. وهو خطأ لأنه ضد آداب السلوك. وقوم تكلفوا الإشارات وحفظوا الحكايات وظنوا أنهم أصحاب الأحوال. وقوم عمدوا إلى الأوراد والبكاء والخشية وظنوا أن هذا هو الحال المقصود. وهي أشياء لا تأتي في البداية بل وفي النهاية. والبدعة انحراف عن الحق. ومن طبع على البدعة متي يشيع فيه الحق؟[4]. وظن قوم أن التصوف هو السماع والرقص والدعوات والإرفاق وأشعار الغزل. وهو خطأ لأن كل قلب ملوث بحب الدنيا فكل ما يأتي به من مظاهر الوجد تكلف. ومنهم من غلط في الفقر والغنى وتفضيل الغنى، الغنى بالله نعم وليس الغنى بأعراض الدنيا[5]. والفقر إلى

= ينبغي أن يكون من قوة اليقين والصبر. فمن ضعف يقينه وغلب عليه طبعه وطمعه يُؤمر بالدخول في الطلب، والطلب مباح»، السابق ص524.

(1) «باب في ذكر الفرقة التي غلطت في الإباحة والحظر والرد عليهم»، السابق ص538-540.

(2) «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات. وحرام الله حِمَى. فمن حامَ حول الحمى يوشك أن يقع فيه».

(3) «باب في ذكر طبقات الذين غلطوا في ترك الطعام والعزلة والانفراد وغير ذلك»، السابق ص527-530.

(4) «طبقات الصوفية »ص59.

(5) «باب في ذكر من غلط في الفروع التي لم تؤدهم إلى الضلالة. ونبتدئ في ذكر الطائفات =

الله مقرون به الصبر والشكر والرضا والتفويض والسكون والطمأنينة. وتوهمت فرقة وجعلت الفرقة غير المقرون بهذه المقامات والأحوال أفضل من الغنى. والنفس محتاجة، وليس من صفات البشر الطمأنينة والسكون. والفقر مكروه ولا يلائم الطبع. والغنى من الحقوق[1]. الفقر في ذاته محمود ولكن صحبته علة، والعلة مذمومة. والغنى بالدنيا في ذاته مذموم إلا إذا صاحبه البر. والفقر والغنى حالان للصبور. ومع ذلك فالطبيعة تكره الفقر أكثر مما تكره الغنى. فهما لا يستويان. وليس المقصود الفقر وحده بل آداب الفقر. وغلط قوم في الفقر. لم يكن لهم زهد. وكانت لهم رغبة وهمم وزينة. فقبلوا العطاء لنفوسهم. وزعموا أنه اختبار. فخالفوا السلف في التمييز بين الابتلاء والاختبار[2].

وظن قوم في الصفاء والطهارة دائمتان وتامتان. وهو خطأ لأن الإنسان لا يصفو تماماً على الدوام. هو حال يأتي ويذهب. والطهارة لقلب العبد من الحسد والشرك. أما الطهارة من جميع صفات الخلق على الدوام فخارج عن نطاق البشرية[3]. وغلط آخرون في عين الجمع لأنهم لم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله إليهم. ولم يصفوا أنفسهم بالحركة احترازاً ألا يكون شيء مع الله. ففرضوا الجبر على حركاتهم، وأسقطوا الملامة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود. والبعض جعل نفسه معذوراً. وهو خطأ ناشئ عن إضافة الفرع إلى الأصل أو إضافة الأصل إلى الفرع. هو خطأ بين الحقوق والحظوظ، وبين الحق والباطل، وبين الأمر والنهي[4].

وقد غلط أهل العراق في الإخلاص. فأخطاء الصوفية تتعدد بتعدد الأقطار. فقد زعم بعضهم أن الإخلاص لا يتم إلا إذا خرج عن رؤية الخلق، ولا يوافقهم في جميع أعمالهم حقاً أو باطلاً. وقد ضل هؤلاء لأن جماعة من أهل الفهم

= الذين غلطوا في الفقر والغنى»، اللمع ص520-522.

(1) «وخلقت النفس محتاجة. وليس من صفات البشرية الطمأنينة والسكون عند عدم القوام والقري. والفقر تكرهه النفس، ولا يلائمه الطبع والهوى لأنه من الحقوق. والغني تحبه النفس ويلائمه الطبع والهوي لأنه من الحظوظ»، السابق ص520.

(2) قوت القلوب جـ2/ 411.

(3) «ذكر من غلط في الصفاء والطهارة»، اللمع ص547.

(4) «ذكر من غلط في عين الجمع»، السابق ص549-550.

والمعرفة رأوا أن الإخلاص لا يصفو لهم حتى لا يبقى عند العبد بقية من رؤية الخلق. وظنوا أنه يصح لهم الدعوى والتقليد والتكلف قبل السلوك في الطريق والتأدب بآدابه فجاوزوا الحدود وغلبتهم النفس والأهواء[1].

ومن الخطأ فتور الإرادة والنكوص عن المجاهدة والسكون إلى الراحة[2]. وهذا خطأ في العبادات ورياضات النفوس والمكابدات، ورجوع إلى القهقرى. والفتور مؤقت وليس دائماً. وما وقع فيه البعض هو الكسل والتواني والأماني الكاذبة. السفر مصدر للعلم ولقاء المشايخ تعليم. ومن الخطأ إنفاق الأموال والأملاك وكأن المراد هو الإنفاق في حد ذاته. وهو خطأ لأن المقصود ليس السخاوة أو السماحة. وانبسط آخرون في المباحات ولم يراعوا الأوقات. وهو خطأ لضياع الوقت. وما فات لا يدرك. وغلط قوم في الأنس والبسط وترك الخشية[3]. فقد توهموا أن بينهم وبين الله حال من القرب والدنو. فلم يلتفتوا إلى الآداب المرعية بدعوي دفع الكلفة بين المحبين.

وغلط من ظن أن الرؤية بالقلوب[4]. فقد ادعى بعض أهل الشام ذلك في الدنيا. الرؤية بالعيان في الآخرة. ولا تعني رؤية القلب أكثر من التصديق والمشاهدة بالإيمان وحقيقة اليقين[5]. والرؤية لا تتطلب موضوعاً مرئياً. الرؤية لصورة خيالية.

وغلط قوم في تصور الروح على أنه نور من نور الله، حياة من حياة الله مخلوقة، وأن روح القدس من ذات الله، وأرواح العامة مخلوقة وأرواح الخاصة ليست مخلوقة، وأن الأرواح قدسية لا تموت ولا تعذب ولا تبلى، وأنها تتناسخ من جسم إلى جسم، وأن للكافر روح واحد، وللمؤمن ثلاثة أرواح، وللأنبياء والصديقين خمسة أرواح، وأنها خلقت من النور، وأنها روحانية خلقت من

(1) «باب في ذكر من غلط من أهل العراق في الإخلاص»، السابق ص533-534.

(2) «باب في ذكر طبقات الذين فتروا في الإرادات، وغلطوا في المجاهدات، وسكنوا إلى الراحات»، السابق ص525-526.

(3) «ذكر من غلط في الأنس والبسط وترك الخشية»، السابق ص551.

(4) «باب ذكر من غلط في الرؤية بالقلوب»، السابق ص544-549.

(5) مثل آية ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، وحديث «عبد نوّر الله قلبه» و«اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

الملكوت. وهي روحان: روح لاهوتي، وروح ناسوتي[1]. والروح من أمر الله[2]. والحقيقة أن الأرواح كلها مخلوقة. وهي أمر من أمر الله. ليس بينها وبين الله سبب ولا نسبة، غير أنها من ملكه وطوعه وفي قبضته، غير متناسخة. تموت كما يموت البدن، وتنعم كما ينعم، وتعذب كما يعذب. وتحشر في البدن الذي تخرج منه. خلق الله روح آدم من الملكوت وجسمه من التراب. وكلها ظنون.

وزعمت طائفة أنها ترى أنواراً. ويصف قلبه بأنه به أنوار. وهي الأنوار التي وصف الله بها نفسه، أنوار المعرفة والتوحيد والعظمة. وهي غير مخلوقة، والحقيقة أن الأنوار كلها مخلوقة، نور العرش، ونور الشمس، ونور القمر والكواكب. ونور الله لا يدرك وغير محدود ولا يحيط به علم الخلق[3].

وغلط آخرون عندما فضلوا الولاية على النبوة في قصة موسى والخضر. فقد كان الخضر أعمق فهماً من موسى. وقد خص الله كل نبي بميزة، آدم بسجود الملائكة، ونوح بالسفينة، وصالح بالناقة، وإبراهيم بالنار التي لا تحرق، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى، ومحمد بانشقاق القمر ونبع الماء بين أصابعه. وخص غير الأنبياء بكرامات، مريم بهز جذع النخل ليسقط عليها الرطب الجني. وآصف بن برخيا كان عنده علم الكتاب حتى أتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه. كما خص الهدهد بمعرفة المياه[4]. وقد خص البشر أيضاً بصفات مميزة. زيد بالفرض، وأُبي بالقراءة، ومعاذ بمعرفة الحلال والحرام[5]. فالكرامة جزء من أربعين جزءاً من النبوة. وللأنبياء معرفة بواسطة، وللأولياء بلا واسطة. وللأنبياء الرسالة والنبوة وليس للأولياء. الولاية جزء من النبوة ولا يكون الجزء أفضل من الكل.

والحلولية خطأ. ومع ذلك فهو خطأ في الفهم قبل الخطأ في الاتهام. ويكون الحلول في المستحسنات أو في المستحسنات وغير المستحسنات أو على

---

(1) «باب في ذكر من غلط في الروح»، السابق ص554-555.

(2) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

(3) «باب ذكر من غلط في الأنوار»، السابق ص548.

(4) «باب في ذكر من غلط في النبوة والولاية»، السابق ص535-537.

(5) «أفرضكم زيد، وأقرؤكم أبي، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»، السابق ص536.

الدوام أو وقتاً دون وقت. الحلول نتيجة للقرب، وإحساس بالشعور[1].

وغلط قوم في فناء البشرية بناء على سماع قول المتحققين بالفناء. فظنوا أنه فناء البشرية. فتركوا الطعام والشراب وظنوا أنهم تحققوا بالإلهية. وهناك فرق بين البشرية وأخلاق البشرية. فالبشرية لا تزول عن البشر. في حين تتبدل أخلاق البشرية. يعني الفناء عند أصحابه رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد مثل فناء الجهل بالعلم، وفناء الغفلة بالذكر[2]. ويمكن نفي فناء البشرية بتحليل وجودي واجتماعي وسياسي وتاريخي أعمق. وغلط قوم من البغداديين عندما أعلنوا أنهم فنوا عن أوصافهم، ودخلوا في أوصاف الحق كما تقول النصارى في المسيح. في حين أن أحد معاني التصوف إسقاط الصفات الإنسانية والتحلي بالصفات الإلهية[3]. وغلط قوم من أهل العراق في ادعاء فقد الحس في حالة الوجد. فلا يحسون بشيء[4]. مع أن فقد الحس لا يُعلم إلا بالحس. فالكائن الحي لا يفقد حواسه بل يغيب منها في المواجيد الحادة والأفكار القوية. وما دام الإنسان روحاً كائناً حياً فإنه لا يزول عنه الحس إنه الحس مقرون بالحياة والروح.

10 ـ انهيار التصوف

ليس التصوف علماً فحسب بل فلسفة في التاريخ تقوم على تصور منهار للعالم كما هو الحال في علم الكلام الأشعري وتفضيل المفضول على الأفضل، وتناقص الطبقات فضلاً. وهو ما يتفق مع عديد من الأحاديث حول خير القرون، وتحول النبوة بعد أن كانت خلافة إلى ملك عضوض[5]. التاريخ منهار، من السلف إلى الخلف، ومن النبوة إلى الملك العضوض، ومن الخلافة إلى الإمامة. تناقص العلم. وتحول من الباطن إلى الظاهر، ومن الغاية إلى الوسيلة، ومن

(1) «باب في ذكر خطأ الحلولية»، السابق ص541-543.
(2) «في ذكر من غلط في فناء البشرية»، السابق ص543.
(3) «في ذكر من غلط في فنائهم عن أوصافهم»، السابق ص552.
(4) «في ذكر من غلط في فقد المحسوس»، السابق ص553.
(5) ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف، قوت القلوب جـ1/ 331-338.

القضية إلى الحرفة، ومن الرسالة إلى المهنة[1]. وانهيار التاريخ قدر محتوم «الخلافة من بعدي ثلاثون سنة تتحول بعدها إلى ملك عضوض»، «خير القرون قرني ثم الذي يلونه» إلى آخر أحاديث فتنة آخر الزمان. وقد أطلع الله النبي على مصير الأمة. ومستقبلها في «الإغاثة» وعلى ما انتهى إليه من خلاف. فيستغفر الله لأمته في قلبه[2]. يأتي زمان يضل فيه الناس عن الدين، ويضيع منهم اليقين، وتسلب العقول[3]. لذلك كانوا يسألون عن حال بعضهم البعض. ضاع اليقين لكثرة الخصومات. وسيأتي زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان[4]. لذلك كان كلام السلف أنفع من كلام الخلف لأن السلف تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن في حين أن الخلف تكلموا لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق[5]. ومن نظر في سير السلف عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال. فالتصوف حركة نهوض للتاريخ المنهار من جديد[6]. هو إنقاذ المثال من الضياع مثل العالم الذي يعمل بعلمه والعارف الذي ينطق عن حقيقة[7].

ومثل كل ظاهرة حية قام التصوف وبلغ الذروة وانهار. ودخل فيه من ليس منه. وتحول إلى مجرد شعوذة ولبس ممزقة. وأصبح خاوياً، جهلاً بلا علم[8]

(1) «كان الرجل من أهل العلم، يزداد بعلمه بغضاً للدنيا وتركاً لها. واليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حباً ولها طلباً. وكان الرجل ينفق ماله على علمه. واليوم يكسب الرجل بعلمه مالاً. وكان يُرى على صاحب العلم زيادة في باطنه وظاهره. واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر»، ذو النون، طبقات الصوفية ص25.

(2) السابق ص393.

(3) «يأتي على الناس زمان يضلون فيه دينهم فلا يعرفونه. يصبح الرجل على دين ويمسي على دين. يضل أمره على غير يقين. وتسلب عقول أكثر أهل ذلك الزمان. وأول ما يرفع عنهم الخشوع ثم الإجابة ثم الورع، وربما الألفة».

(4) قوت القلوب جـ1/ 263.

(5) «يأتي على الناس زمان لا تضر فيه عين حكيم، ويأتي عليهم زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس»، بشر الحافي، طبقات الصوفية ص42.

(6) حمدون القصار، السابق ص125/ 127.

(7) أبو الحسن النوري «أعز الأشياء في زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقته»، السابق ص169.

(8) يقول الفناد:

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف خرقة =

ولبس الخرقة لم يكن في زمن الرسول[1]. أصبح التصوف اسماً ولا حقيقة بعد أن كان حقيقة ولا اسماً. فقد خضع التصوف لظاهرة القيام، والسقوط، والازدهار، والانهيار[2].

حدث التدهور من القرون الأولى واستمر في كل عصر. فحاول الصوفية النهوض من جديد. ثم انهار في المرحلة الرابعة وتحول إلى طرقية وأشكال ورسوم كان قد رفضها التصوف من قبل[3] «كان للقوم إشارات ثم صارت حركات ثم لم تبق إلا حسرات»[4] لذلك تكثر العبارات التي تنعي التصوف وتأسف على انهياره[5].

= صار التصوف صيحة وتواجدا ومطبّقة
مضت العلوم فلا علوم ولا قلوب مشرقة
كذبتْك نفسك ليس ذا سنن الطريق المخلقة
حتى تكون بعين من عنه العيون المحدقة
تجري عليك حروفه وهموم سرك مطرقة

اللمع ص47.

(1) طبقات الصوفية ص459-460.

(2) «ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التي يعتمدها الشيوخ في هذا الزمان لم يكن في زمان رسول الله...»، عوارف المعارف جـ2/ 48.

(3) «ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدال والغوص في إبطال المقالات. ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها. فأخذ علم اليقين في الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان. وأعرض عن ذلك إلا الأقلون فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً. والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً. وهذا لأن العوام هم المستمعون إليه فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره... هكذا ضعف الدين في قرون سالفة فكيف الظن بزمانك هذا. وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون. فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت... وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة...»، الإحياء جـ1/ 85.

(4) القشيرية ص127.

(5) كان السلف يكره بيع المصاحف وشراءها. كما ابتدع الخلق علوماً لم تكن عند السلف مثل علم الكلام والجدل، وعلوم المقاييس والنظر، والاستدلال على سنن الرسول بأدلة الرأي والمعقول، وإيثار علم العقل والرأي والقياس على ظواهر القرآن والإخبار، وإظهار الإشارات بالمواجيد من غير علومها وبيان تفصيلها مما يؤدي إلى حيرة السامعين =

ونظراً لأن التصوف رد فعل على الواقع وانهيار النبوة والخلافة إلى الملك العضوض فقد انتشرت أحاديث آخر الزمان المتعلقة بالخلاص على يد الصوفية. وهي نفس البيئة النفسية والاجتماعية والسياسية التي خرجت من الأحاديث عن المهدي الذي يظهر في آخر الزمان عند السنة والشيعة على حد سواء بوظيفتين مختلفتين، عند السنة كعلامة من علامات الساعة يقتل فيها المسيح الكذاب، وعند الشيعة للظهور في الدنيا وملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً[1].

ويفسد الصوفية ولا يبقي إلا القليل[2] ولا ينال أحد النجاة إلا بذبح نفسه بالجوع والصبر والجهاد لفساد أهل هذا الزمان[3] والتخلف عن إتّباع السلف لا يقدح في الخلف[4] فما زالت بركة السلف ممتدة إلى الخلف!

التصوف هو التأسيس الوجداني للعلم. يجمع أنواعاً من الإشارة وضروباً من العبارة[5] وبالتصوف جرأة على البلاغة[6] ومعنى التصوف أكبر من اسمه.

= وإضلال العاملين. ومنها الكلام في التوحيد بمخالفة الشرع، وتعارض الحقيقة والشريعة، والكلام في الدين بالوساوس والخطرات دون رد مواجيدها إلى الكتاب والسنة، ومنها السجع في الدعاء والتعزيب فيه، ومنها أخذ القرآن بالإرادة وتنازع الاثنين الآية دون خشوع ولا هيبة، ومنها التلحين في القراءة حتى لا تفهم التلاوة، ومنها التلحين في الأذان، ومنها التدقيق في القياس والنظر والتبحر في علوم النحو والعربية ومنها تسهيل ما تسدد فيه السلف، وتشديد ما تسامحوا فيه، ومنها دخول النساء الحمام من غير ضرورة، ودخول الرجل بغير مئزر. وهي بدع علمية وعملية في آن واحد.

(1) من العقيدة إلى الثورة، ج3 ـ النبوة ـ المعاد، ص528-551.

(2) «لم يبق في هذا الزمان لهذه الطائفة إلا رجلان: أبو علي الروزباري بمصر، وأبو بكر بن أبي سعدان بالعراق. وأبو بكر أفهمها»، طبقات الصوفية ص420. «التصوف اسم ولا حقيقة. وقد كان قبل حقيقة ولا اسم»، أبو الحسن البوشنجي، السابق ص459.

(3) السابق ص209.

(4) «وما يرى من التقصير في حق البعض من أهل زماننا والتخلف عن طريق سلفهم لا يقدح في أصل أمرهم وصحة طريقهم. وهذا القدر الباقي من الأثر واجتماع المتصوفة في الربط وما هيأ الله لهم من الرفق بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين وأثر من آثار منح الحق في حقهم...»، عوارف المعارف ج2/ 80.

(5) «هذا لسان التصوف. التصوف اسم يجمع أنواعاً من الإشارة وضروباً من العبارة. وجملته التذلل للحق بالتعذر على الحق»، الإشارات ص115.

(6) «وما أحوجني إلى جسارة بانبساط يرخص لي معك في التصرف. وينتج البلاغة عن طريق التصوف»، السابق ص130.

وحقيقته أشرف من رسمه[1].

الصوفية هم ملوك الدنيا والآخرة[2] هم إشكال بين من يدافع عنهم لتمسكهم بالكتاب والسنة ومن ينقدهم لانهيارهم وانحرافهم. ويكون ذلك مباشرة أو بتصوير فنّي في تخيل يوم القيامة وحوار بين آدم وأحد الصوفية. ينضم آدم إلى الصوفية ضد منتقديهم من الفقهاء. لقد قرّت عيناه بهم ثم حال قوم بينه وبينهم[3].

(1) «هذا لسان التصوف. والتصوف معناه أكبر من اسمه. وحقيقته أشرف من رسمه»، السابق ص163.

(2) «وبعد أن تخص هؤلاء فاعمم بأجمل تحية سائر ذوي الفضل من الصوفية. فإنهم ملوك الدنيا وسادة الآخرة»، السابق ص128.

(3) أبو بكر بن يزدانبار، طبقات الصوفية ص407.